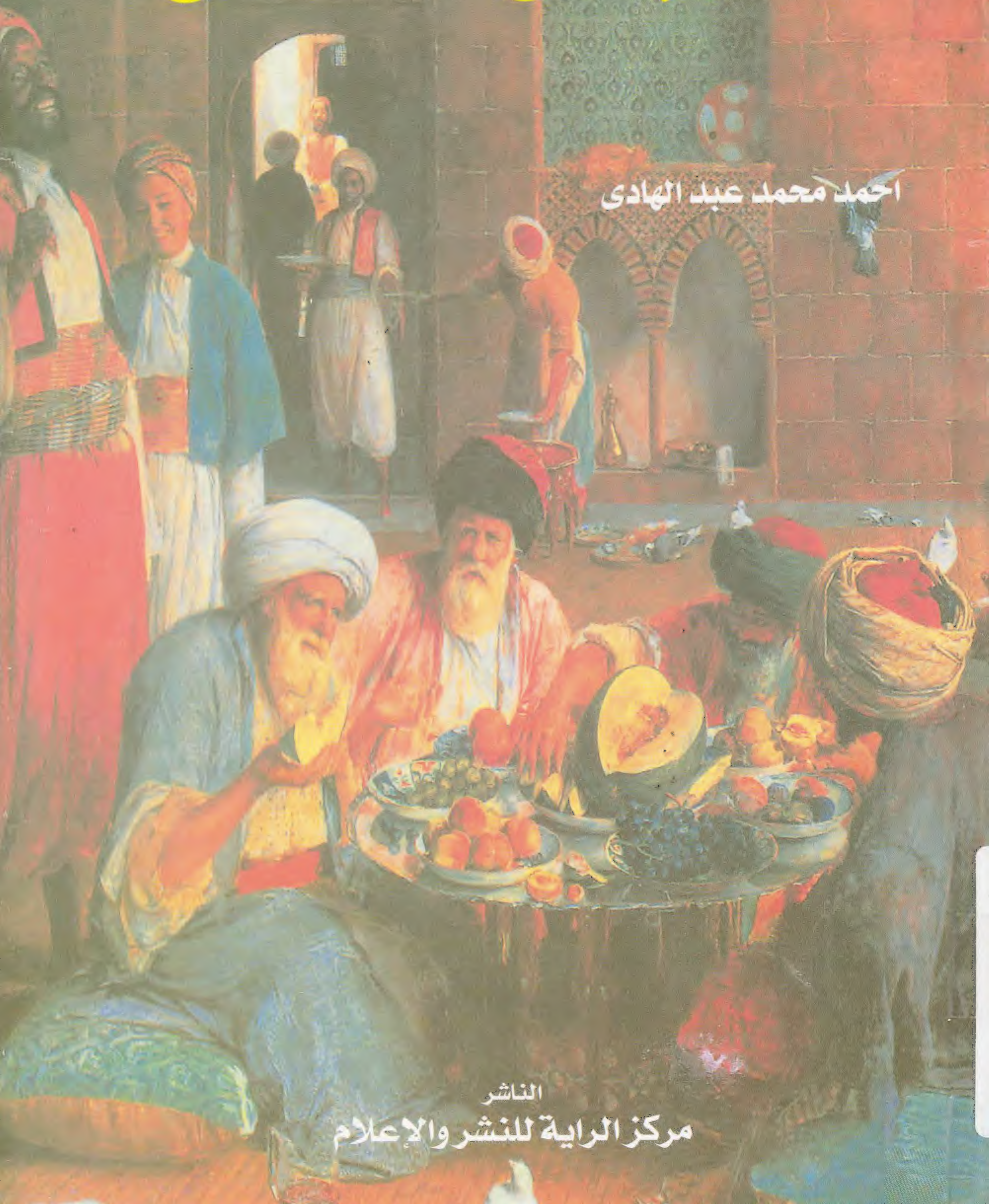


# العرب في الأندلس

أحمد محمد عبد الهادي



الناشر

مركز الرؤية للنشر والإعلام







# العرب في الأندلس

أحمد محمد عبد الهادي

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام



الكتاب : العرب في الأندلس

الـألف : أحمد محمد عبدالهادى

الطبعة : الأولى ٢٠٠١

الناشر : مركز الراية للنشر والإعلام

القاهرة - ٣٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى

تليفون : ٥٩٢٦٢١٩

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٢١٠١

الترقيم الدولى : ISBN: 977-5967-50-3

كافة حقوق الطبع والنشر هى ملك لمركز الراية للنشر والإعلام

ولا يجوز نقلها بأى وسيلة إلا بإذن كتابى من الناشر .



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله الذى أكرمنا بنعمة الإسلام ، وأصلح حالنا بالدين الختام ، وجعلنا خير أمة أخرجت لساائر الأنام ، بفضل الاستجابة لدعوة النبی علیه الصلاة والسلام، ورضى الله عن آله الطيبين الطاهرين وصحابته الأبرار ، الذين نشروا الدين فى جميع الديار والأمصار ، بالحكمة والموعظة الحسنة والترغيب فى الجنة وتخويف الظالمين من النار .

وبعد فهذا كتاب لا يستغنى عنه أى باحث عن الحقيقة ، ولا يففل عنه من يهमे تاريخ الفتوحات الإسلامية فى شبه جزيرة أيبيريا ( أسبانيا والبرتغال حالياً ) .  
والتي أطلق عليها بلاد الأندلس ، أو الفردوس المفقود ، تلك البلاد التي كانت زهرة الدنيا وعروس الأمصار ، وذلك بفضل الفتح الإسلامى لها فى عام ٩٢هـ / ٧١١م وعلى يد القائد المغوار طارق بن زياد مولى قائد الجيوش الإسلامية فى شمال أفريقيا موسى بن نصير .

وقد كان الفتح الإسلامى لتلك البلاد أعظم نعمة أسداها الله تعالى لأهلها . إذ أنقذهم من حكامهم الطفافة المتجبرين ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأنعم على من أسلم منهم بخير عقيدة ارتضاها لعباده . ونشر بين ربوع مدنهم وقراهم حضارة فريدة يحكمون بها ، ولا تستطيع عقولهم الساذجة أن تدركها ، وسرعان ما استجاب أهل تلك البلاد لنداء الحق ، وسرعان ما انتشر الإسلام فى ربوعها وطارد الظلام إلى ما بعد جبال البرانس على حدود بلاد الفرنجة ( فرنسا ) وأصبحت الأندلس عاصمة النور ، تضاهى مصر والعراق والشام ، وعاصمتها قرطبة تباهى القاهرة وبغداد ودمشق .

إلا أن هذا النور وجد من يحاول إطفاءه من الحاقدين على الإسلام والمسلمين . فكانت جيوش الفرنجة تناصر الممالك المسيحية فى أسبانيا لإنهاء الوجود الإسلامى فى الأندلس ، على مدى القرون الثمانية التى مكثها العرب فى تلك

---

البلاد ، ولهذا نشبت بين الفريقين حروب طاحنة ، كان للمسلمين في أغلبها الظفر والظهور . ولم يغلبهم عدوهم إلا بعد أن تفرقوا أحزاباً وشيعاً . وقاتل بعضهم بعضاً ، بل استعان بعضهم بالجيوش المسيحية على إخوانهم المسلمين . وبعضهم استفرق في الملذات والملوك والأمراء المسيحيون يجمعون أمرهم على خوض المعارك الشرسة ضدهم لاستئصالهم وإخراجهم من شبه جزيرة إيبيريا قاطبة .

وقد قويت شوكة النصارى في أسبانيا بقيام دولة قشتالة في الشمال واستيلائها على طليطلة العاصمة الأولى للمسلمين في عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م . وبعدها نشأت مملكة أراغون المسيحية المتعصبة باستيلاء الفرنجة على مقاطعة قATALونيا من المسلمين وتسليمها للأسبان المسيحيين في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . ثم مازالت هاتان المملكتان تكبران ويتسع نفوذهما على حساب المسلمين . ثم اتحدت هاتان المملكتان بزواج إيزابيلا ملكة قشتالة وليون بفيليب الثاني ملك أراغون . فأصبحت الممالك النصرانية هي القوة الرئيسية في شبه الجزيرة ، خاصة إذا علمنا بقيام مملكة ثالثة للنصارى الأسبان هي مملكة البرتغال في غربي شبه الجزيرة جنوبي نهر الدويرو .

وعلى يد الملكين فيليب الثاني الأراغواني وإيزابيلا القشتالية انتهى آخر معقل للمسلمين في الأندلس بتسليم أبي عبد الله مملكة غرناطة لهذين الملكين على أن يخرج هو ومن تبقى من المسلمين في غرناطة إلى بلاد المغرب ويتركوا كل شئ خلفهم للفازيين المنتصرين . وهكذا تنتهي قصة المسلمين في الأندلس في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢ م .

**ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانها وكانهم أحلام**

وهذا الكتاب « العرب في الأندلس » يحكى بصدق ونزاهة قصة الصراع المرير الذي مرَّ به المسلمون وهم يحاولون البقاء في الأندلس ولم يتعرض للجوانب الأخرى لحياتهم فيها . أعنى الجوانب الثقافية والحضارية والاجتماعية وانتشار العلوم والآداب والفنون والفلسفة بفضل وجودهم في تلك البلاد فهذه مجالات تضمها مؤلفات أخرى .

والله ولي التوفيق ،،،

**المؤلف**

القاهرة في ٨ ديسمبر ٢٠٠٠هـ

## الفصل الأول

# فتح الأندلس

لقد شهد تاريخ هذه الأمة فتناً وقلقاً شتى ، ولكنها كانت كالطود الأشم أمام هذه المحن ، لأن المحن هذه قد صهرتها ، فأظهرت نقاء معدنها ، وأزالت الشوائب العالقة بها ، فأصبح هذا المعدن النفيس كأحسن ما يكون المعدن بعد خروجه من البوتقة .

وجدير بالذكر أن الأمة الإسلامية في بداية بناء دولتها ، وقبل أن تتوطد دعائمها ويرسخ بنيانها وتتسع رقعتها ، منيت بوفاة مؤسسها الأول ونبي الإنسانية قاطبة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فشجعت هذه الكارثة مدعى النبوة والمفسدين في الأرض بعد إصلاحها ، على نشر سمومهم في أنحاء الجزيرة العربية .

كما شجعت ضعفاء العقيدة على الإنصياع وراءهم ، والدعوة لهم في أنحائها ، ولكن العزيمة الصادقة والإرادة القوية حدثت بأبي بكر الصديق ( رضى الله عنه ) أن يقسم بالله ألا ينكص على عقبيه أمام هذه الفتن ، بل أقسم بالله ليطمأنهم بسنابك خيله ، حتى يذعنوا لأوامره ، وحتى يعطوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

ثم جاءت الفتن الكبرى بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان اغتيال هذا الخليفة بذرة الصراع الدامى الذى شهدته هذه الأمة ، والذى جعلها تنقسم إلى طوائف عديدة متناحرة ، تتكالب على صولجان الحكم ، فبيعة المسلمين للخليفة الراشد الرابع : على بن أبى طالب لم يحالفها التوفيق ( لوجود بذرة العداء قبل مبايعته ) ، فمهدت بيعته لانشقاق فئة من المسلمين على الإجماع الإسلامى ، وكان على رأس هذه الفئة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، فخاض على ضدّهم معركة الجمل ، التى هزمهم فيها وأرجع

---

بعدها السيدة عائشة معرزة مكرمة إلى المدينة ، ثم انشق عليه معاوية بن أبي سفيان والى أقاليم الشام ، وخاض ضده معارك مروعة من أشهرها معركة صفين ، التي كُتبت فيها أسفار ضخمة ، وانتهت بخدعة التحكيم عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، وهذه الخدعة أدت بأصحاب علي أن ينقسموا على « أنفسهم فئتين ، فئة ترى أن هذه خدعة دبرها عمرو بن العاص لهم » وفئة أخرى ترى الإذعان لتحكيم كتاب الله فيما بينهم ، وقد سُميت الفئة الأولى بالخوارج ، وأصبحت تناصب علياً العداء فحاربهم وانتصر عليهم في معركة ( النهروان ) ورغم هذا فقد زادت المحن حتى بلغت الذروة بمقتل الحسين بن علي ، وانشقاق عبد الله ابن الزبير على الخلافة الأموية في دمشق ، بينما استشرت النعرة الجاهلية الأولى في نفوس القبائل العربية إذ رجعت القهقري إلى سؤالف العصور التي كانت فيها تتابذ بالألقاب ، فذبّ بينها ديب الحقد ( والأنانية ) وأصبح لا هم للخلفاء إلا أن يضربوا هذه القبائل ببعضها بعضاً ، ليصفو لهم الجو وتتوطد لهم دعائم الحكم .

كل هذه الفتن لم تكن إلا اختباراً لصلابة هذه الأمة ، وسبراً لغور الإيمان في نفوس ذويها ، فقد أثبتت صدق إيمانها ، وقوة عقيدتها ورباطة جأشها . وبسالة أبنائها وعزة نفوسهم ، وتصميمهم على نشر مبادئ الإسلام ، مهما اكتتفته المحن ومهما حاقت به الإحن .

فقد استطاع العرب بعد فتوحاتهم التي شملت أرض السواد حتى الهند شرقاً ، وشملت مصر وبرقة وطرابلس حتى طنجة غرباً ، استطاعوا أن يعبروا المضيق الذي يفصل أوروبا عن أفريقيا ، ويتجهوا صوب الأندلس بقيادة البطل طارق بن زياد ، والذي سُمي هذا المضيق باسمه فيما بعد . وهو الذي قال بعد أن عبر المضيق وأغرق سفنه في قاعه : العدو أمامكم والبحر خلفكم واعلموا أنكم أضيع من الأيتام على مائدة اللئام وفيه يقول الشاعر :

سلوا التاريخ من جاب البوادي	ومن ذا أودع البحر السفينا
ومن قال العدو أمام عيني	وخلفي لا أرى ركناً حصيناً
ومن نادى الجيوش : قفوا السنا	لمائدة اللئام ميمميناً

قال البلاذري : « قال الواقدي : غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير الأندلس وهو أول من غزاها وذلك في سنة اثنتين وتسعين ، فلقية أوليان (يوليان) وهو والي على مجاز الأندلس على سببة فأمنه طارق ، على أن حمله وأصحابه إلى الأندلس في السفن ، فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها ، وذلك في سنة اثنتين وتسعين وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبال وأصلهم من أصبهان ، ثم أن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتاباً غليظاً لتغريره بالمسلمين وافتئاته عليه بالرأى ، فترضاه طارق ، فرضي عنه فافتتح طارق مدينة طليطة ، وهي مدينة مملكة الأندلس وهي ما يلي فرنجة فرنسا . »

### لماذا عبر العرب المضيق الذي يفصل أوروبا عن أفريقيا :

إن الفتوحات التي حققها العرب في المشرق والمغرب لم تحدث لغيرهم في العصور التي سبقتهم أو العصور التي لحقتهم ، ولم يكونوا تجار حروب قط أو غزاة همهم سفك الدماء ، وإقامة إمبراطورية مترامية الأطراف على جثث أعدائهم المنحدرين . بل الحقيقة أنهم كانوا يجاهدون في سبيل الله ولرفع نير الحكام الظالمين عن كاهل الرعايا الضعفاء ، وكسر شوكة السادة المتحكمين في رقاب البشرية ونشر روح الإسلام السمحة التي قوامها التوحيد والمحبة والسلام بين الأمم . لهذا لم يكونوا في حاجة إلى توسيع أملاك الدولة الإسلامية بعبورهم المضيق ، والاستيلاء على أسبانيا والبرتغال وجنوبي فرنسا إلا أن داعي الجهاد ( الذي عرفناه آنفاً ) دعاهم إلى عبور هذا المضيق ، لما ترامى إلى أسماعهم ما كانت فيه أوروبا من جهالة وظلام ، وفحش وأوهام . وكان الشعب الأسباني يعاني الأمرين من القوطيين الذين تحكموا فيه تحكم السيد في رقاب أرقائه ، وفي هذا يقول الأستاذ سيد أمير على في كتابه ( مختصر تاريخ العرب ) : « وبينما كانت أفريقيا تنعم بالتسامح والعدل وبينما كانت تخطو خطوات واسعة في تاريخ الإزدهار المادي في ظل الحكم الإسلامي كانت جارتها أسبانيا تترج تحت نير القوط الحديدى ، والحق أن حالة تلك البلاد وأهلها لم تكن أسوأ منها ولا أتعس في عهد ملوك القوط . كانت طبقات الأغنياء والنبلاء والأعيان شأنها في أيام الرومان معفاة من الضرائب ، بينما كانت الطبقات الوسطى التي أقيت على عاتقها الأعباء العامة الثقيلة ، تن من

البؤس والفقر ، فقتل النشاط الصناعي وانعدام الانتاج وتوقفت التجارة ، وأصيبت البلاد بشلل مريع ، لا يقلُّ هولاً عن الشلل الذى أصابها بعد خروج المسلمين منها . ولم يكن هذا الجور الذى تعرضت له أسبانيا على يد القوطيين واقعاً على رعاياها فحسب ، بل كان أشد ما يكون على فئة اليهود بها وهم الذين ضُربت عليهم الذلة والمسكنة أينما تُقِفُوا إلاَّ بحبلٍ من الله وحبل من الناس ، ويذكر المؤرخ آنف الذكر أنَّهم كثيراً ما عانوا من عنت الملوك والكهنة ، وحاولوا الثورة على أسيادهم ولكن هؤلاء ما لبثوا أن قضوا عليها ، ونكَّلوا بهم أشد تنكيل ، وعاملوهم معاملة العبيد ، ووزَّعوهم كما توزع الفنائم والأسلاب ويقول المؤرخ : « هذا هو العقاب الذى أنزله رجال الدين أصحاب السلطة باليهود ، فأصبح المواطن البائس الفقير ، والعبد التمس والقن الشقى ، واليهودى المضطهد ، ينتظرون الخلاص الذى طالما انتظروه ، فما لبث أن جاءهم وهم فى ذروة بؤسهم ، من جهة لم تدرُ بخلدِهم ، كانت الولاية العربية على الضفة الأخرى من المضيق ، قد أصبحت ملجأً للهاربين من اضطهاد القوط وعسفهم ، وكان كثير من الأسبانيين قد لاقوا الصدور الرحبة فى أفريقيا الإسلامية ، وعاشوا فيها بعيدين عن طغيان ملوكهم وصف رجالهم » .

### المعارك التى خاضها المسلمون فى فتح الأندلس :

بدأ الصَّدَام بين العرب بقيادة طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بعد عبوره(\*) المضيق الذى سُمِّيَ باسمه فيما بعد ، وبين الأسبانيين عند الجيكراس ( الجزيرة ) وكان يحكمها تدمير أحد عمال روزريق ( ملك أسبانيا ) ، وكان عدَّة جيش طارق سبعة آلاف جندي ، استطاع بهم أن يمزق أعداءه شرَّ ممزق ، عندما اعترضوا سبيله وهو يزحف للاستيلاء على طليطلة عاصمة ملكهم . وقد وصلت الإمدادات إلى طارق من موسى بن نصير ، فبلغ تعداد جيشه إثني عشر ألفاً ، فى الوقت الذى كان روزريق يخمدُ الثورات التى قامت ضده فى الشمال .

---

(\*) سبق طارق بن زياد وال آخر يسمى طريف بن مالك - سبقة فى الجواز إلى الأندلس حيث عبر فى أربعمائة رجل معه مائة فرس فى أربعة مراكب فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس عرفت بجزيرة طريف . ثم أذن موسى بن نصير لعامله طارق بن زياد بتحملة الفزو .

**معركة سيدونيا وهزيمة القوط :**

وعندما أحس روزريق بغزو العرب للولايات الجنوبية من دولته ، قفل مسرعاً إلى عاصمته وراح يطلب من الرؤساء الإقطاعيين أن يناصروه ضدّ العرب ، ويقول المؤرخ سيد أمير على : « وقد بلغ جيش روزريق عندما انضمت إليه الإمدادات مائة ألف رجل ، ولذا كان الجيشان غير متكافئين إطلاقاً ، عندما التقيا على ضفاف نهر كوادليت ، إلى الشمال من سيدونيا » .

ومصادقاً لقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ تحقق النصر المبين للفئة القليلة الصابرة ، على الفئة الكثيرة المترعزة ، إذ انقسمت على نفسها ، فدارت عليها الدائرة ، وبعد هذا النصر الذي هلك فيه معظم الجيش الأسباني ، وبعد أن غرق قائده في نهر الكوادليت ، فتحت مدينتا سيدونيا وقرمونة أبوابهما للعرب ، وتبعتهما مدينة استجه التي تمركزت فيها فلول الجيوش الأسبانية ، ثم قسم طارق جيشه إلى أربع فرق : فسيّر أحد قواده إلى قرطبة ، وآخر إلى مالقة ، وثالثاً إلى غرناطة والبيرة ، وتوجّه هو إلى طليطلة عاصمة الأسبان فتكمنت جميع الفرق من دحر أعدائها ، والاستيلاء على المدن التي توجهت تلقاءها . كما تمكن من مطاردة فلول المنهزمين حتى حدود البلاد الشمالية .

**موسى بن نصير وطارق بن زياد في طليطلة :**

يذكر المؤرخ سيد أمير على مؤلف روح الإسلام في كتابه « مختصر تاريخ العرب » ، بأن أنباء الفتح ترامت إلى مسامع موسى بن نصير ، فدفعه حبُّ التنافس إلى أن يلحق بطارق بن زياد في ميادين القتال التي يخوضها ، فعبر المضيق على رأس جيش من ثمانية عشر ألف رجل ، ليكمل الفتح الذي بدأه قائده البار ، وكان في جيش موسى العديد من سادات اليمن وأحفاد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسار بهم شرقاً حتى وصل سافيللا وماردة وأخضعهما : الواحدة تلو الأخرى . وفي طليطلة لحق به طارق قائده المظفر ، ولقد شهد اجتماع القائدين خلافاً لم يكن يليق بهما ، على أنهما ما لبثا أن تصالحا ووحدّا قواتهما ، وزحفا على

أراغون ففتحت لهما أبوابها كل من سِرْقِسْطَة وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن الرئيسية في الشمال .

وفي أقل من عامين اثنين ، غدت بلاد أسبانيا كلها حتى جبال البرنيه (البرانس) في أيدي العرب ، وبعد بضع سنوات فتح العرب بلاد البرتغال ، وجعلوها ولاية مستقلة ، وأطلقوا عليها اسم الغرب ، وفي جبال الاسترياس وحدها استمر المسيحيون الأسبان ، في مقاومة المسلمين .

### فتوحات موسى في الشمال ثم استدعاؤه هو وطارق لدمشق :

وعهد موسى إلى طارق مهمة إخضاع مدن جليقية ، ثم سار إلى فرنسا شمالاً ، فاستولى على القسم المتاخم لها ، والمسمى بلاد لانكودوك ، وفكر في فتح أوروبا بأكملها حينما وصل إلى جبال البرنيه ، وذلك أن المغرب الأوربي قد أصبح بكامله تحت قدميه .

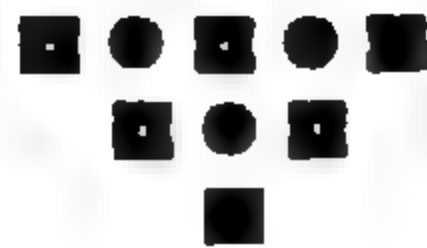
ولكن سياسة الحذر والتردد التي اتبعها بلاط الخلفاء في دمشق أضاعت تلك الفرصة الرائعة . وكانت النتيجة أن ظلت أوروبا غارقة في ظلام الجهل طوال القرون الثمانية التالية لفتح الأندلس ، فقد أصدر الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى موسى أمراً بالتوقف عن الانسحاب نحو الشمال ، بينما كان يستعد للتوغل في فرنسا بغية اجتيازها إلى إيطاليا ، فحصر اهتمامه في إخضاع الأقسام الجبلية من أسبانيا ، حيث كان المسيحيون يقيمون حصونهم الجبلية المنيعة فيها ، وحيث كانوا يدافعون منها العرب دفاع اليائس المستميت .

واستطاع موسى أن يشدد النكير على الفلول المسيحية المعتصمة بجبال الأوسترياس ، فاستسلمت واحدة تلو الأخرى ، حتى لم يبقَ منها سوى جماعة بيلايو وقليل من أنصاره ، وكان سيُلْقَى سلاحه لولا أن وصل رسول من دمشق يستدعي القائدين ويحملهما على العودة إليها . ومهما كان الدافع الذي حدا بالخليفة أن يستدعيهما فإن هذا الاستدعاء كان كارثة عظيمة على الإسلام ، ذلك أن رحيل موسى وطارق مكن بيلايو من تحصين نفسه من الجبال ، وأمكنه أن يكون نواة لتلك

القوة التي قُدِّر لها من بعد أن تقتصر على الولايات الإسلامية ، وتسترد كل الذي صار في أيدي العرب بعد ثمانية قرون من الفتح ، وبعد أن أخذت هذه القوة النصرانية تزداد قوة وأنصاراً بمرور الأعوام والعصور .

على أن هذا الفتح العظيم قد كانت له آثار طيبة في تلك البلاد ، رغم القلاقل التي كان يثيرها المتمردون المعتصمون بجبال الاسترياس والهضاب العالية والوديان المنزوية .. كما أن هذه الانتصارات لم تكن لتتحقق لولا توافر أسباب عدة وعلى أثر هذه الفتوحات يمكننا أن نستنتج النقاط التالية :

- ١ - إن العرب الفاتحين لم يكن هدفهم التوسع الإقليمي في القارات الثلاث ( آسيا وأفريقيا وأوروبا ) بقدر ما كانوا يهدفون إلى بث روح الإسلام في الشعوب التي كانت تترجح تحت نير حكامها .
  - ٢ - إن فضل العرب على أوروبا لم تزل نتائجه حتى اليوم شاهدة على ما قدموه من خير للإنسانية جمعاء .
  - ٣ - إن العرب بفتحهم للأندلس أيقظوها من سبات عميق كانت تغط فيه سائر أوروبا في ذلك الحين .
  - ٤ - إن الانتصارات المتلاحقة التي حققتها الجيوش العربية قليلة العدد على الجيوش الأوروبية كان من أسبابها :
- قوة إيمان الفئة المسلمة ، وانحياز بعض الموالين للأسبان إلى العرب ، ثم وجود قادة مغامرين .





## الفصل الثاني

# العرب في الأندلس

- معارك السمح بن مالك وظهور شخصية الغافقي .
- معارك عبد الرحمن الغافقي .
- هجمات المسلمين بعد معركة تور على فرنسا .
- معارك العرب في الأندلس في عهد أبطال ثلاثة .
- معاركة العرب في عصور ملوك الطوائف .
- المعتمد بن عباد وأبوبكر بن عمار ومعركة الشطرنج .







## العرب فى الأندلس

تمهيد :

أعقب فتح العرب للأندلس تطور هائل فى ولاياتها المختلفة ، فقد طوّرها العرب ثقافياً وإدارياً وحضارياً ، حتى إنها أصبحت فردوس أوروبا فى ذلك الحين ، ولم تكن أوروبا آنئذ سوى قارة ظلماء تتعق فيها البوم والغريان ، ويعبث فيها الفوغاء والمفسدون ، وتقام فيها ولايات عديدة بلا أساس ، وتنهار فى عمر الزهر ، وذلك لعدم توافر أسباب قيام الدولة فى كل إمارة منها ، ثم إن هذه الإمارات وتلك الدويلات ، ليس فيها المؤسسون الأكفاء الذين ينهضون بأعباء الملك . ولقد قسم العرب أسبانيا إلى أربع مقاطعات كبيرة وجعلوا على كل منها حاكماً مسئولاً تجاه أمير الأندلس مباشرة ..

( أ ) المقاطعة الأولى : تقع ما بين البحر ونهر الوادى الكبير .. ومن أشهر مدنها قرطبة وأشبيلية ومالقة وجبّان .

( ب ) المقاطعة الثانية : وهى أسبانيا الوسطى ومن أشهر مدنها طليطلة وقونقا وسيقوبيا وبلنسية وقرطاجنة ( الجديدة ) .

( ج ) المقاطعة الثالثة : وتتألف من جليقية ولويسيتانية ومن أهم مدنها ماردا وباجة ولشبونة .

( د ) المقاطعة الرابعة : تمتد من شاطئ الدورو إلى جبال البرنيه ومن أهم مدنها سرقسطة وطرطوشة وترغونة وبرشلونة .

وقد تباين شعب الأندلس لغة وجنساً وديناً ، فقد كان بها أقوام من بلاد شتى ، بالإضافة إلى أصحاب البلاد الأصليين ، من مسيحيى أسبانيا ، ومن المسلمين الذين كانوا مسيحيين قبلاً ، ويمكن تقسيمهم على النحو التالى :

١ - العرب المضربون الذين جاءوا مع الفتح الإسلامى من الحجاز والعراق وبعض بلاد الشام .

---

- ٢ - العرب الحميريون وهم من أصل حميرى وقد نزحوا من بلاد اليمن والشام .
- ٣ - المسلمون المستعربون من مصر ، ومن شمال أفريقيا ( وهم الذين كان يطلق عليهم البربر ) .
- ٤ - فئة اليهود الذين استظلوا تحت الحكم الإسلامى واستخدموا فى بلاط الأمراء الأندلسيين .
- ٥ - المسلمون المستعربون من أهالى البلاد وهم المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام وانصهروا مع العرب برابطة الدين والمصاهرة .
- ٦ - المسيحيون الذين ظلوا على ديانتهم دون أن يكرهوا على الدخول فى الإسلام . مثلهم مثل اليهود يقيمون شعائهم الدينية فى حرية مطلقة دون رقيب أو حسيب .

وعندما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير وطارق بن زياد، اتخذ موسى قبل رحيله جميع التدابير لحكم الأندلس ، فعين ابنه عبد العزيز حاكماً عليها ، وجعل أشبيلية مقراً لحكمه وعيّن ابنه الأوسط حاكماً على أفريقيا والأصغر حاكماً على المغرب الأقصى ، وقد اهتم العرب بتحسين قواعدهم البحرية ، وإقامة الترسانات البحرية ، والارتفاع بمستوى أسطولهم الحربي فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى .

وبعد انتهاء حكم الوليد بن عبد الملك ، ولى الخلافة بعده أخوه سليمان ، وكان أراف منه فى معاملة رعاياه ، إذ أمر بإطلاق المسجونين ، وبفك الأسار من المفضوب عليهم ، وقد كان طاغية بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى ، قد زجّ بهم فى السجون وسامهم سوء العذاب .

إلا أن حكم سليمان بن عبد الملك لم يكن خيراً كلّهُ ، فلو كان كذلك لكان الخليفة العادل فى بنى أمية ، إلا أنه أساء معاملة القائدين العظمين اللذين فتحا الأندلس ( موسى بن نصير وطارق بن زياد ) وكذلك ( كما يقول سيد أمير على )

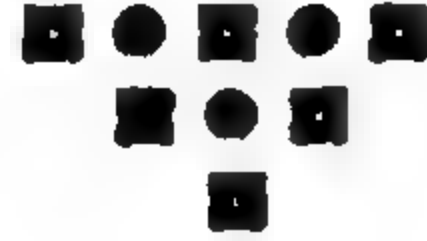
كان على علم بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذى حقق حكمه ازدهاراً عظيماً فى الأندلس ( كما استدعى محمد بن القاسم فاتح السند والبنجاب ، والذى فاز بمحبة الهندوس لعدله وإنصافه ، وكان ذنب محمد الوحيد أنه من أقارب الحجاج ، ولذلك لقى أشد صنوف العذاب على يدى يزيد بن المهلب ، وعُين مكانه حبيب أحد أشقاء يزيد حاكماً على الهند ، فأضاع رغم شجاعته تلك المنزلة التى كان سلفه قد اكتسبها بين الهنود ) ..

وقد تولى إمارة الأندلس عقب مقتل عبد العزيز بن موسى ، ولاة كثيرون منهم أيوب بن حبيب الذى انتخبه الجيش العربى بالأندلس ، ثم ( الحرّ ) الذى عينه الخليفة بدلاً منه ، وهو الذى جلب كثيراً من الأسر العربية فى أفريقيا ، فاتخذهم حاشية له حتى أصبحوا يشبهون نبلاء أوروبا وإقطاعيها ( ومنذ ذلك الحين حتى استيلاء العباسيين على الخلافة ظل يحكم أسبانيا سلسلة من الحكام يعينهم الخلفاء فى دمشق تارة ، وأمراء أفريقيا ومركزهم القيروان تارة أخرى ، وكانت هذه السلطة الموزعة مصدراً لشرٍ عظيم ، ذلك أنها أفسدت الإدارة واعترضت الحكم وشجعت الاضطرابات وحالت دون تعزيز الحاميات النائية » ..

وقبل أن يستسلم الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك لسبات عميق فى رقدته الأخيرة ، أوصى بأيلولة الخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، ولما بويع عمر الثانى بالخلافة سار على نهج جدّه لأمه عمر بن الخطاب ( رضه ) ومسح عن الخلافة الإسلامية دنس بنى أمية . ويعتبره أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين وكان تقياً وورعاً ، وحاكماً عادلاً ، وخليفة متواضعاً ( وقد وجدته زوجته فاطمة بنت عبد الملك يبكى ذات مرة بعد الصلاة فسألتها عما يبكيه فقال : لقد وُليت أمور المسلمين وغير المسلمين فتذكرت الفقراء الذين يموتون جوعاً ، والمرضى المحرومين ، والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين ، والشيوخ مهيضى الجناح ، فخشيت أن يحاسبنى الله من أجلهم حساباً عسيراً ولهذا بكيت ) - وليس هنا مجال لتعداد مآثر هذا الخليفة الإنسان ، إلا أننا أشرنا إليها كلمح بالبصر ، ولم يكن فى مقدورنا

الإتيان بتلك الخصال الحميدة ولعلّ من خير مَنْ أَلَفَ عنه الدكتور : أحمد حسن الشرياصى ( انظر كتاب الشعب العدد ٥٢ ، ٦٢ : خامس الخلفاء الراشدين : عمر بن عبد العزيز ) .

ولمّا عجز « الحرّ » عن التفاهم مع الأسبانيين قامت اضطرابات عمّت البلاد شرقها وغربها فعزله عمر فى عام ٧١٩ م ووُلّى مكانه زعيمًا يمانياً يدعى ( السمع بن مالك ) وكان مشهوراً بقدرته الحربية وكفاءته الإدارية ( ولذا عهد إليه بإعادة تنظيم الدولة فى الشئون المالية والإدارية ) .



## معارك السمح بن مالك وبروز شخصية الغافقى

يقول مؤرخنا الإسلامى سيد أمير على ( وبعد أن أعاد النظام إلى نصابه فى أسبانيا أخذ السمح على عاتقه تأديب العصاة المسيحيين فى الأنكىدوك والبروفانس فهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعقل الجبلية فى الاسترياس كما اكتسح ( ستمانية ) وفتحت ( أربونة ) أبوابها وحذت حذوها مدن كثيرة أخرى ) .

**بروز شخصية عبد الرحمن الغافقى ( أعظم قائد عربى عرفه الفرنجه ) :**

ثم زحف السمح تجاه ( تولوز ) عاصمة الأكواتين وحاصرها بقوة صغيرة ، وقبل أن تأتیه الإمدادات داهمته جنوده عدوه ( أبوديس ) وكان على رأس جيش يناهز عشرة أمثال جيش السمح ، وقد أبدت جنود السمح بسالة نادرة النظير وقد صممت على الفوز بإحدى الحسنيين ( وكسر قوادهم أغماد سيوفهم وهم مصممون على الانتصار أو الموت ) واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين لمدة طويلة أعقبها إصابة السمح برمح فى عنقه فهوى صريعاً . وكادت أن تخور عزائم العرب عقب مقتل قائدهم ، إلا أن أحد الجنود ويدعى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى استطاع أن يمسك بأعنة القيادة ، ( ونجح فى سحب الجند من البروفانس بمهارة وشجاعة فائقتين حازتا إعجاب أعدائه أنفسهم ، ولقد وقعت معركة تولوز التى هلك فيها عدد كبير من العرب المشهورين فى شهر آيار من سنة ٧٢١ م أى بعد وفاة عمر بن عبد العزيز بقليل ) .

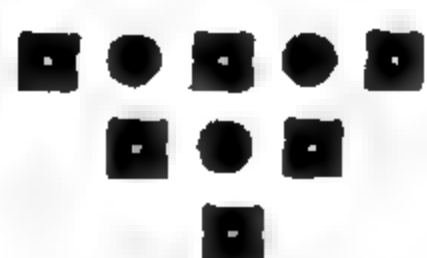
وهكذا استطاع الجيش أن يتخير من جنوده من يستطيع أن ينجو بهم من شر محقق ، وهذا الموقف يذكرنا بوقعة مؤتة التى استطاع فيها المسلمون أن يختاروا خالد بن الوليد قائداً لهم ، عقب سقوط القواد الثلاثة الذين عينهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لخوض المعركة ، وهذا القائد العربى الذى أمسك بزمام القيادة

---

لم يستمر فيها سوى بضعة أشهر قبل وصول القائد ( عنبسة ) الذي قدم من قبل أمير أفريقيا والياً على الأندلس .

### دروس وعبر من معركة تولوز ( السابقة ) :

- ١ - إن الجندي العربي لا يهاب الموت عند مفاجأة العدو له ولا يستسلم مهما كانت ظروف المعركة .
- ٢ - إن الجندي العربي المحنك على أهبة الاستعداد لتولى زمام القيادة عند استدعاء الأمر .
- ٣ - إن القيادة في الجيش العربي تكليف وليست تشريفاً والقائد الماهر هو المكلف بها .
- ٤ - إن العرب الذين طرّقوا أبواب فرنسا غازين لم يكونوا دعاة حرب وإنما هم رسل حضارة ورواد فكر سام ، لإنقاذ أوروبا من غياهب الظلام الذي خيم عليها ، وليس هناك بديل لنشر تلك المبادئ عن الحرب .



## معارك عبد الرحمن الغافقي

### تولية عبد الرحمن الغافقي على الأندلس :

لم يستمر ( عنبسة ) فى الحكم طويلاً ، حتى اغتيل فى كمين نصبه له « السقوبيون » فى أحد شعاب جبال البرانس . وقد تولّى الإمارة بعده خمسة أمراء وآخرهم عيثة الخليفة هشام بن عبد الملك ويدعى الهيثم ، واستطاع هذا الأمير أن يحرز انتصاراً ساحقاً على أعدائه باستيلائه على ليون وماسون وشالمون وبون واتون ( وصالحته مدن أخرى على دفع الجزية ولكن هذا الفتح فى النهاية لم يأت ثماره ، ذلك أن العرب بسبب اختلافاتهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بهذه المدن ، كما أن وحشية البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأكبر من الجيش الإسلامى حوّلت ود أهل ( استمانيه ) إلى عداء مرير ، هذا ما ذكره المؤرخ الإسلامى سيد أمير فى كتابه « مختصر تاريخ العرب » .

وبعد أن قتل الهيثم ولى الخليفة هشام عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس ، فكان أعظم قائد شهدته تاريخ العرب فى الأندلس ، إذ استطاع بكفائته العسكرية أن يبنى جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات شبيهة بانتصارات طارق بن زياد وموسى بن نصير ، كما أن عبد الرحمن كان بمثابة القائد الذى أعدته المقادير للانتقام لشهداء معركة ( تولوز ) فى أيام السمع بن مالك .

وقد كان هذا القائد العربى على دراية عالية بسياسة البلاد وإدارتها ، وتنظيم ولاياتها المختلفة ، فقام بإصلاحات فى كل مجال من المجالات التجارية والزراعية والشئون العسكرية ، وهكذا استطاع أن يثبت قدميه قبل أن يزحف تجاه فرنسا ، كما أثبت له التاريخ تسامحه الجم وجِدّه المتواصل لإزالة الحزازات ونزع المشاحنات الداخلية ، ومعاملة جميع الطبقات على قدم المساواة .

---

**اغتيال منوزة وغزو جنوبى فرنسا :**

قام أحد الولاة المسلمين فى جبال البرانس ويدعى عثمان بن أبى نسة ، وقد أسماه الذميون منوزة بعد تزوجه بلامبيكى الجميلة ابنة ( أودى ) حاكم ( إكواتين ) الذى عقد معه معاهدة تحالف هجومية ضد الإمارات العربية ، ولم يلبث منوزة أن أعلن عصيانه وخروجه على عبد الرحمن الغافقى ، واستعد لملاقاة جيوش المسلمين فى إمارته ( مدينة الباب ) فداهمته جيوش عبد الرحمن فهزمت هزيمة منكرة ، قتل عقبها وأسرت زوجته ، فأرسلت إلى بلاط الخليفة الأموى بدمشق .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من منوزا ، وجد حليفه ( أودى ) يستعد على رأس الجيوش المتحالفة معه من الفرنج والقوط ، للانقضاض على جيش المسلمين الذى كان قاب قوسين أو أدنى من غاليس ( فرنسا ) . وفى هذا الحين توالى إمدادات الجيوش العربية حتى تضاعف تعدادها ، ويقول المؤرخون إنه أعظم جيش سيره المسلمون صوب فرنسا ، وكان ذلك فى عام ١١٤ هـ ( ٧٣٢ م ) ، واخترق جبال البرنيه ، وزحف على إمارة إكواتين وهزم الدوق ( أودى ) هزيمة منكرة ، واستولى على عاصمته ( بوردو ) وتبعها جميع ولاياتها الأخرى ، ثم تقدم الجيش العربى نحو الرون ( واخترق ولاية برجونيه واستولى على ليون وميزانسون ، ووصلت سرياته إلى صانص ) التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . ثم تحول عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقة ، ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج وتم هذا السير المظفر وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله ، من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر ، هذا ما ذكره مؤرخنا العربى محمد عبد الله عنان فى مجلة العربى العدد السابع .

**موقعة بلاط الشهداء ( أو موقعة تور ) واغتيال عبد الرحمن الغافقى :**

بعد هذه المعارك التى انتصر فيها العرب على حاكم ( إكواتين ) وبعد زحفهم المظفر إلى قلب فرنسا ، ظهر أمامهم قائد مسيحي ذو كفاءة عالية يدعى كارل مارتل ، وقد استطاع تجميع جنوده حتى أصبحت أضعاف الجيش الإسلامى ، كما

سعى إلى عقد تحالف مع سائر الدويلات والإمارات المسيحية في شمال غزلى أوروبا، ثم تقدمت هذه الحشود تجاه جيش المسلمين الذى عبر نهر اللوار شمالاً ، فاستطاعت أن توقف تقدمه وأن تجبره على الانسحاب إلى جنوب النهر .

ثم عسكرت الجيوش الإسلامية جنوبى مدينة ( تور ) بينما عسكر كارل مارتل بجنوده إلى يسار المسلمين غير بعيد عن معسكرهم . وأثناء هذه المعارك التى خاضها عبد الرحمن بجنود أعيان الكثيرين منهم ما أصابهم من السهام ، ورشق النبال وطعنات الحراب وإصابات السيوف . إزاء هذا الموقف الدقيق ، كان عليه إما أن يرتد مندحراً إلى الجنوب تاركاً أسلابه وغنائمه ، وجميع ما استولى عليه من الإمارات الفرنسية ، وإما أن يقاتل عدوة قتالاً مستميتاً ، واضعاً نصب عينيه إما النصر وإما الشهادة فى سبيل الله .

والتقى الجيشان فى أعظم معركة شهدتها الأندلس ، طيلة القرون الثمانية التى عاشها المسلمون فى أسبانيا . كما اعتبرها المؤرخون الموقعة الحاسمة بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية ، فهى آخر محاولة لغزو أمم الشمال من أوروبا ( وإن كان قد حدث بعدها عدة محاولات إلا أنها لم تكن كمثل هذه المحاولة فى عظمها وشدة بأسها ) وقد أجمع كُتّاب الغرب على أن هذه المعركة لو انتصر فيها العرب ، لصارت جميع بلاد أوروبا فى قبضة المسلمين إلى ما شاء الله .

وقد سميت هذه المعركة بلاط الشهداء ، لكثرة الشهداء الذين سقطوا أثناءها من أبطال المسلمين الأفاذاذ ، وقد كان اليوم التاسع من المعركة يوماً حاسماً ، إذ لاحت فى بدايته طوالع النصر للمسلمين ثم أصاب قائدهم عبد الرحمن سهم لم يخطئه ، فأرداه قتيلاً من أعلى صهوة جواده .. وهناك ابتلى المسلمون ابتلاء حسناً ، فذب فيهم الذعر والاضطراب وكادوا أن يولوا الأدبار فى أقل من القليل .

**انسحاب المسلمين من جنوبى فرنسا :**

كان اليوم الحادى والعشرون من أكتوبر سنة ٧٣٢ م ( أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ ) يوم شؤم على المسلمين ، إذ سقط فيه خيرة قوادهم ، واشتدت عليهم وطأة

الفرنج لضخامة عددهم وعتادهم ، ولم ينقذ العرب منهم إلا دخول الليل ، إزاء هذا الموقف الدقيق قرر المسلمون الانسحاب فوراً ، وارتدت جموعهم تحت جنح الظلام تاركة أسلابها وغنائمها لعدوها الذى هالته فرحة النصر ، وأعمته نشوة الانتقام ، إلا أنه عاد أدراجه نحو الشمال خوفاً من الوقوع فى أحد الكمائن التى يحتمل أن يوقعهم فيها المسلمون .

### عبد الرحمن الغافقى فى سطور ( نقلاً عن مجلة العربى ) :

- ١ - أمير عربى ولاء الخليفة هشام بن عبد الملك على الأندلس فى عام ١١٢ هـ ( ٧٠٩ م ) ويعتبر من أعظم الولاة فى عصر الخلافة الأموية .
- ٢ - اشتهر بغزو فرنسا بعد أن ارتد المسلمون عن مدينة ( تولوز ) .
- ٣ - عبر عبد الرحمن جبال ( البرانس ) ودخل أرض فرنسا عام ٧٣٢ م فانتصر على جيوش دوق إكواتين على نهر الرون .
- ٤ - ثم اتجه نحو ( بور دو ) فاستولى عليها ثم على إقليم بروجونيا وخفق علمه على مدينة ليون .
- ٥ - تحالف الأمراء الفرنسيون ضده والتقوا به عند مدينة تور ( بلاط الشهداء ) على نهر اللوار وفيها قتل عبد الرحمن ، مما أدى إلى ارتداد العرب بعد انتصارهم .
- ٦ - كانت هذه الواقعة الحد الذى وصل إليه توغل العرب فى شمال أوروبا .
- ٧ - توفى عام ٧٣٢ م .

### دروس وعبر من معارك الغافقى فى الأندلس :

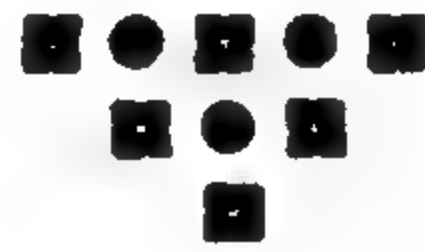
إذا تتبعنا المعارك التى خاضها العرب فى الأندلس فى زمن ذلك القائد المظفر فيمكننا استخلاص النتائج التالية :

- ١ - إن الروح المعنوية للجنود تكون فى أعلى مستوى لها عندما يتولى القيادة القيادة رجل كفاء فى وقت الشدة ، حيث يستطيع ردء الأخطار التى كان يمكن أن تحيق بالجيش لولاه .

٢ - إن اختلاف أمراء المسلمين في الأندلس جنودهم ، كان نواة الفتنة التي كانت بدورها سبباً في زوال حكمهم عنها .

٣ - إن العدو يستخدم عادة ضعف النفوس لطعننا في الظهر ويمكنه أن يستقطبهم إلى جانبه ، بسهولة إذا عرف مواطن الضعف فيهم ، ولذا فإن القادة الضعفاء الذين هم حرة في أظهرنا ينبغي تنحيهم تماماً عن القيادة قبل أن يكونوا عيوناً للأعداء ، ثم يصبحون رأس حربة تطعننا من الخلف .

٤ - إن أوروبا كانت بين ( فكي الكماشة ) الإسلامية في عصور التاريخ السالفة ، ولم يفلتها من قبضة المسلمين إلا الخونة أو الطابور الخامس الذي كان يساعد العدو وهو في ظاهره نصير للمسلمين . وإن معركة « تور » هي إحدى المعارك التي كانت معرضاً للصراع بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي المسيحي .



## هجمات المسلمين بعد معركة ( تور ) على فرنسا

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك والياً آخر يدعى عبد الملك بن قطن الفهرى ، عقب الأنباء التى توافرت إليه عن معركة ( تور ) ومقتل الفافقى فيها وكثير من المسلمين . وأوصى القائد الجديد بأن يثبت جذارته فى ولايته الجديدة ، وأن يُشعر أعداءه ببقاء لواء المسلمين عالياً خفاقاً على ريع الأندلس ، حتى لا تكون تلك المعركة فاتحة لهزائم أخرى متلاحقة على يد كارل مارتل وأنصاره .. فاستطاع الوالى الجديد أن يقضى على الثوار قضاءً مبرماً ، وأن يدخل ( أراغون ) و ( نافارة ) وأن يستولى على لانكيدوك ، كما استطاع تعزيز مواقع المسلمين فى تلك الجهات .

واستطاع المسلمون بتحالفهم مع بعض الزعماء فى أوروبا ، أن يعيدوا الكرة مرة بعد مرة لغزو الجزء الأكبر من فرنسا ، فغبروا نهر الرون واستولوا على ( سان ريمى ) و ( أفنون ) وعقب هذه الهجمات عزل الخليفة هشام قائده عبد الملك وولّى بعده ( عقبة بن الحجاج السلولى ) إمارة الأندلس « وكان رجلاً عادلاً فاضلاً محبوباً من جميع المسلمين ، وفى خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه دخل فرنسا مراتٍ عدّة ، ووصل رجاله وسلاحه إلى أبعد مما وصل إليه المسلمون من قبل ، وفى عهده أقام المسلمون حاميات فى جميع الأماكن المكشوفة ، حتى نهر الرون وكانت هذه المراكز العسكرية تدعى ( الرباط ) وكانت الغاية منها الدفاع والاستكشاف » .

واستمرت هجمات المسلمين على فرنسا تتوالى عاماً بعد عام فاستولوا على مدن عديدة ، وهددوا عاصمتها أكثر من مرة ولم يستطع كارل مارتل أن يحرز عليهم انتصاراً مماثلاً لانتصاره فى ( بلاط الشهداء ) رغم تحالفه مع ممالك عديدة فى أوروبا ، بل كان موقفه موقف المدافع اليائس ، فكان يخرب المدن ويحرق الزرع ويقتل الأدميين الأبرياء ، ما إن وقعوا فى قبضته ويمثل بجنود عدوه أبشع تمثيل .

وقد قام عبد الملك بن قطن الفهرى بثورة ضد الوالى الجديد عقبة بن الحجاج

استطاع فيها أن يأسره ويفتك به ، ولم يلبث عبد الملك أن لقي مصيراً مماثلاً لمصير غريمه على أيدي الثوار الذين ثاروا ضده . ثم أعقب هذه الاغتيالات قيام حرب أهلية طاحنة في الأندلس حيث قسمتها إلى ثلاث شُعب : شُعبة تناصر الوالى ثعلبة ابن سلامة ، وشُعبة تناصر أبناء عبد الملك بن قُطْن ، وثالثة وهم البربر وكانوا يسعون إلى جعل السلطة في قبضتهم دون سواهم . وإزاء هذا الموقف الدقيق ، أخذ ملوك أوروبا يرقبون المسلمين بأعينٍ فاحصة ، ولم ياهجموهم إيماناً منهم بأن الفتنة كقيلة بأن تعركهم عرْك الرَّحَى بِثِقَالِهَا فيصبحوا لقمة سائغة في يد أعدائهم .

ولم تكن هذه الفتنة في الأندلس إلا جزءاً من الفتنة الكبرى التي كانت تعم البلاد الإسلامية آنئذ ، وكان مركز تلك الفتنة عاصمة الأمويين دمشق ، حيث كانوا يوجهون أوامرهم الصارمة بالضرب بيدٍ من حديد على كل من تخوّل له نفسه القيام بثورة مضادة لسياسة الأمويين ، وقد كان أخوف ما يخافون وأخشى ما يخشون ، اشتداد الدعوة لآل البيت ، ولذا كانوا يفتكون بهم في غير رحمة ورأفة ، حتى وصل بهم الأمر إلى أن يفتكوا بحفيد النبی صلی الله عليه وسلّم الحسين بن علي ابن أبي طالب ( كرم الله وجهه ) . وقد فعلوا هذه الفعلة الشنعاء بحفيد المصطفى صلی الله عليه وسلّم ، دون أن يرعوا حقاً للدين أو الرحم ويكفى أن قائد الأمويين كان فتى لم يعرف نسبه ، فكان لا يأبه بما يفعل ، ألا وهو زياد بن أبيه ولم يتركوا الحسين بعد موته بل نبشوا قبره وأخرجوا جثته وعلبوا ، هكذا بلغت الفتنة ذروتها في بلاد المسلمين ، ولم تحرز الجيوش الإسلامية آنئذ انتصارات على أعدائها شبيهة بالانتصارات التي أحرزتها قبل نشوب تلك الفتنة .

نعود إلى الحرب الأهلية التي اشتعل أوارها في أسبانيا لنعرف عن ماذا انجلى الموقف ؟ يذكر المؤرخون بأن ثعلبة بن سلامة استطاع أن يوقع بأعدائه هزيمة منكرة ، إلا أن ولايته لم تدم إلى الوقت الذي كان يستطيع فيه أن يفتك بكل أعدائه ، بل صدر أمر الخليفة بتولية أبي الخطار حسام اليماني ( ويقول المؤرخون أنه لم يكد يصل إلى الأندلس حتى جنحت الطوائف إلى السلم وانصاع الثوار ) .

غير أن هذا الوالى لم يُطل به العهد على الولاية ، حتى أظهر تحزبه مع القبائل اليمانية ، واشتعلت الحرب الأهلية مرة ثانية وقضى فيها على اليمانيين قضاءً

مبرماً، وقتل أبو الخطار أثناء تلك الحرب ( واختار المصريون ثوبة بن سلامة حاكماً عليهم ) ثم وَلَّى أمر الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري أحد أحفاد عقبة بن نافع فاتح أفريقيا ، واستطاع أن يرأب ما تصدع من بنيان بني جنسه ، وإن يلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، كما استطاع أن يقتل القبليّة في مهدها ( وبذلك استطاع أن يتمرس بأعباء الحكم قرابة عشر سنوات من دون مصادقة دمشق ودون أن ينازعه أي منازع في الداخل ) .

غير أن الثورة اشتعلت في الأندلس للمرة الثالثة في عصر هذا الوالي ، فاستطاع أن يكبح جماح الثائرين وأن يتعقب فلولهم حتى أطراف الولايات الأندلسية ولكن لجوء عبد الرحمن(\*) الداخل ( صقر قريش ) إلى الأندلس بعد انتهاء الخلافة الأموية في دمشق جعل مكانة يوسف بن عبد الرحمن تتضاءل أمامه ، لما اجتمع لعبد الرحمن من صفات جعلته أقوى مكانة ومنزلة .

### هجوم بين القصير على المسلمين في فرنسا سنة ٧٥٢ م :

استطاع بين القصير بن كارل مارتل أن ينتهز فرصة انشغال عبد الرحمن بحروبه الداخلية وسعيه للقضاء على القلاقل التي كان يثيرها الثوار في قلب إمارته فانقضَّ على ( لانكدوك ) و ( وسبتمائية ) و ( سافوي ) الغربية .. بجيش لا قبل للعرب به فأحرق تلك المدن ، وجعلها خراباً يباباً ، فهدم المساجد والمستشفيات والمدارس ومثّل بالمسلمين تمثيلاً مبيهاً ، ومن لم يمت منهم بالسيف مات بغيره جوعاً وظمأً . ويثبت التاريخ أن العرب دافعوا عن كياناتهم آنئذ دفاعاً مستميتاً ، واستمرت الحرب بينهم وبين الفرنجة سجالات طيلة ثلاثة أعوام ، انكشف بعدها الموقف عن انحسارهم عن جنوب فرنسا فيما عدا ( أربونة ) التي حاصرها ( بين ) بقواته لمدة أربعة أعوام ، فقطع عنها أثناء الحصار الزاد والعتاد ، ولم يستسلم العرب فيها بل

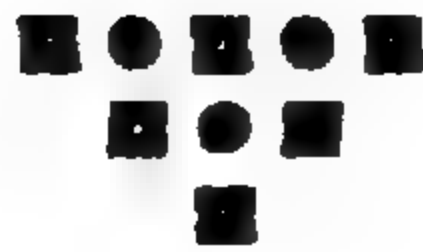
---

(\*) هو عبد الرحمن بن معاوية الذي استطاع أن ينجو بنفسه من بطش العباسيين بعد استطاعتهم القضاء على جميع الأمويين في عام ١٢٢ هـ - ففر الداخل إلى شمال أفريقيا ومنها عبر إلى الأندلس واستطاع أن يقيم إمارة أموية مستقلة عن الحكم العباسي في بغداد .

دافعوا ببسالة نادرة ، ولم يسبق لغيرهم أن وقف مثل وقفهم البطولية تلك ، حتى حدث أن استعان العدو ببعض الخائنين الذين فتحوا أبواب المدينة على مصاريحها وعلى حين غفلة من حراسها ، فدخلها البرابرة على رأسهم يبين فأعملوا سيوفهم في رقاب أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وأحالوها إلى جحيم لا يطاق فأصبحت معالمها أثراً بعد عين .. وهكذا رجعت فرنسا إلى حظيرة أوروبا الظلماء ، بعد أن ولجها بصيص من النور لم يلبث أن انطفأ عنها فجأة ، في ليلةٍ حالكة الظلام ولم يدخلها العرب بعد هذا التاريخ إلا لماماً ، إذ لم يكن دخولهم بصفة دائمة أو لفترة تجعلهم يصلحون فيها ما أفسد الدهر .

### دروس وعبر :

- ١ - أن الفترة التي مرّت على العرب في الأندلس بعد موقعة ( تور ) كانت فترة حرجة شُحنت بالفتن والاضطرابات وتنازعهم فيما بينهم .
- ٢ - إن أقوى سلاح ساعد العدو في الانقضاض على العرب وتحطيم قواهم هو سلاح الفتنة التي هي أشد من القتل حيث استعان العدو بأعوان خونة حققوا أغراضه .
- ٣ - إن إثارة النعرة القبلية والتفاخر بالحسب والنسب كان من أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وتضاؤل سلطانهم فيها .
- ٤ - إن عقاب الله للمسلمين في الأندلس لم يكن إلا نتيجة لأعمالهم البشعة ( أي الأمويين ) بأهل البيت والتكيل بهم على أيدي طغاتهم وزبانييتهم فسلط الله عليهم من عدوهم من لا يرحمهم .



## معارك العرب في الأندلس في عهد أبطال ثلاثة :

( عبد الرحمن الداخل - عبد الرحمن الناصر - المنصور بن أبي عامر )

### عبد الرحمن الداخل :

يعتبر عبد الرحمن الداخل أحد الأشخاص الأربعة المبرزين في تاريخ العرب بالأندلس ، وهم : عبد الرحمن الفافقي وعبد الرحمن الداخل ( صقر قريش ) وعبد الرحمن الناصر ( عبد الرحمن الثالث ) والمنصور بن أبي عامر وهو أحد الوزراء العظام الذين حكموا الأندلس باسم الخليفة الأموي بالأندلس .

وقد حكم الداخل(\*) الأندلس فيما بين سنة ١٢٨-١٧٢هـ ( ٧٥٦ - ٧٨٨ م ) وقد كان الأمير الأموي الوحيد الذي استطاع أن يهرب من بطش العباسيين الذين استولوا على السلطة عنوة وقضوا على الأمويين في عهد آخر خلفائهم مروان بن محمد ، فحقق علم العباسيين في بغداد منذ أول خليفة لهم وهو أبو عبد الله السفاح ، أما الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل فقد استطاع أن يلوذ بالفرار من العباسيين ، وأن يعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس ، وأن يصبح أميراً على الأندلس ، فكان شخصية مرموقة أحرزت إعجاب كل من عاصره من العظماء ، حتى أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كان يسميه ( صقر قريش ) .

وقد محا عبد الرحمن بدخوله الأندلس اسم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي كان قائداً لامعاً في تاريخها النضالي ، كما استطاع أن يستحوذ على قلوب الجند وأن يجمع كلمة المسلمين على قلب رجل واحد ، وبذلك تمكن من صد هجمات الفرنجة ومن إحراز بعض الانتصارات عليهم .

---

(\*) هو أحد ثلاثة سمووا بعبد الرحمن حكموا الأندلس وهم : عبد الرحمن بن معاوية وعبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٢٨هـ) وعبد الرحمن الثالث أو عبد الرحمن الناصر لدين الله (٢٠٠-٢٥٠هـ) .

## عبد الرحمن الناصر ( أو عبد الرحمن الثالث ) :

يعتبر عبد الرحمن الناصر ( أو عبد الرحمن الثالث ) من أبرز الشخصيات الأربعة التي أشرنا إليها انفاً في تاريخ الأندلس .. وقد كان عصره حافلاً بالانتصارات الساحقة على الأعداء كما كانت دولته تمثل العصر الذهبي في تاريخ الأندلس . أو تاريخ الفردوس المفقود . وقد تولّى الحكم فيما بين ٢٠٠-٢٥٠هـ (٩١٢-٩٦١) وقد سبق تولية الإمارة استيلاء المسلمين على (بروفانس) ودوميني وببدمونت ( وباحتلال المسلمين لهذه المنطقة قطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا حتى إنه في عام ٩١١ م لم يستطع أسقف تاريون ( أربونة ) الذي استدعاه البابا لأمر هام أن يعود إلى بلده ، لأن المسلمين كانوا يسيطرون على ممرات الألب ، واستمر المسلمون في تقدمهم فوصلوا إلى بحيرة جنيف<sup>(١)</sup> ( بحيرة ليمن ) وجبال الجورة .

ويذكر المؤرخ هارون خان شيروني أن اسم عبد الرحمن الثالث كان يبعث الرعب في نفوس أهل أوروبا ، ويرى المؤرخ أيضاً أن المقرئ قد ذكر في كتابه ( نفع الطيب ) أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن عبد الرحمن ذو قدرة خارقة . ويرى المؤرخون بأن قيام الدولة الفاطمية في تونس كان له أثره على الدولة الأموية في الأندلس ، إذ أوقف الفتوحات الإسلامية في أوروبا فترة من الزمن ، سيما وأن هناك نزاعاً بينهما ، بشأن مراكش التي كانت مستقلة عن الدولتين .

ثم عاد المسلمون إلى الغزو فاستولوا على ميناء طولون في عام ٢٧٨هـ (٩٤٠م)، ثم سيطروا على منطقة نيس واستطاعوا أن يجعلوا تلك المناطق قلاعاً حصينة مواقع استراتيجية ، لتوجيه ضرباتهم إلى الأهداف المنشودة ، وفي عام ٢٩٢هـ (٩٥٢م) دخل العرب مع الفرنجة في حرب طاحنة انتهت باستيلائهم وسيطرتهم التامة على سويسرا ، ووصلوا إلى بحيرة ( كونستانس ) ولكن العدو استطاع أن يفاجئهم ليلاً ، وأن يجبرهم على الانسحاب ، فتركوا منطقة بحيرة كونستانس تحرقاً لقتال وتحيزاً إلى فئات أخرى .

(١) العربي العدد ( ٢٤ ) .

وقد عاصر عبد الرحمن أحد ملوك ألمانيا المبرزين ويدعى الملك ( أوتو ) الكبير، وحدث بينهما اتصال دبلوماسي على مستوى عال ، وفى عام ٢٥٠هـ ( ٩٦١م ) توفى الخليفة عبد الرحمن الثالث ، وحكم بعده ابنه الحكم الثانى ٢٥٠-٢٦٦هـ ( ٩٦١-٩٧٦ ) وكان محباً للعلم والعلماء ، ميالاً إلى السلم ، ومن هذا التاريخ بدأ النفوذ الإسلامى فى التراجع فى أوروبا ، فخرجت من أيديهم جرينوبل عام ٢٥١هـ ( ٩٦٢م ) ولحقت بها دوفيثى وبروفانس ، وكانت الضربة القاصمة عند سقوط قلعة فركسينيت عام ٢٦٥هـ ( ٩٧٥م ) بعد أن بقيت مركز المسلمين لمدة تزيد عن ثمانين سنة ، وبسقوطها لم يبقَ بيد المسلمين أى أرض فرنسية .

### المنصور بن أبى عامر :

ويعتبر المنصور بن أبى عامر(\*) من الشخصيات الهامة فى تاريخ الأندلس ، إذ استطاع أن يفرض نفسه حاكماً باسم الخليفة الأموى ، بغية جمع كلمة العرب وتوحيد صفوفهم أمام أعدائهم ، فعادت الحياة تدبُّ فى عروق تلك الخلافة التى وهنت فترة من الزمن بسبب ندرة الرجال الذين يسهرون لحمايتها ضد أعدائها .

وقد تمكن المنصور بن أبى عامر من الاستيلاء على الحكم ، حينما عهد الخليفة الأموى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر إلى ابنه هشام ، وكان فى ريعان صباه . عهد إليه تولّى الحكم بعده ، فكان لهذه الوصية أسوأ الأثر فى تاريخ هذه الأسرة الأموية بعد وفاة المستنصر ، إذ وجدت الأسرة نفسها فى صراعٍ دام للاستيلاء على كرسى الحكم ، وكان بوسع الخليفة الراحل أن يعهد بالحكم إلى أحد أخوته ، والذين كانوا راشدين غير حديثى السن ، ولكن تفضيله أن تكون الخلافة فى بيته من بعده ، جعل هذه الإمارة عرضة لخطر الحروب الأهلية .

ويقول الأستاذ على أدهم ( وقد مكّن ذلك المغامر الشديد البأس الماضى العزم المنصور بن أبى عامر - من التغلب على منافسيه والاستئثار بالسلطة ، وكان المنصور

(\*) هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى . وجده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد فاتح الأندلس . وتلقب أبو عامر بالحاجب المنصور ثم تولى الحكم فى عام ٢٦٦هـ ( ٩٧٦م ) .

حاكمًا من الطراز الأول ، ومن أقدر رجال الدولة الذين عرفت لهم الحكومات الإسلامية ، ولكنّه في سبيل توطيد سلطانه اعتدى على الصفة الشرعية للخلافة وأضعف شعور رجالات الأندلس بالولاء لها . ونصّب لهم القدوة وضرب لهم مثلاً شروداً في الاعتداء عليها والاستخفاف بها ، فضلاً عن ذلك فإنّه رغبة في استبقاء نفوذه ، والمحافظة على حياته استكثر من البربر والصقالبة في الأندلس ، للاستعانة بهم في غزواته المتلاحقة ومغالبة أهل الأندلس الذين تنكروا له أو ثاروا به ، وقد استطاع بدهائه ، وقوة شخصيته ، أن يسخر العناصر الثلاثة القوية في الأندلس ، وهي العرب والبربر والصقالبة في تحقيق غاياته .

### حدوث الفتن بين عناصر المسلمين ، بعد انتهاء الخلافة الأموية في الأندلس :

إلا أن غالبية أهل الأندلس كانت ترى بقاء الخلافة الأموية في شبه جزيرة أيبيريا ، فهي التي جعلت لواء الإسلام يرتفع عالياً خفاقاً فيها ، ولذا كانت طاعتها واجبة ، وأمرها نافذاً وسلطانها مؤيداً من الجميع . غير أن الزعماء والرؤساء لم يكونوا متفقين مع آراء عامة الشعب ، فهم ينظرون إلى الحكم بزاوية أخرى ، فبعضهم يريد أن تكون السلطة له فوق غيره ، وبعضهم يرى عدم تركيز الإمارة في يد الأمويين ، وبعضهم يرى أن الاستقلال للمناطق المختلفة عن بعضها ، يحقق لها ازدهاراً وتقدماً ، وهكذا تنازعت الآراء إلى أن أصبحوا شيعاً وأحزاباً ، ووصلت هذه الحزبية إلى هاوية سحيقة ، كانت بداية النهاية للحكم الإسلامي في الأندلس ، وهو ما يعرف بعصر الطوائف .

فبعد أن انتهت الخلافة الأموية في عام ٤٠٠ هـ ( ١٠٠٩ م ) ، قامت عدة إمارات في الأندلس ، كل إمارة يحكمها أمير لا تربطه أي صلة بالإمارات الأخرى غير صلة الدين ، وقد اشتد التنافس الحزبي بين العناصر المختلفة من البربر والعرب والصقالبة والمسلمين والمولّدين من أهالي أسبانيا ، على الاستئثار بالحكم « فاستأثر العرب بالنفوذ في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الأسبانية ، وساد الصقالبة في القسم الشرقي ، وذهب الجزء الباقي في الوسط والغرب إلى أيدي بعض الأسر التي سلّمت من ضربات الناصر والمنصور بن أبي عامر ، وإلى بعض الأسر الأخرى

الطريقة المجد المحدثه النعمة . فكان هناك بنو حمود الأدارسة في مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو زيرى البربر في غرناطة ، وبنو هود في سرقسطة ، وبنو ذى النون في طليطلة وبنو الأفطس في بطليوس ، وبنو جهور في قرطبة ، وأسيرهم ذكراً والمعلم تاريخاً هو محمد أبو القاسم الذى اتخذ لنفسه لقب المعتمد على الله تشبهاً بخلفاء بنى العباس « أو هو المعتمد بن عباد في أشبيلية .

وقد كانت نهاية الأسر العامرية خاتمة محزنة لتلك الأعمال المجيدة التى قام بها ذلك العاهل الراحل ، إبان حكمه وذلك أن ابنه عبد الرحمن كان شاباً طائشاً قليل البصر بالعواقب « فقد قدم على ما أحجم عليه أبوه العظيم وحمل الخليفة المستضعف هشاماً ، الثانى على أن يتنازل له عن ولاية العهد وافضى ذلك إلى الثورة<sup>(١)</sup> به وقتله .

### دروس وعبر :

إن تاريخ العرب بالأندلس تاريخ تثير ذكراه لواعج الحزن والألم المضيئ ، فقد كان تاريخاً حافلاً بالأمجاد ، ففيه أشرقت على أوروبا شمس الهداية الإسلامية ، وترعرعت في شبه جزيرة أيبيريا الثقافة والحضارة الإسلاميتان ، فمن فنون عمارة إلى فنون شعر وموسيقى ورسم وتصوير ونحت ، ومن فلسفة إلى فقه إلى بيان عربى مبين . ومن انتعاش المعيشة لكل مواطن ، إلى أبهة الملك والحرير والسندس والديباج فى بلاط الأمراء ، ومن تمثيل دبلوماسى مع الأمم الأخرى إلى علاقة وطيدة ، ومن الفترة التى عاشها العرب فى الأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ثم الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم المنصور بن أبى عامر يمكننا أن نصل إلى النتائج التالية :

١ - إن أعظم الشخصيات التى برزت فى الأندلس قبل عصر ملوك الطوائف تمثلت فى هؤلاء النفر : عبد الرحمن الفافقى ، عبد الرحمن الداخل ، عبد الرحمن الناصر ( أو الثالث ) ثم المنصور بن أبى عامر .

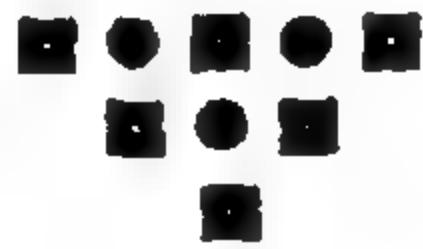
(١) على أدهم - كتاب المعتمد بن عباد .

٢ - أن العرب بفضل القيادات الحكيمة استطاعوا أن يسيطروا على خمس دول أوروبية ، تعرف الآن بأسبانيا والبرتغال وفرنسا وسويسرا وإيطاليا .

٣ - أن زوال الحكم الإسلامي عن الإمارات الأندلسية يرجع إلى عوامل عديدة منها :

- ( أ ) تنازع الزعماء فيما بينهم واختلاف آرائهم .
- ( ب ) كثرة الأجناس التي كانت تكون شعب الأندلس .
- ( ج ) الاهتمام بالبذخ وحياة الترف والتمرغ بين الحرير والديباج .
- ( د ) كثرة الدخلاء والعيون التي تعمل لحساب أعدائهم بين صفوفهم .
- ( هـ ) تمكن الملوك الأوربيين من استدراج بعض الولاة المسلمين الضعفاء ، والتمكن من جعلهم حلفاء لهم .

٤ - إن أوروبا لا تزال مدينة للعرب بالتقدم الذي أحرزته وطورته وما تزال تستقى من تجارب ونظريات وآراء عربية عاشت في ربوع الأندلس وإن كانت تتكرر لذلك الفضل ، فإن ذلك طبيعة كل ناكر للجميل وخائن لله والبشرية مدع على الناس أنه هو الصنف المختار من بين خلق الله .



## معارك العرب في عهد ملوك الطوائف (\*)

إن العصر الذي أعقب انهيار الخلافة الأموية في الأندلس كان عصر التفتت الحزبي ، والتعصب الديني والمذهبي والقبلي . فكثرت الدويلات وكثر الملوك والأمراء . وأصبحوا شيعاً وأحزاباً وكل حزب بما لديهم فرحون وكل طائفة كانت ترى أنها على حق وأن غيرها على باطل ولم يسجل التاريخ لهذه الدويلات أى مبادرة إيجابية نحو الوحدة الشاملة ، دون إراقة دماء لتقف تلك الإمارات وقفة رجل واحد ضد العدو المشترك ، كما لم يسجل لهم انتصارات شبيهة بانتصارات أسلافهم على الفرنجة فوق جبال البرانس ، وعلى ضفاف الرون واللوار ، وعلى مقربة من العواصم الأوروبية الكبيرة في ذلك الوقت .

بل سجل لهم أنهم كانوا كثيراً ما تطاحنوا وغالباً ما تنازعوا للاستيلاء على الحكم . فهذا الشاعر أبو بكر بن عمار يمتدح المعتضد بالله ملك أشبيلة مشيداً بانتصاراته على البربر مدّعياً أنهم أخس خلق الله وأنه يجب استئصال شأفتهم ( وهم طائفة من الطوائف الإسلامية التي كانت تكون شعب الأندلس ) فيقول :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافورة	لما استرد الليل عنا العنبراً
والروض كالحسناء كساه زهره	وشياً وقلده نداءً جوهراً

\* \* \*

عباد المخضر نائل كفه	والجو قد لبس الرداء الأغبراً
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد	وحماه لا يردون حتى يصدر
اندى على الأكباد من قطر الندى	والذ في الأجفان من سنة الكرى

\* \* \*

(\*) من عام ٤٠٠ إلى عام ٤٨٤ هـ (١٠٠٩-١٠٩١ م) .

يا أيُّها الملكُ الذي حازَ المنى      وحبَّاهُ منه بمثلِ حمدي أنورا  
السيفِ افصحُ من « زيادٍ » خطبةً      في الحربِ إن كانتِ يمينُك منبراً  
ما زلتَ تُغني من عنا لك<sup>(١)</sup> راجياً      نيلاً وتُفني من عتا وتجبيراً  
حتى حللتَ من الرياسة محجراً      رحباً وضمتَ منك طرفاً أحوراً  
شقيتَ بسيفك أمةً لم تعتقد      إلا اليهودَ وإن تسمتَ بريراً  
اثمرتَ رُمحك من رؤوس كُماتهم      لما رأيتَ الغصنَ يُعشق مثمراً  
وصبغتَ درعك من دماء ملوكهم      لما علمتَ الحُسنَ يلبس أحمرأ

\* \* \*

وقد أورد لنا الأستاذ على أدهم في ترجمته لشخصية المعتمد بن عباد ، أن اسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة كان يرى أنه ينبغي أن يكون هو الحاكم بأمره في جميع ولايات الأندلس ، ففي حديث له مع أبي العباس السكري الاسكندراني ( وهو رجل ممتع الحديث حسن المجالسة ) سأله ابن ذي النون عن ابن حمود حاكم مالقة ، فأثنى عليه ، فقال إسماعيل : « أتثنى على أدياء قد فعل الله بهم وصنع ؟ فبهت الاسكندراني وقال : معذرة إليك أيديك الله فإني جهلت رأيك في هذا الرجل ، مع أني ألزمت نفسي ألا أذم ذا سلطان البتة ، وأنت غير منازع في أئمتك المروانية وهم أهل ذلك منك أقاديم الملوك وذوو العدل والسياسة ، ومضى الاسكندراني في إطرانهم ظناً منه أنه يسرُّه إذ كان يقول بدعوتهم في ذلك الوقت فقطع عليه ابن ذي النون بأسوأ من قطعه على البائسين .. وانحنى على ذم بني أمية فلم يبق » ويقول الأستاذ على أدهم ( وهكذا كان من سمات هذا العصر أن كل أمير كان يجعل إرادته القانون الذي يرجع إليه وكان كل أمير يتربص بجيرانه من الأمراء الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليهم وإزالة ملكهم أو لاقتطاع جانب من أملاكهم وضمها إلى

(١) ظهرت الصناعة والتكلف في هذا البيت بوضوح كالجناس بين تغنى وتغنى والجناس والمقابلة

أملأكه ، ولا يرى بأساً فى ذلك من الالتجاء إلى الخديعة ، والدس ومعاقدة العدو الرابض للإيقاع بالأمراء جميعهم ) .

وامتاز هذا العصر بمجالس الشراب ، ومنادمة الملوك لوزرائهم وشعرائهم ، وسماعهم للطرب وتمتعهم بالقيان الحسان ، وعدم إكترائهم بمتطلبات البلاد ، ولم يعطوا من وقتهم جزءاً لمناقشة السياسة العامة لإماراتهم ، وحاجاتها الداخلية والخارجية ، بل كانوا على وتيرة واحدة مثل الخلفاء العباسيين الذين كانوا بين الجوارى الحسان ، وكؤوس المدامة وقصائد الشعراء المتحذلقين .

وقد ساعد على صيرورة أحوال الأندلس إلى هذه الحالة أن أمراءها كانوا يهتمون بنظم الشعر وروايته ، أكثر من اهتمامهم بنظم تلك السياسة وربط معالم الإمارة ، ومعالجة مشاكلها . فهذا خليفة أموى كان بين عهدين فى الأندلس .. عهد انتهاء الخلافة الأموية وعهد سيادة ملوك الطوائف على أنحائها وهو سليمان المستعين بالله والذى وصف أبو حيان المؤرخ الأندلسى أيامه بقوله :

( كانت كلها شداداً نكدات ، صعباً مشؤمات ، كريهات المبدأ والفاثحة قبيحة المنتهى والخاتمة لم يعدم فيها تحيفٌ ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ولا فقد محذور ، مع تطير السيرة فى إدارة دفة الحكم نراه شاعراً مبدعاً يقول عنه ابن يسام : هو أحد من شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه ، وذكر له قصيدة يعارض فيها قصيدة الرشيد التى يقول فيها ( ملك الثلاث الأنساتُ عِنَانِي ) فيقول :

عجباً يخافُ الليثُ حدَّ سِنَانِي	وأهاب لحظَّ فواتر الأَجْضَانِ
فأقارع الأهوال لا متهيباً	منها سوى الإعراض والهجران
وتملكْتُ نفسى ثلاثُ كالدُمَى	زُهر الوجوه نواعم الأبدانِ

\* \* \*

أما أمير أشبيلية المعتضد بن عباد فكان يرى أن حياته تنقسم إلى شرطين :  
شطر لتدبير الملك وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر :

لعمرك إننى بالمدامة قوأل      وإنى لما يهوى الندامى لفعأل  
قسمتُ زمانى بين كد وراحة      فللراى اسحار وللطيب آصال  
فأمسى على اللذات واللهو عاكفاً      وأضحى بساحات الرياسة اختال  
ولست على الإدمان أغفل بُغيَتى      من المجد إننى فى المعالى لمحتال  
إذا نام أقوام عن المجد ضلّة      أسهد عيني أن تنام بى الحال  
وان راق أقواماً من الناس منطلق      يروق بدأ منى مقال وأفعال

« وكان كلفاً بابتغاء القصور واعتماد العمارات المغلة واقتناء الملابس الفاخرة ،  
وغالى الألقاق وارتبط الخيول السابحة واتخذ من الرجال الذادة عدداً ليس  
بالقليل ، ودرّبهم على الحرب وتمنع بهم ويعز على من رامه ويطول . »

ولما دار بخلده أن مدينة ( رية ) ستكون ضمن أملاكه نظم قصيدة يتغنى فيها  
بجمال هذه البلدة وشغفه بها :

أريّة أنتِ قائدة الزمان      فقد فقت الممالك فى معان  
وقد رُمناك من بلد بعيد      فـادناك الإله بلا ثوان  
بدلنا جُهدنا عزمًا وحزمًا      ووطننا الكماسة على الطعان  
وأجهدنا العزائم والمساعى      وأعملنا الحسام مع السنان  
ليهنىء أهل مالقة انتصارى      وأعزّازى لهم بعد الهوان  
سينقذهم وينميهم جميعاً      رضاء الخير إن درت لسانى  
وأضعاف الذى يهدى لسانى      إليهم ما يجن لهم جنانى  
الم اعتقهمو من ذل كفر      جرى فى ضيمهم ملء العنان

\* \* \*

وإذا علمنا أن هؤلاء الأمراء كانوا أمراء شعر ، قبل أن يكونوا أمراء ولايات فلا  
غرو أن يحفلوا بمجالس الشعراء ، وأن يدور بينهم نقاش وجدل عن أشهر بيت

قالت العرب ، فى الغزل أو أشهر بيت قالت فى الحماسة أو أشهر بيت قالت فى الخمر إلخ ..

ولا غرو إذا فُتح الباب على مصراعيه لشعراء التكسب المتحذلقين ، حتى أنهم نُصّبوا أمراء بأبيات من الشعر ، بعد أن كانوا سائحين فى شرقى البلاد وغربها ، ليس لهم من حطام الدنيا سوى خرقة بالية ووريقات ممزقة يكتبون فيها ما تجود به القريحة من شعر ، وأتان أنهكتها السير وأضناها الجوع والعطش ، ولعل أكبر مثل على ذلك هو الشاعر أبو بكر بن عمار وهو الذى يقول واصفاً حاله التعسة وأن الظواهر الطبيعية تشاركه أنيه وبؤسه :

على والأما بكاءُ الغمائم      وفى والأما نواح الحمائم  
وعنى آثار الرعد صرخة طالب      لثار وهز البرق صفحة صارم  
وما ليست زهر النجوم حدادها      لغرو ما قامت له فى ماتم

وتغنى شعراء التكسب بنى عباد ، بغية ابتزاز الأموال الطائلة ، والهدايا الفاخرة ، والإقطاعات الشاسعة ، كما بالغوا فى تمجيد آبائهم ، والترنم بأصالة حسبهم ، ونسبهم الذى يفصل بالخميين الذين كانوا ملوك الحيرة ، وعمال فارس وهم الذين عرفهم التاريخ بالمانذرة ، وأشهرهم النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، ولذا قال أحد الشعراء مادحاً بنى عباد مشيراً إلى هذا النسب العريق :

من بنى المنذرين وهو انتساب      زاد فى فخرهم بنو عباد  
فتينة لم تلد سواها المعالي      والمعالي قليلة الأولاد

وقال شاعر آخر فى تأييد هذا النسب وربط أصولهم بملوك الحيرة :

من حلبة السبق لا يرق يخاطفها      إلى مداها ولا ربح يجاريها  
تردُّهم نسبة نحو السماء فهم      من مائها وعلاهم من دراريها

ويقول آخر ( كما ورد فى كتاب المعتمد بن عباد للأستاذ على أدهم ) :

نفر إلى ماء السماء فما هو      نسب على أوج النجوم مخيم  
بالبيض والبيضات والخلق اكتسوا      فتوشحوا وتوجوا وتنعموا

وشعراء التكسب عادة يتكاثرون ويتهافتون إبَّان المناسبات على اختلاف مشاربها، سواء أكانت مناسبات سارة أو حزينة ، وهذا ما لمسناه عند قراءتنا للأدب، وعند تصفحنا لقصائد شعراء الأندلس وهم يسارعون في العزاء ، كما يسارعون في التهنية فهذا الشاعر بن زيدون يعزّي المعتضد في ابنة توفيت في ريعان صباها بأبيات منها :

سَرَّكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ	فَاقْرَ شُكْرًا وَعِزًّا
كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْرًا	وَاقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءَ
أَنْتَ إِنْ تَأْسَى عَلَى الْعُنُقِ	دِ الْفَا وَاجِبَاءَ
فَامِلٌ عَنْهُ غَيْرَةٌ	وَاحْتَمَلَ الرُّزْءَ إِبَاءَ
أَيُّهَا الْمَعْتَضِدُ الْمَنْصُورُ	مُلِّيتَ الْبَقَاءَ

ويقول الأستاذ على أدهم ، ولكن هذه الدعوة التي أرسلها شاعره لم تُستجب ، فإن بقاءه لم يطل بعد ابنته العزيزة عليه ، والتي توفيت يوم الخميس وكان قد مضى يومان على سماع المقطوعة التي تغنى بها المغنى ، وتشاءم المعتضد منها وشيئها إلى القبر مساء يوم الجمعة ، وبعد انتهاء الاحتفال بالجنائز شكا ألماً شديداً في رأسه وأصابه في عقبه نزيف كاد يذهب بحياته وأراد الطبيب أن يفصده ولكنه تمرد على أمر الطبيب وأمره أن ينتظر إلى الغد التالي ، وزاد هذا التأخير حالته خطورة واشتد النزيف في اليوم التالي وهو يوم السبت ثم فقد النطق ولفظ النفس الأخير ، وأتى شعراء المناسبات يعزون المعتمد في والده المعتضد بالله مباركين خلافته من بعده ، ذاكرين فضل هذه الأسرة ، على البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فهذا الحصرى يقول في بيتين مشهورين معزياً المعتمد في وفاة والده متلاعباً فيها بالألفاظ كي ينال حظوة لدى المعتمد ، أو يرجع ممثلي الوفاض :

مات ( مولانا ) ولكن	بَقِيَ الْفَرْعُ الْكَرِيمُ
فَكَانَ الْمَيْتَ حَيًّا	غَيْرَانَ الضَّادَ مَيِّمًا

ولابن زيدون قصيدة عصماء قالها في تلك المناسبة منها :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر	فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر
ستصبر صبر اليأس أو صبر وحشة	فلا تؤثر الوجه الذي معه الوزر
الم تر أن الدين ضميم ذمارة	فلم تغر أنصار عديد هم وكثر
الأنفس نفس في الوري قصد الردى	واخطر علق للهدى أفقد الدهر
اعبأد يا أوفى الملوك عدداً	عليك زمان من سجيته الغدر
لئن كان بطن الأرض هنئ أنسه	بانك ثاويه لقد أوحش الظاهر

هكذا نستشف من خلال هذا العرض الوجيز أن الحروب التي خاضها العرب في الأندلس في هذه الفترة لم تكن إلا حروباً أهلية ، ولم يكن هدفها سوى التغلب والسيطرة والاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض فحكام أشبيلية يتطلعون وغيرهم إلى قرطبة وطليلة ، وحكام طليطلة ومالقة أيضاً يتحينون الفرص للانقضاض على أشبيلية ، وأمراء غرناطة وبطليوس وغيرهما يتعرضون لهجوم المسلمين والفرنجة على السواء .

ولا أدل على تكتيل العرب والبربر والصقالبة ببعضهم بعضاً من قصة غزو قرطبة في عهد المعتضد بالله ملك أشبيلية ، حينما استولى باديس بن حبوس ملك غرناطة على مالقة ، وامتد نفوذه حتى قرطبة فعز على المعتضد أن يسيطر البربر على عاصمة الأمويين فأرسل ابنه إسماعيل للاستيلاء على قرطبة، ولما أخفق إسماعيل في المهمة استدعاه والده لتأديبه ، ثم حدث أن شق الابن عصا الطاعة لوالده فكان جزاؤه أن قتل بيد أبيه ، وفي عهد المعتضد قويت حركة الاسترداد الأسبانية فقد استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون أن يوجه جيوشه لمحاربة مسلمي الأندلس وكانت تحدو رجاله الروح الحربية والحماسة الدينية ، ولذلك أحرز انتصارات باهرة ولم يكن في وسع أحد ملوك الطوائف أن يكون له نداء ، أو أن يثبت أمام هجوم جيوشه ، ولم يجد المظفر<sup>(١)</sup> صاحب بطليوس ، والمأمون سيد طليطلة

(١) المعتمد بن عباد للأستاذ علي أدهم .

وحاكم سرقسطة - حيلة يدفعون بها شرّ فرناند ويستبقون بها نفوذهم سوى أن يقدموا له كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والاعتراف بسلطانه وأداء الجزية السنوية له .

وحينما هاجم جيش فرناندو أشبيلية في عام ٤٥٥ هـ وعاث في الأرض فساداً ، لم يجد المعتضد قوة توقف ذلك الجيش العرموم ، وتقتذ عرشه من الوقوع في قبضة ذلك العدو الجبار ، فراح يتوسل له بأعز الهدايا وأثمن القربات ، راجياً أن يبقى على ملكه ، وأن يتركه وشأنه لقاء جزية سنوية يقدرها الفازي كما يشاء .

وأن الصغار أمام العدو الجبار والتزلف إليه والبكاء بين يديه ، جعله يرق قلباً ويصفي أذنًا ويجيب المعتضد بالكف عن مداهمته ، على شريطة أن يدفع له جزية باهظة . وهكذا كانت خاتمة هذا الملك خاتمة محزنة كلها شجون وآلام واستسلام وخضوع رغم أنه كان أقوى ملك ظهر بين ملوك الطوائف فكثيراً ما أذاق الإمارات الإسلامية الأخرى حدّ سيفه ، وغالباً ما أرغمها على الخضوع له والانصياع لأوامره ، ثم دارت عليه الدائرة ، واستحكمت حلقاتها في عهد ابنه المعتمد جزاءً وفاقاً للاستهتار والاستغراق في حياة المجون واللهو .

### دروس وعبر :

إن عصر ملوك الطوائف قد اتصف بسماتٍ التفتت الإقليمي، والصراع الحزبي والطائفي ، والتكالب على الإمارة وحياسة المؤامرات الدنيئة للوصول إلى مركز السيطرة ، ويمكننا أن نصل إلى النقاط التالية من خلال عرضنا السابق الوجيز :

١ - يقول أحد المؤرخين : إن الذي تعلمنا من التاريخ هو أننا لم نتعظ بأحداثه وهذا المعنى يصدق على ما حدث في الأندلس ، وما حدث بعد ذلك في الشرق العربي في عصور التاريخ المختلفة ، فقد كان للتفتت الإقليمي في الأندلس أثره البالغ في انزواء لواء العرب عن الأندلس ، كما كان للتفتت الإقليمي في أواخر العصر العباسي أثره البالغ في استيلاء الصليبيين على الشام وفلسطين وتهديدهم مصر والعراق والحجاز كما كان للتفتت الإقليمي في الشرق العربي أثره البالغ في التمهيد للاحتلال العثماني ثم الاحتلال الفرنسي والإنجليزي والإيطالي .

٢ - إن هذا العصر امتاز بالانصراف عن حاجات البلاد الداخلية والخارجية ومتطلبات الدفاع ضد عدوها الذى يتربص بها وعدم السعى الجاد نحو وحدة شاملة بين تلك الإمارات المختلفة .

كما امتاز باهتمام الأمراء بأنفسهم وانغماسهم فى الملذات ومطارحتهم الشعراء وإدمانهم على الشراب ومجالس الندماء وابتنائهم القصور الأنيقة وغرسهم الحدائق الفناء .

٣ - إن حياة الرفاهية والاستغراق فى الملذات حببت إليهم الدعة والمجون وأنستهم رسالتهم الإنسانية كما أنستهم رسالتهم تجاه عدوهم الذى كان على أهبة الاستعداد للاقتصاص منهم .

٤ - كان الأمراء لا يهتمون بحالة إماراتهم قدر اهتمامهم بالتفاخر وحب الظهور ، فكانوا يفدقون على الشعراء آلاف الدنانير إذا ما سمعوا أبيات شعر صاغتها السنة الشعراء المتحذلقين .

٥ - إن العقاب الذى أنزله حكام أشبيلية بما حولهم من الإمارات الأخرى رده الله فى نحورهم على يد الفونسو السادس وفرناندو الأول ملك قشتالة ثم على يد يوسف بن تاشفين ملك المرابطين الذى قضى على حكم آل عبّاد .

### الخلاصة : ما يمكن إيجازه عن عصر ملوك الطوائف :

ظلت بلاد الأندلس ولاية تابعة للدولة الأموية ، منذ فُتِحَها على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فى عام ٩٢ هـ ، وظلت كذلك حتى سقوط الخلافة الأموية فى دمشق فى عام ١٢٢ هـ - بعد هذا التاريخ استطاع أحد أمراء البيت الأموى أن ينجو بنفسه من العباسيين ، ويعبر إلى بر الأندلس ، ويقبض على زمام الأمور بها ، ويعلن أنها إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية فى بغداد ، ذلكم هو عبد الرحمن بن معاوية ( عبد الرحمن الداخل ) واستمر عهد الإمارة الأموية بالأندلس من عام ١٢٨ حتى عام ٢١٦ هـ ( ٧٥٥ - ٩٢٩ م ) وفى عام ٢٠٠ هـ تولى حكم الأندلس أمير أموى قوى الشكيمة ، عظيم الهمة ، باذخ الآمال وهو الأمير

عبد الرحمن الناصر ( عبد الرحمن الثالث ) - فأعلن في عام ٢١٦ هـ أنه أول خليفة أموي لبلاد الأندلس ومكث في الحكم حتى عام ٣٥٠ هـ ، واستمر عهد الخلافة الأموية في تلك البقاع حتى عام ٤٠٠ هـ حيث انقلت الزمام من آخر خليفة أموي بها وتحولت البلاد إلى دويلات ضعيفة هزيلة . وقد قامت هذه الإمارات في تواريخ متلاحقة ، واستمرت في هذا الاستقلال المشوب بالضعف والتمزق حتى قُضى عليها جميعاً بسيطرة المرابطين على شبه الجزيرة ، بعد معركة الزلاقة التي حدثت في عام ٤٧٩ هـ وأهم هذه الدويلات<sup>(١)</sup> أو ممالك الطوائف التي حكمت الأندلس هي :

- ١ - مملكة سرقسطة : الثغر الأعلى : ويحكمها بنو هود .
- ٢ - إمارة قرطبة : وسط الأندلس : ويحكمها بنو جهّور .
- ٣ - مملكة طليطلة : الثغر الأوسط : ويحكمها بنو ذى النون ( أو دنون ) سقطت في يد الأسبان في عام ٤٧٨ هـ .
- ٤ - مملكة بطليوس : الثغر الأدنى : ويحكمها بنو الأفطس .
- ٥ - مملكة أشبيلية : غربي الأندلس : ويحكمها بنو عباد .
- ٦ - مملكة بلنسية : شرقي الأندلس : تداولها عدد من الحكام .
- ٧ - مملكة غرناطة : جنوبي الأندلس : ويحكمها بنو زيري .

وهذا التفتت وذلك الضعف شجع ممالك الفرنجة الناشئة على تحطيم هذه الممالك الإسلامية ، واحدة تلو الأخرى . ولم ينقذ هذا الاكتساح المسيحي إلا دخول المرابطين لتلك البلاد، ولقد وصف أحد الشعراء هذه الحال لهذه الدويلات ، وهو ابن رشيق القيروان فقال :

مما يزهدني في أرض اندلس      الفاظ معتضدٍ فيها ومعتمدٍ  
القابُ مملكةٍ في غير موضعها      كالهريحي انتفاضاً صولة الأسدِ

(١) التاريخ الأندلسي للدكتور / عبد الرحمن علي الحجّي ، ص ٢٥٥ .

إلا أنه من الواجب ذكره - أن هذه الدويلات بقدر ضعفها عسكرياً فقد ذخرت بعلماء أجلاء ، وفقهاء وفلاسفة وأدباء مرموقين وشعراء نابغين ، وقد أبقى الزمان فيما أبقى من حضارة المسلمين في ذلك الفردوس المفقود أخبار تلك النهضة الأدبية في قرطبة وفي أشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس في خلال القرن الخامس الهجري، فقد كانت تلك المدن ميداناً مزدهراً لأنواع الفنون والآداب ، وكانت في سباق وتنافس في هذا المضمار مع العواصم العربية في المشرق والمغرب .



## المعتمد بن عباد وأبو بكر بن عمار

### ومعركة الشطرنج

يقولون من شابه أباه فما ظلم ، ومثال ذلك ما تلمسه من قصة المعتضد ابن عباد وابنه المعتمد فقد نشأ المعتمد على يد والده واستقى من خصاله الكثير ونبع في الشعر مثله ، وزاد عليه وأكثر من المفامرات ومجالس اللهو أكثر من أبيه . وقد وفد على المعتمد شعراء الأندلس النابغون فاتخذهم ندماء وجعلهم أقرانه أينما يحل . وطارحهم القريض وجادلهم فيه ، فأكثر جداله معهم ، واستوزر من شاء منهم من أمثال ابن زيدون وابن عمار وابن وهبون . ونرى بعضهم لازم المعتمد بن عباد ملازمته لظله ، وعاش معه في أيام سروره وعانى معه في أيام نكبته ومن هؤلاء أبو بكر بن عمار وأبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة . وقد ألف الداني كتاباً عن الدولة العبادية أسماه « الاعتماد في أخبار بني عباد » كما ألف كتاباً في أخبارهم بعد نكبتهم سماه « نظم السلوك في مواعظ الملوك » ضمنه مقطوعات وقصائد في البكاء على أيام بني عباد وانتثار نظامهم ، ومن الشعراء الذين حفلت بهم ندوات المعتمد الشاعر الصقلّي الكبير أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الذي وفد عليه من صقلية في سنة ٤٧٠ هـ بعد استيلاء النورماندين عليها .

وقد ولد المعتمد بمدينة باجة في سنة ٤٢٢ هـ وهي إحدى المدن التي تقع في غربي الأندلس وقد خلف والده وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، وقد تفرس المعتمد على قيادة الجيوش وحكم الأقاليم وتمرن على ألعاب الفروسية وكتابة الشعر، وتزود من كتب الدين والفقه والأدب العربي ، وقد أثر بعض الشعراء الذين لازموه تأثيراً بعيد الغور في تكوين شخصيته الشعرية ، ومن أبرزهم أبو بكر بن عمار الذي كان يكبره بتسع سنوات . وقد نشأ ابن عمار في شلب إحدى مدن الأندلس الغربية

---

ولم يكن هذا الرجل على قسط من الحظوة والثراء وإنما نشأ فقيراً بائساً ، ولم يجد وسيلة للتكسب سوى قول الشعر فراح يمتدح كل من يتفضل عليه بشيء يقتات به أو يسد به رمقه ، ويذهب سغبه ، حتى أنه كان يمتدح من يجود عليه بعلف دابته التي أصبحت هيكلاً عظماً من شدة الجوع والعطش . وكثرة الترحال والتجوال من بلد إلى أخرى .

ولم يزل دأب هذا الشاعر على ما نشأ فيه من بؤس وفقر وتعاسة وحرمان إلى أن وفد على المعتضد بالله ملك أشبيلية فمدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أدبر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

فأعجب به ذلك الملك وأجازه ودعاه إلى المكوث في بلاطه مثل غيره من الشعراء المقربين » وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد وهو ناشئ نزاع إلى الأدب أوتى الموهبة الشعرية ، وقد توثقت بينهما الصداقة . وكان ابن عمار على ما يبدو شائق الحديث جذاب الشخصية طبعاً باستهواء النفوس واختلاب الألباب وقد عركته الحوادث وصقلته التجارب فلما ولي المعتمد الحكم في مدينة شلب استوز ابن عمار وأولاه ثقته ووكل إليه أموره .

ولما توثقت الصلة بينهما ولازمه ابن عمار ملازمة الظل لصاحبه ، حدثت قصة طريفة أوردتها كتب الأدب ، وذلك أن ابن عمار كان يرقد مع المعتمد على فراش واحد بعد أن أمضيا سهرة ممتعة بين الغير وكؤوس الشراب وصحاف الورد وطرائف الأحاديث والأشعار . وفجأة استيقظ ابن عمار مذعوراً على صوت هاتف يقول له : لا يغرك ابتهاج صاحبك بك فإنه قاتلك لا محالة فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ونام ، فجاءه للمرة الثانية ثم الثالثة . وبعدها هرع ابن عمار إلى ناحية من القصر يريد الفرار فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً . فوجد حصيراً بجانب أحد الممرات الداخلية فخلع ثيابه وطوى نفسه فيها ، واستيقظ المعتمد متفقداً صاحبه فلم يجده فأسرع منادياً خدّم القصر أن يعثروا على صاحبه ، الذي لا يدري من أمره شيئاً وعبثاً حاولوا العثور عليه ، حتى إذا كان المعتمد عليه مقربة من تلك الحصير فأحس بحركة داخلها ولما شدها إليه ألقى صاحبه يرتعد خوفاً واضطراباً .

ولما سأله عما دفعه إلى ذلك قص عليه ما حدث له أثناء نومه فقال له : إنها أضغاث أحلام هل تظن أنتى أقتل نفسى فأنت عندى كنفسى التى بين جنبى .

### الاستيلاء على قرطبة ( من قبل بنى عباد حكام أشبيلية ) :

كانت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية فى الأندلس فكانت جميع الولايات على اختلاف أجناس ساكنيها وحكامها تتبع تلكم العاصمة ، وتُجدد لها عهد الولاء من حين إلى آخر . حتى دالت دولة المنصور بن أبى عامر الذى حكمها باسم الخليفة الأموى ، وبعد أن آل زمام الحكم إلى خلفاء ضعاف لا يقدرّون على شىء مما ورثوا ، ولم تؤهلهم حداثة سنهم لتسنى كرسى الحكم ، فاستطاع ذلك الحاجب أن يكون حاكماً بأمره وباسم الخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وبقيت الخلافة الأموية مهيضة الجناح طيلة حكم الأسرة العامرية ، ثم اضمحل سلطانها رويداً رويداً ، بعد انتهاء هذه الأسرة . ومهد هذا الضعف والاستكانة لعناصر الثورة المضادة أن تظهر على مسرح الأحداث ، فظهر جلياً صراع رهيب بين العرب والبربر والصقالبة . واستمر هذا الصراع على أشده حتى زوال الخلافة الأموية عن قرطبة . حينئذ تمزقت الدولة الإسلامية فى الأندلس أشلاء متناثرة وأصبحت دويلات هزيلة لا حول لها ولا قوة ، مما جعلها لقمة سائغة أمام عدوها الجبار الذى كان يتحين الفرص للانقضاض عليها .

أما قرطبة فقد أعلنت نظاماً جمهورياً لحكمها حيث تولّى أمر إدارتها عالم فاضل من أبنائها يدعى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، ثم تولى بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، وفى أثناء حكم أسرة بنى جهور طمع فى قرطبة الطامعون وتطلعوا إلى .. الاستيلاء عليها ومن أبرز هؤلاء الذين حداهم طموحهم إلى تحقيق ذلك المأرب ، اسماعيل بن ذى النون وابنه يحيى صاحب طليطلة ، وكان قبلهما بنو حمود الأدارسة حكام مالقة ، فقد حاولوا مراراً الاستيلاء عليها وعلى أشبيلية وأماكن كثيرة ، ولكن قوتهم لم تلبث أن انهارت أمام صمود أهل قرطبة بقيادة بنى جهور وأهالى أشبيلية بقيادة الأسرة العبادية .

وبعد أن تغلب القاضي أبو القاسم مؤسس دولة بني عبّاد على البربر وعلى بني حمود ، توجه نحو قرطبة للاستيلاء عليها ، ولما وصل القاضي إلى أبواب قرطبة وجدها مقفلة في وجهه ، واضطر إلى الارتداد لأنه لم يكن معه قوة كافية للاستيلاء على مثل هذه المدينة الكبيرة .

وفي عهد الخليفة المعتضد بالله حاكم أشبيلية زادت رقعة تلك الولاية على حساب غيرها ، من الولايات الإسلامية ، كما استطاع أن يستأصل شأفة البربر من جميع بقاع الولاية . وتطلع إلى الاستيلاء على قرطبة حينما أرسل جيشاً جراراً بقيادة ابنه اسماعيل لهذا الغرض وبعد أن كان اسماعيل قد اطمأن نفساً بالاستيلاء عليها فاجأه قادة الولايات المتحالفة ضده وأخرجوه منها ، فولى هارباً فاستشاط أبوه غضباً واستدعاه لأمرهم إلا أنه فطن إلا أنه لن يفلت من قبضة والده فاستعصى عليه ، إلا أنه تمكن من إعادته إلى أشبيلية ذليلاً مدحوراً حتى اغتاله بيده ، بعد أن تكشف له سوء نية ابنه .

أما الخليفة المعتمد على الله العبادي ( ابن المعتضد ) فقد كان يرنو إلى تحقيق ما كان يصبوا إليه والده من قبل ، إذ كانت تحدوه آمال كبار ، كثيراً ما حلم بها ومنى نفسه وهنا أبناءه من بعده بها ، وكثيراً ما حدثهم بالخير الذي ينتظرهم بعد هيمنتهم على سائر الولايات الإسلامية في الأندلس ، وقد تطلع المعتمد إلى قرطبة تطلع من يراها درة العقد لدولة قوية تضم سائر الولايات الأخرى .

وقبيل وفاة حاكم قرطبة أبي الوليد محمد بن جهور قسم شئون البلاد بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، وقد آثر ابنه الأصغر عبد الملك توليته أمر الجند بالإشراف على أعطياتهم ، وقيادتهم أثناء الحروب وتقوية الحصون ، وتجريدهم في البعث ، ووضع فئات منهم لحفظ الأمن وغير ذلك ، أما عبد الرحمن فقد ولّاه الإشراف على جباية الضرائب والإشراف على أهل الخدمة . وهم موظفو الدولة والتوقيعات الدبلوماسية وتدير نفقات الدولة .

ويقول الأستاذ على أدهم ( وكان المدير الحقيقي لدولة بني جهور رجل يدعى بابن السقاء ، وكان هذا الرجل حازماً قوى الشكيمة ، شديد الضبط لسلطانه ، وقد

استطاع بقوة شخصيته أن يحسم الأطماع عن قرطبة ويخيف الأنداد والمتنافسين والحساد ، وكان المعتضد يتطلع إلى امتلاك قرطبة . ولذلك كان يرقب أحوالها وحاول أن يفتن الفرصة الملائمة للوثوب عليها وضمها إلى أملاكه ، وكان يجد في يقظة ابن السقاء ونجاح سياسته عقبة كأداء في طريق تحقيق أمنيته ، فلجأ إلى المكر والحيلة ، ودس إلى عبد الملك الذي كان يعرف تهوره واندفاعه من يوغر صدره على ابن السقاء ، وبذلك اتسعت هاوية الخلاف بين عبد الملك وابن السقاء .

فوثب عليه وقتله .. « وقد أضرب قتل ابن السقاء بالدولة القرطبية ضرراً بليغاً فقد كان الرجل يبعث الهيبة والاحترام في نفوس رجال الدولة جميعهم » .

وحينما انتقل الحكم في الأسرة العبادية إلى المعتمد بن عباد سنة ٤٦١ هـ أصبح لزاماً عليه أن ينفذ أهداف والده من قبله ، وأهدافه التي تعتبر امتداداً لأهداف آبائه ، وذلك حتى يتسنى له الهيمنة على سائر بلاد الأندلس وذلك باستيلائه على قرطبة ، ومهدت له الظروف 'الراهنة التي كانت تعيشها قرطبة أن يحقق ذلك المأرب . فالتولى لأمرها كان شاباً متهوراً وهو عبد الملك بن محمد ابن جهور ، لا يستطيع أن يحتاط لما سوف يداهمه من ويلات من جرأ تهوره . كذلك فإن أبناء ذى النون أصحاب طليطلة ، ما فتئوا يمنون أنفسهم بالاستيلاء على قرطبة « فلما جاء ابن ذى النون بجيشه وضرب الحصار على المدينة لم يجد عبد الملك عنده من الأنصار والمؤيدين الذين يستطيع بهم أن يرد الهجوم ويقاوم الحصار وينقذ حكومته من السقوط والدمار ولم يجد بداً من استمداد المساعدة من المعتمد »

ولعب المعتمد لعبة الثعلب الذي احتكمت إليه قطتان في قسمة غنيمتهما فصار يلتهم منها شيئاً فشيئاً بحجة تحقيق الموازنة بين القسمتين حتى حرهما مما احتكمتا إليه فيه . وحدث ذلك بمساعدة المعتمد لعبد الملك بن جهور ضد يحيى بن ذى النون فلما انتهى الأمر تظاهر جيش المعتمد بالتهيؤ لمبارحة البلاد إلى أشبيلية ثم ما لبث أن انقضَّ على حاكم قرطبة في صبيحة يوم ارتحاله وأوثقه كتافاً وقبض على إخوته وأهل بيته جميعاً ، وحملهم إلى جزيرة شلطيـش حيث بقوا فيها بقية حكم المعتمد بن عباد .

ويشاء القدر أن يلعب يوسف بن تاشفين ملك المرابطين نفس اللعبة التي لعبها المعتمد مع حاكم قرطبة ، شاء القدر أن يلعب هذا الفازي نفس الدور مع المعتمد نفسه ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ إذ أنه انقضض عليه انقضاض العقاب الجارح بعد أن نصره في معركة الزلاقة وحمله وأسرتة إلى أغمات حيث بقوا فيها بقية حياتهم .

ويقول المعتمد بن عباد بعد استيلائه على قرطبة مبتهجاً بهذا الفتح :

مَنْ لِلْمُلُوكِ بِشَاوِ الْأَصِيدِ الْبَطْلُ	هِيَ هَاتِ جَاءَتْكُمْ مَهْدِيَّةُ الدَّوْلِ
خَطَبْتُ قَرْطَبَةَ الْحَسَنَاءِ إِذْ مَنَعَتْ	مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
وَكَمْ بَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا	فَاصْبَحَتْ فِي سِرِّي الْحَلَى وَالْحُلِّ
عُرْسَ الْمُلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرْسٌ	كُلُّ الْمُلُوكِ بِهِ فِي مَاتَمِ الْوَجَلِ
فِرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ لَا أَبَا لَكُمْو	هَجُومَ لَيْثٍ يَدْرِغُ الْبَاسَ مَشْتَمِلِ

غير أن المعتمد لم يكد يوطد قدميه في تلك الحاضرة حتى فُوجيء بما لم يكن في الحسبان ، فعقب استيلائه عليها ، أوكل الأمر فيها إلى ابنه عباد وهو من حظيته الرميكية ، ولم يطل حكمه فيها ، إذ فاجأه رجل فتاك شديد الضراوة ، يدعى ابن عكاشة فاجأ عباد على حين غفلة منه برجاله الذين جبلوا على سفك الدماء ، وإشاعة الفوضى فأحاطوا به بقصره وقتلوا حراسه ، وأيقظوه من نومه فصارعهم حتى صرعوه ومثلوا بجثته ، وراحت الغوغاء تطوف في شوارع المدينة معلنة أن الأمر آل إلى المأمون صاحب طليطلة ، وأنه ينبغي على جميع من في قرطبة أن يقدموا يمين الطاعة لذلك العاهل الجديد . وجاء المأمون إلى قرطبة فرحاً بهذا الفتح الذي حققه له ابن عكاشة ، إلا أنه كان يعتقد في سريرة نفسه أن « من اجتراً على الملوك لا يصلح للملك » وعلم ابن عكاشة بذلك فدس له السم فمات من حينه .

ويقول الأستاذ علي أدهم « وحزن المعتمد على ابنه حزناً شديداً حينما بلغته أنباء قرطبة وألهاه الحزن وتقدير جميل الرجل الذي خلع رداءه وغطاه به عن الظمأ إلى الانتقام وتمثل بالشاعر أبي خراش الهذلي في رثاء ابنه :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه على أنه قد سلَّ عن ماجدٍ محضٍ

ولم يستطع المعتمد الثَّار لابنه والانتقام من ابن عكاشة واسترداد قرطبة إلا بعد ثلاثة أعوام .

### معركة الشطرنج : ( العباديون والفونسو السادس ) :

وبعد أن عاود المعتمد فتح قرطبة لم يقف توسعه إلى هذا الحد ، وإنما استطاع الاستيلاء على الأراضى التابعة لمملكة طليطلة بين نهر الوادى الكبير ونهر وادى أنه . غير أن قوة المعتمد التى تضاعفت أمامها قوى الأمراء المسلمين ، كانت تقابلها قوة أخرى تتضاعف أمامها قوة المعتمد ، شأنه شأن غيره من الأمراء وكانت تتمثل تلك القوة فى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ، الذى استطاع أن يستولى على ملك أخويه غرسيَّة وسانكو ، وأن يرغم المسلمين على دفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، بعد أن كان يدفعها لعاصمة الأمويين فى الأندلس ، شأنه شأن غيره من بقيَّة الممالك المسيحية . ولما زاد خطر الفونسو وعظم بأسه وهدد بالاستيلاء على أشبيلية التى كانت أكبر ولاية إسلامية أوجس المعتمد فى نفسه خيفة منه ، وراح يستدعى ابن عمار ليشير عليه ماذا يفعل أمام هذا الخطر المهدق بمملكته ، ويقول الأديب المؤرخ على أدهم « وكان ابن عمار يعرف الفونسو السادس معرفة جيدة ، فقد زار بلاطه وبلاط غيره من ملوك شبه الجزيرة ، وكان الفونسو كذلك يعرف ابن عمار ويقدره ، وإذا ذكر ابن عمار عنده يقول عنه ( هو رجل الجزيرة ) وكان ابن عمار يعرف طموح الفونسو ومطامعه ، ولكنه كان يعرف كذلك نزواته ونواحي ضعفه ، وعمل ابن عمار على استغلال هذه النواحي الضعيفة فى دفع الهجوم على أشبيلية ، وبدلاً من إعداد جيش للمقاومة وتنظيم الاستعداد للدفاع أمر بإعداد رقعة شطرنج غاية فى الإتقان . »

وهذه الحيلة التى لجأ إليها ذلك الشاعر الداهية كانت سبباً فى تجنب الدولة العبادية ويلات الحرب مع عدوها الجبار وكفَّ أذاه عن بلاد المسلمين . فإن معرفة ابن عمار لنزوات ذلك القائد جعلته يُعمل فكره ليوقعه فى الفخ الذى جعله أسيراً فى قبضته ، دون أن يكلف دولته عناء القتال وبناء الحصون والقلاع .

وهذه الحيلة التي توصل إليها جعلته يفكر في نزال عدوه في ميدان يعرف أنه لا يغلبه فيه ، ألا وهو ميدان الشطرنج الذي كان يجيده إجابة فائقة ، ويدعن المعتمد ابن عباد لهذا الطلب ، فيحمل ابن عمار تلك القطعة النادرة من ( الشطرنج ) ويذهب تلقاء الفونسو السادس ثم ما يلبث أن يكشف عن هذه القطعة أمام رجاله الذين جاؤا ليصطحبوه إلى قائدهم ، فيترامى الخبر إليه ، وما إن هم القائد بلقائه حتى سألته عن أمر تلك القطعة النفيسة التي يحملها بين طياته ، فيبرزها له فيعجب بها أيما إعجاب ، ويسأله من أين لك هذه القطعة النفيسة ؟ التي صيغت بإتقان وشُكِّلت على ألوان ، وأنت تزهو بها كما تزهي الملوك بالتيجان ، فقال له ابن عمار : هي لك يا سيدي على شريطة أن تلعب معي فتغلبني ، فإن تغلبت عليك فلي حكمي .

ولما سألته عن الشرط الذي سينازله عليه لم يصارحه به ، وإنما أصرَّ على عدم التصريح ريثما ينجلي النزال بينهما في هذه اللعبة ، ولما شاور القائد مستشاريه في ذلك الأمر أشاروا عليه بالقبول ، لأنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن ملكهم لا يُجَارَى في لعبة الشطرنج . فنازله ابن عمار في ذلك الميدان وتصارعا صراعاً فنياً عنيفاً ، وانكشف الموقف عن انتصار ابن عمار انتصاراً باهراً . وهنالك سألته الفونسو قائلاً : والآن ما حكم رجل الجزيرة الذي لم يصرح به من قبل ، وقد آن له أن يبوح به ، فقال له ابن عمار على الفور : حكمي أن تجمع جنودك المبعثرة في جميع أنحاء البلاد ، وترحل إلى بلادك إن كنت ممن يوفون بعهدهم إذا عاهدوا . هنالك ذهل الرجل من حكم ابن عمار ، ورأى أنها هزيمة منكرة له وحدثته نفسه بأن يرجع في كلامه ، لولا أن رأى أنه من العار أن يرجع الملوك في كلامهم ، ولم يجعله يفكر في رجوعه فيما اتفق مع ابن عمار عليه إلا لوم أصحابه له ، غير أنه رأى من الشرف والكرامة أن يحتفظ بعهد مع صاحبه ، ولكنه اشترط أن يدفع له ضعف الجزية التي كانت تدفع له آنفاً حتى تجلو جنوده عن البلاد .

### مقتل ابن عمار :

يقول الأستاذ ثروت أباظة في كتيب له عن ابن عمار : « أحسَّ ابن عمار بعد أن خلَّص البلاد من خطر الفزوة أنه أصبح دعامة هذه البلاد ، وأحسَّ أنه داهية في السياسة ، يتلاعب بالملوك ويردُّ بدهائمه الجيوش عظيمة ما عظمت تلك الجيوش .. »

ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لابد أن يجد شيئاً ينشغل به ، فما تعود أن يراح إلى هدوء وما كانت النساء مأرباً لحياته ( كما يرى الأستاذ ثروت أباطة ) وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة إلا إرضاء للمعتمد ، ووافقت ابن عمار أنباء عن مرسية المجاورة لأشبيلية ، والمستقلة عنها في الحكم ، وكان مؤدّى هذه الأخبار أن مرسية تقتقر إلى الجيش ، وأن حاكمها على غناه لا يملك خيلاً ولا رجلاً ، وكان ملك مرسية في ذلك الحين هو أبو عبد الرحمن بن طاهر . ينتمى إلى أصل عربي ويملك أموالاً ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة ، فكان حصيف الرأي قويمة الفكرة وكان أيضاً ضعيف الجيش منكسر الشوكة ، وكان يقيم بجوار مرسية كونت يدعى الكونت دى برشلونة ( ريمون بورنجيه ) وكان ذا قوة وأيدٍ وكان صديقاً لابن عمار .

ويعمل ابن عمار بأساليب ملتوية لجعل مرسية ولاية خاضعة لأشبيلية اسماً ، ومملكة خالصة له في حقيقة الأمر . فيذهب إليها سرّاً ليوغر صدور من تخول لهم أنفسهم أنهم أحقُّ بالسلطة من غيرهم وأنه من اليسير تبديل أحوالهم التعسة إلى خفض العيش وراحة البال ، إذا ما نفذوا سياسة التخريب التي رسمها لهم ابن عمار . ثم يؤلّى وجهه شطر الكونت ريموند صاحب برشلونة ، ليستعين به على غزو مرسية ، متخذاً في سبيل تحقيق هذه الغاية طرقاً خبيثة غادرة . فأقنع المعتمد بأن مرسية ستكون ولاية تابعة لمملكته ، وحبّب له ما سيعود عليه من الخير بعد الاستيلاء على مرسية ، ثم أقنع الكونت ريمون بأن يقدم له عشرة آلاف مثقال ذهب لقاء قيامه بمساعدته في استيلاء أشبيلية عليها ، وتأكيداً لتنفيذ هذه الاتفاقية أرسل الكونت ابن أخيه رهينة لدى المعتمد ، كما وعد ابن عمار بأن يقدم له ابن المعتمد ( الرشيد ) رهينة لدفع المال المتفق عليه .

ويقول الأستاذ على أدهم « وتقدّم جيش أشبيلية ولقى جيش الكونت ريموند وهاجم الجيشان ولاية مرسية ، وانصرم الأجل المحدد ولم يصل المال إلى صاحب برشلونة ، وتحرك المعتمد إلى قرطبة ثم إلى جيّان ومعه الرهينة على عادته من التؤدة وأبطأ على ريموند ما عوقد عليه واعتقد أن ابن عباد قد مكر به فقبض على

ابن عمار ، وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما وحاول جيش أشبيلية أن يخلصهما ولكنه عجز عن ذلك ونكص على أعقابهم مفلولاً .

ثم أطلق سراح ابن عمار مع احتفاظ الكونت بالرشيد رهينة لديه فى الوقت الذى أطلق فيه سراح ابن أخى الكونت ، فذهب ابن عمار ليأتيه بمال قدره ثلاثون ألف مثقال ، بعد أن كانت عشرة آلاف مثقال ، ولم يستطع ابن عمار المثل بين يدي المعتمد وإنما أرسل له هذه الأبيات لعلها أنه سريع التأثير بالأشعار التى يصوغها له فى قالب التمجيد والتعظيم والتزلف إليه ..

أُصِدِّقُ ظَنِّي أَمْ أُصِيخُ إِلَى صَحْبِي	فَأَمْضِي عِزِّي أَمْ أَعُوجُ إِلَى الرِّكْبِ
وَأَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي أَفِي الْبَعْدِ رَاحَتِي	فَأَجْعَلُهُ حِظِّي أَمْ الْحِظُّ فِي الْقُرْبِ
إِذَا انْقَدْتُ فِي أَمْرِي مَشِيْتُ مَعَ الْهَوَى	وَأِنْ أَتَعَقَّبُهُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي
عَلَى أَنَّنِي أَدْرِي بِأَنَّكَ مُؤَثَّرُ	عَلَى كُلِّ حَالٍ مَا يَزْحَرْجُ مِنْ كَرْبِي
أَهَابُكَ لِلْحَقِّ الَّذِي لَكَ فِي دَمِي	وَأَرْجُوكَ لِلْحُبِّ الَّذِي لَكَ فِي قَلْبِي
أَيُظْلِمُ وَجْهِي كَذَا قَمَرُ الدَّجَى	وَتَنْبُو بِكَفَى صَفْحَةِ الصَّارِمِ الْعُضْبِ
حَنَانِيكَ فَيَمْنُ أَنْتَ شَاهِدُ نَصَحِهِ	وَلَيْسَ لَهُ فِي غَيْرِ انْتِصَاحِكَ مِنْ حَسْبِ
وَمَا جِئْتُ شَيْئًا فِيهِ بَغْيٌ لَطَالِبِ	يُضَافُ بِهِ رَأْيٌ إِلَى الْعَجْزِ وَالْعُجْبِ
سِوَى أَنَّنِي أَسْلَمْتُ نَفْسِي لِلْمُتَةِ	فَلَلْتُ بِهَا حَدِيَّ وَكَسَرْتُ مِنْ غَرْبِي
وَمَا أَغْرَبَ الْأَيَّامَ فَيَمَّا نَضَتْ بِهِ	تُرِينَنِي بَعْدِي عَنْكَ أَنْسَ مِنْ قُرْبِي
أَمَّا إِنَّهُ لَوْلَا عِوَارْفُكَ الَّتِي	جَرَتْ جَرِيَانُ الْمَاءِ فِي الْغُصْنِ الرُّطْبِ
لَا سُمْتُ نَفْسِي مَا أَسُومُ مِنَ الْأَذَى	وَلَا قُلْتُ إِنَّ الذَّنْبَ فَيَمَّا جَرَى ذَنْبِي
سَأَسْتَمْنَحُ الرَّحْمَنَ مِنْكَ ضِرَاعَةً	وَأَسْأَلُ سُقْيَا مِنْ تَجْوُزِكَ الْعَذْبِ
فَإِنْ نَفَحْتَنِي مِنْ سَمَاتِكَ حَرَجَفُ	سَاهَتَفَ يَا بَرْدَ النَّسِيمِ عَلَى قَلْبِي

وأثرت هذه الأبيات فى نفس المعتمد فردَّ عليه بالأبيات التالية مشجعاً إيَّاه على

القدوم فى غير خوف أو تردد :

تقدم إلى ما اعتدت عندى على الرحب      ورد تلقك العتبي حجاباً من العتب  
متى تلقني تلق الذى قد بلوته      صفوحاً عن الجاني رؤفاً على الصحب  
سأوليك منى ما عهدت من الرضا      واعرض عما كان إن كان من ذنب  
فما اشعر الرحمن قلبى قسوة      ولا صار نسيان الأذمة من شغبى  
تكلت به أبغى به لك سلوة      فليس يجيد الشعر مشترك اللب

ثم طلب ابن عمار من المعتمد أن يقدم للكونت ريموند ذلك المبلغ الباهظ من المال حتى يطلق سراح ابنه الرشيد ولما كان هذا المبلغ ليس فى مقدوره تقديمه فقد عهد إلى سباكيه بخلط الذهب بمعادن أخرى فقدمت للكونت ولم يستطع التعرف على ما فيها من زيف فأطلق سراح الرشيد فعاد عزيزاً بعد ذل الأسر وعبوديته .

وهكذا اطمأن ابن عمار إلى صفح المعتمد عنه وأيقن أنه لا يستطيع أن يحقق شيئاً دون التعويل عليه والرجوع إليه وعادته فكرة الاستقلال بولاية من الولايات التى تتاخم حدود الدولة العبادية، ولعله اهتم بوجه خاص بإمارة مرسية مرة أخرى ، فراح يزين للمعتمد ما وراء فتحها من خير ويهون عليه أمر الاستيلاء عليها ويطلب منه أن يمهده بالكثير من الديباج والخز حتى يستفر أهل مرسية لمآلاته ضد حاكمها أبى عبد الرحمن بن طاهر ، ولم يمتنع المعتمد لمطلب ابن عمار رغم أنه كان قد تسرب إليه شيء من الشك فى سريرة صاحبه فودعه قائلاً : سر إلى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع ، فيرد عليه ابن عمار : لست بمخدوع ولكنك مضطر ، وأغضى المعتمد عن هذه العبارة إغضاء من لم يفهم معناها . وسار ابن عمار حتى قدم قرطبة فانضم إليه الخيالة من جند المدينة ثم توجه لتقاء مرسية فاجتاز حصن ، وكان حصناً منيعاً يتولى حراسته رجال بواسل يقودهم عبد الله بن رشيق ، فقابل ابن عمار على مقربة من الحصن ثم دخلاه مستعرضين حرس ابن رشيق ويقول الأستاذ على أدهم : « وقصد ابن عمار مرسية ومعه صديقه الجديد ( أى ابن رشيق ) الذى أولاه ثقة كبيرة لم يكن الرجل أهلاً لها واقتروب الجيش من مدينة

« مولا » فحاصرها ولم يطل حصارها لأنها ما عتمت أن سلّمت ، وكانت مدينة مرسية تعتمد في تموينها على منطقة حول « مولا » ، ولذلك كان تسليم « مولا » ضربة قاضية على مرسية ، وأبلغ ابن عمار المعتمد أن المدينة موشكة على السقوط ، وقد أصاب ذلك فإن أبواب مرسية فتحت لابن رشيق بطريق الخيانة وألقى بابن طاهر في السجن ، وأخذت البيعة للمعتمد ، ثم رجع ابن عمار من لدى المعتمد بالهدايا والألطف إلى مرسية ، لتوزيعها على الخونة الذين مالوا ضد ابن طاهر ، وما زال بها حتى كشفت نيّاته للمعتمد ، حينما بلغه أنه قد اتخذ من الأبهة والصولجان ما لم يتخذه سيده لنفسه ، فأرسل إليه المعتمد بهذين البيتين :

تغيّر لى فيمن تغيّر حارثُ      وكلّ خليل غيّرته الحوادثُ  
أحارثُ إن شوركُتُ فيك فطالما      نعمنا وما بينى وبينك ثالثُ

فأجابه ابن عمار بقصيدة يقول فيها :

لك المثل الأعلى وما أنا حارثُ      ولا أنا ممّن غيّرته الحوادثُ  
ولا شاركتُه الشمس في وإنّه      لينأى بحظّي منك ثانٍ وثالثُ  
فديتك ما للبشر لم يسر برقه      ولا نفحت تلك السجايا الدماثُ  
أظنّ الذئب بينى وبينك أذهبّت      حلاوته عنى الرجال الخبائثُ

ثم حدث أن حاول ابن عمار استرضاء ابن طاهر وشراء مودته بعد اعتقاله إلا أنه رد رسوله خائباً وسمع ابن عمار عبارة ذكرته بأيامه السولف ، حينما جاء ابن طاهر رث الثياب ، لا يملك سوى جبة وقُلنسوة وأثناء هذه المسيرة لاقى العناء الطويل ، فكان هذا الرد إيذاناً بتشديد النكير عليه وتعذيبه على يد زبانيته ، ولما ترامت الأخبار إلى ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وكان صديقاً حميماً لابن طاهر ، عزّ عليه ذلّ هذا الأمير على يد ابن عمار ، فأعمل فكره على تخليصه من الأسر وإحاطته برعايته ، وحدث ذلك حينما هرب ابن طاهر من معقله إلى بلنسية ، فلقيه صاحبها بالبشر والترحاب ، وأراد ابن عمار أن يقتصّ من حاكم بلنسية لمساعدته غريمه على الفرار ، فأرسل قصيدة إلى أعوانه يحرضهم فيها لإثارة الأهالي ضد حاكمها يقول فيها :

بشُرْ بلنسيةً وكانت جنةً      أن قد تدلّت في سواءِ النارِ  
غدرتَ وفيًا بالعهود وقلّما      عثرُ الوفيُّ سعىً إلى الفدارِ  
يا أهلها من غائب أو حاضر      وقطينَها من راسخ أو طارى  
جاروا بنى عبد العزيز فإنهم      جرّوا عليكم أسوأ الأقدارِ  
ثوروا بهم متأولين وقلّدوا      ملكًا يقوم على العدو بشارِ

ثم يتحدث عن نفسه فيقول :

كيف التفلّت بالخديعة من يدى      رجلِ الحقيقة من بنى عمار  
رجلٍ تطعمه الزمانُ فجاءه      طرفين في الإحلاء والإمرارِ  
كشافِ مظلمةٍ وسائسِ أمة      نقّاعِ أهل زمانه ضرارِ  
شرابِ أكواسِ المدام وتارةً      شرابِ أكواسِ الدّم المهدارِ  
جرارِ اذيالِ الفنا ظنّوا به      قد زاركم في الجحفلِ الجرارِ

وسمع المعتمد بهذه القصيدة وكان قد اشتد غضبه على ابن عمار لعصيانه أمره وإهماله طلبه فنظم الأبيات التالية معرضاً بابن عمار وقد تجلت فيها براعة المعتمد في الهجاء الساخر فبدأها ببيت ابن عمارة .

كيف التفلّت بالخديعة من يدى      رجلِ الحقيقة من بنى عمار

ثم قال :

الأكثرين مسووداً ومملكاً      ومتوجّجاً في سالف الأعصارِ  
المكثرين من البكاء لنارهم      لا يوقدون بغيره للسارى  
والمؤثرين على العيال بزادهم      والضرارين لهامة الجبارِ  
إن كوثرُوا كانوا الحصى أو فاخروا      فمن الأكاسر من بنى الأحرارِ  
يضحى مؤملهم يؤملُ سيّبه      ويبيت جارهمو عزيزَ الجارِ

وقد أدخلت هذه الأبيات على ابن عبد العزيز صاحب بلنسية سروراً أيما

سرور، وبقدر هذا السرور كان غضب ابن عمار من وقعها في أذنيه ، وترديدها على شفتيه ، فتغلبت فيه نوازع الشر إلى أن يهجو المعتمد هجاء مقذعاً لا حياة فيه ، ولا عرفان بالجميل الذي أسداه له ، بل قلب له ظهر المجن وجاهره بالمعصية قائلاً :

الأحى بالقرب حياً حلالاً	أناخوا جِمالاً وحازوا جِمالاً
وعرج ( بيومين ) <sup>(١)</sup> أم القرى	ونم فعسى أن تراها خيالاً
لتسأل عن ساكنيها الرُماد	ولم تر للنار فيها اشتعالاً
فيا عامر الخيل يا زيدها	منعت القرى وأبحت العيالاً
أراك تورى بحسب النساء	وقدما عهدتك تهوى الرجالاً
اتذكُر أيامنا في الصُّببا	وانت إذا لُحت كُنت الهاللاً
أعانقُ منك القضيبَ الرطيبَ	وأرشف من فيك ماء زلالاً

واستطاع أحد خاصته من اليهود أن يحصل على هذه القصيدة بخط يده ، ويحملها إلى ابن عبد العزيز ويرسلها ابن عبد العزيز بدوره إلى المعتمد بن عباد ، فتكون هذه القصيدة سبباً لإنهاء حياة ابن عمار ، إذ قطعت الأمل في عفو المعتمد عما سلف من ريبه الذي شق عليه عصا الطاعة ، بعد أن تغمده برعايته وعنايته وكما يقول الشاعر العربي :

جراحات السُّنَّان لها التَّئامُ      ولا يلتامُ ما جرح اللُّسانُ

فإنه قد صدق على ابن عمار المثل السائر ( مقتل الرجل بين فكيه ) وساعدت الأقدار على التعجيل بالاقتصاص منه ، إذ ثار عليه الجند طلباً لأعطياتهم وهددوا بتسليمه إلى المعتمد ، ولم يجد بداً من الفرار تاركاً الأمر لابن رشيق ، قاصداً لتوّه مدينة سرقسطة عند صاحبها المقتدر بن هود أملاً في استرداد مرسية بمساعدته ثم قصد ( لاردة ) عند المظفر أخى المقتدر ، إلا أنه أصبح منكسر الفؤاد لسوء حالة تلك الولاية وعدم إمكانه تحقيق مطامعه فيها ، فظل في سرقسطة واستعمله

(١) يومين : هي القرية التي جاء بنو عباد منها قبل أن يستولوا حكم أشبيلية .

ابن هود على رأس ثلة من الجند للاستيلاء على أحد الحصون المنيعه ، إلا أن أصحابه استطاعوا أن يستدرجوه من حيث لا يحتسب ثم أوثقوه كتافاً وباعوه إلى المعتمد بن عباد ، بعد أن دفع أكبر ثمن عرضه عليه الأمراء لشرائه واقتاده الراضى ( ابن المعتمد ) إلى قرطبة وهو فى حالة يرثى لها بعد عز الملك والأبته ( فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسواه على بغل بين عدلى تبين ، وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل ذلك إذا دخل قرطبة اهتزت له ، وكان خرج وجوه أهلها وأعيانها ورؤساؤها والسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده » .

وراح ابن عمار كمادة الشعراء المتملقين يستعطف المعتمد آملاً فى الصفح عنه فكتب القصائد المطوَّلة فى مدح سجايا المعتمد وتذكيره بفضله عليه وأصاله محتده ونقاء سريرته إلا أن كل ذلك لم يغفر له جريرته ، فلقى حتفه على يدى المعتمد بعد أن زاد غضبه عليه حينما أرسل رسالة إلى ابنه الرشيد يخبره فيها أن أباه سيطلق سراحه .

### خلاصة:

إنَّ المعارك التى خاضها المسلمون فى الأندلس على عهد المعتمد بالله بن عباد ، كانت امتداداً للمعارك التى خاضها والده لتحقيق وحدة البلاد بعد أن تفككت عراها وأصبحت ولايات متناثرة لا تملك من أسباب القوة ما يؤكد بقاءها . ويمكننا استخلاص النتائج التالية من عرضنا السابق لتلك الفترة :

١ - إنه قد تزايد الصراع بين الفئات المكوَّنة للشعب الأندلسى وسعت كل طائفة إلى الاستقلال بولاية معينة وتهديد غيرها بالاستيلاء عليها متخذة أحيث الوسائل فى تحقيق مآربها .

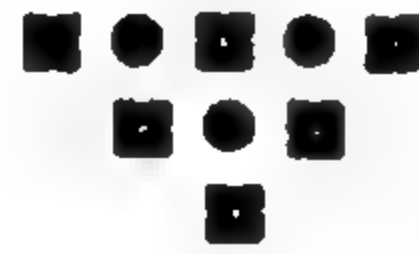
٢ - إنَّ الأمراء عَنُوا بمجالس اللهو وأدمنوا فى الخمر ومعاقرة النساء واتخذوا لهم بطانة من الولدان والجواري الحسان إمعاناً فى اللهو والمجون .

٢ - إنهم اهتموا بقرض الشعر أكثر من اهتمامهم بتنظيم شئون الولايات والعمل على توحيدها بطريق سلمى بعيد عن المطامع .

٤ - إنه في ذلك العصر قويت الإمارات المسيحية الأسبانية ، التي كانت غاية في الضعف قبل هذا التاريخ ، والتي تحصنت بالجبال والهضاب العالية في غربي الأندلس ، وزادت قوتها حينما توحدت على يدى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

٥ - في ذلك العصر أيضاً زادت المطامع الشخصية ، ونسى الحكام سالتهم الإنسانية والدينية ، وراحوا يحيكون المؤامرات ، ويستعينون بالدول الأجنبية لابتلاع الإمارات المتاخمة لحدودهم .

٦ - إن التاريخ في عصرنا هذا يعيد نفسه ويلعب المستعمرون نفس الدور الذى كانت تقوم به الدول الرجعية ضد الإمارات الإسلامية في الأندلس ولم تكن حيلة الشطرنج إلا حيلة الضعيف إزاء القوى .



الفصل الثالث

## معارك العرب في الأندلس في عصرى المرابطين والموحدين

- معركة الزلاقة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)
- معركة أقليش أو (أقليج) ٥٠١هـ (١١٠٨م)
- حروب النصارى الأسبان ضد المسلمين
- ( من معركة أقليش حتى قيام دولة الموحدين )
- معارك العرب في أسبانيا
- ( من معركة إفراغة إلى معركة الأرك )



## معركة الزلاقة

٤٧٩ هـ ( ١٠٨٦ م )

### حركة الاسترداد الأسبانية :

أشرنا آنفاً إلى أن حركة الاسترداد الأسبانية اشتد ساعدها منذ أيام الحاكم العربى المعتضد بالله العبادى ملك أشبيلية ، إذ استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون محاربة مسلمى الأندلس ، كما استطاع أن يحرز عليهم انتصارات باهرة ، واضطر الولاة الضعاف فى طليطلة وسرقسطة وبطليوس أمام هذا الزحف الجبار أن يدفعوا له الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

ثم قوى ساعد هذه الحركة المسيحية على عهد الفونسو السادس الذى استطاع الاستيلاء على ملك أخويه جارسياً وسانكو ، وإن يوحد هذه الإمارات ليوجه بها ضرباته القاضية للإمارات الإسلامية المتاخمة له ، وتمكن هذا الملك من الاستيلاء على طليطلة ، وأرغم أشبيلية على دفع الجزية مضاعفة ، وحذا حذوها جميع الولايات الإسلامية التى كانت أضعف منها شأنًا . وقد اتفق المؤرخون على أن فلوط القوط التى فرت أمام الفاتحين العرب قد التجأت إلى هضاب أسبانيا المتشعبة فى ( جليقية ) التى سميت فيما بعد بصخرة ( بلاى ) إذ استطاعت فئة قليلة بقيادة هذا الرجل أن تؤسس نواة الحركة المسيحية فى شبه الجزيرة الأسبانية وقد استصغر الحكام الأمويون شأنها ، كما لم يأبه بها ملوك الطوائف من بعدهم حتى أصبحوا خطراً يهدد كيان المسلمين فى الأندلس .

## الاستيلاء على طليطلة من المسلمين في سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) :

استطاع الفونسو ضمّ أملاك أخويه جارسياً وسانكو ، وأختيه الدونا أوراكا والدونا البيرا ، وذلك بعد مقتل أخيه جارسياً على يد أتباع أخته أوراكا وبعد أن زج بأخيه الآخر في السجن ، وهكذا أصبح هذا الملك ذا السلطان الذي لا يجارى والقوة التي لا تقهر . وتطلّع إلى بسط سلطانه على جميع الولايات الإسلامية التي أصبحت لا حول لها ولا قوة ويقول أستاذنا على أدهم : « وكان الفونسو مثل أبيه فرديناند محارباً جريئاً ولكنه كان ذا شخصية بغيضة منفرة ، شديدة الجشع مطبوعة على الإجرام ، نزاعة إلى القسوة والغدر والخيانة ، ولم يقنع بالجزية التي كان يؤديها له ملوك الطوائف ، فأخذ ينذرهم من الحين إلى الحين ، بالويل والثبور ، ويهددهم بالاستيلاء على أملاكهم .. وكان من أضعف ملوك الطوائف الخاضعين لألفونسو القادر ملك طليطلة ، وحفيد المأمون ملكها السابق وكان ألعوبة في يد خصيان قصره ، وأضحوكة جيرانه الذين كانوا يتنافسون في اقتطاع أجزاء من أملاكه ، والاستخفاف به ، وصفه ابن بسام في الذخيرة بقوله : « كان آية في قرب غوره إمعة أمره ( ضعيف النفس ) أجبن من قبرة ، إن حزم لم يعزم وإن سدى لم يلجم ، وقد ركب هواه وأساء السياسة ، حتى كرهه أهل طليطلة وملأوا حكمه » ، واضطر القادر إلى الفرار أمام غضبة الجماهير التي احتشدت للانقضاض عليه ، ثم حدث في سنة ٤٧٢ هـ أن آل زمام الحكم في طليطلة إلى المتوكل عمر بن المظفر صاحب بطليوس ، ولم يكن أحسن شأنًا من القادر ، وساعد هذا المصير الذي آلت إليه طليطلة أن يفكر حاكمها المخلوع في العودة إلى الحكم ، بمساعدة عدو البلاد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، فكاتبه في ذلك الأمر ووجد الفونسو الفرصة سانحة وهي التي كثيراً ما منى بها نفسه قبل هذا الحدث ، وأرسل جنده لمحاصرة طليطلة فهرب المتوكل إلى بطليوس بعد أن تركها بين ظفر وناب ، وأصبحت المدينة لقمة سائفة في يد عدوها الجبار ، فلم يرقب في أهلها إلا ولاذمة ، وآلى على نفسه عدم مبارحتها حتى يقدم له القادر أموالاً طائلة مكافأة له على هذا التأييد . وقد أوردت كتب التاريخ والأدب العربي عمّا حدث في تلك المأساة المروعة ، وممّا يحز في النفوس أن ملوك الطوائف كانوا يساعدون جيش الطاغية الفونسو وهو يحاصرها ،

كما ورد في الذخيرة لابن بسام ويصف ذلك الموقف الرهيب<sup>(١)</sup> استاذنا على أدهم فيقول : « وطلق أهل طليطلة يستغيثون بمن حولهم ويستصرخونهم دون أن يعبأ بهم أحد من ملوك شبه الجزيرة وأمرائها وبعد انتهاء الشتاء اشتد بهم ضيق الحصار وتعطل المرافق وقعود إخوانهم المسلمين عن مناصرتهم وتقريع كريبهم فأروا مداخلة الفونسو فخرج وفد منهم إلى مضربه للمفاوضة وكان أمل هذا الوفد أن يتقرب إليه بالمال لرفع الحصار . ثم مثل أمامه جميع الوفود فأهانهم إهانة شنيعة وركل بقدميه كل ما قدموه له من هدايا وألطاف ، ولم يرضَ بغير التكيل والتمثيل بالأبرياء بديلاً فاستولى عليها في عام ٤٧٨ هـ الموافق ١٠٨٥ م ، وهي أول مدينة عربية استردها الأسبان فكان استردادها فرحة وترحة فرحة للأسبانيين بعودة العاصمة العتيقة إلى حوزتهم ، وترحة للمسلمين بسقوط كعبة العلم والأدب ومنارة الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الأسبانية ، وعاصمتهم الثانية بعد قرطبة منذ أن فتحها المسلمون .

وقد عبّر عن شعور المسلمين بهذه الفاجعة شاعرهم المفلح عبد الله بن فرج اليحصبي بقوله :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم      فما المقام بها إلا من الغلَطِ  
الثوب ينسل من أطرافه وأرى      ثوب الجزيرة منسلًا من الوسطِ  
ونحن بين عدو لا يفارقنا      كيف الحياة مع الأعداء في سبطِ

معركة الزلاقة : رجب ٤٧٩ هـ ( ١٠٨٦ م ) :

مهدت فاجعة استيلاء الفونسو السادس على طليطلة لتوغله في أجزاء مترامية من الإمارات الإسلامية الأخرى ، كما جعله هذا الفتح العظيم في مقام السيد الغالب على أمره ، وقد حدا به كبرياؤه ، أن يرغم الأمراء الضعفاء أن يقدموا الجزية أضعافاً مضاعفة ، ووصل به التحدى والتبجح إلى حد الاستهانة بالأمكن المقدسة ، فطلب من المعتمد بالله أن يسمح لامراته ( القمطيحة ) بأن تلد في مسجد قرطبة الجامع زعمًا منه أنه مكان مقدس ، لأنه بُنى على أنقاض كنيسة عتيقة ، الأمر الذي

(١) المعتمد بن عباد للأستاذ على أدهم .

جعل المعتمد يرفض هذا الطلب رفضاً باتاً . ثم وصل التحدى بأتباعه إلى أن يهينوا المسلمين في عقر دارهم . وهم وافدون عليهم لأخذ الجزية من مملكة المعتمد ابن عباد ، وكان على رأس هذا الوفد ابن شاليب اليهودي الذي تشدد مع حراس القصر وأساء إلى شرف البلاد فلم يسع الأمير إلا أن يقبض عليه ويسقيه كأس الحمام ، ثم أمر بصلبه على أبواب المدينة ، وزح بمن كان معه من الوفد في غياهب السجن .

وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الأولى لإشعال نار الحرب بين الفونسو وملوك الطوائف قاطبة ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد فلما وصل الخبر إليه هاج وماج وانذر وتوعد ، واقسم بالله ليطأن أشبيلية وما حولها بسنابك خيله ، وليُعملن سيوفه في رقاب المسلمين ، لا يرحم منهم شيخاً ، ولا طفلاً ولا والدته ، ولا مولوداً ، ولا حاملاً ، ولا محمولاً ، ولا مرضعة ، ولا رضيعاً . وبرّ بقسمه هذا حينما جمع جيوشاً لا قبل للمسلمين بها ، ووجه كل قائد إلى جهة معينة للاستيلاء عليها ففرقة وجهها إلى حصن لبيط المنيع ، وأخرى إلى مرسية ، وثالثة إلى غرناطة وسرقسطة . ويقول الأستاذ على أدهم : « واستولى الخوف على النفوس<sup>(١)</sup> ، وبدا لأهل الأندلس أنه ليس هناك سبيل للخلاص سوى أحد طريقين ، وكلاهما شر من الآخر وهما الرحيل من الأندلس وهو طريق يصعب احتماله واختيار مر ، أو الخضوع لالفونسو وهو يفقدهم كل شيء ، ويتركهم أذلاء محتقرين ، وقد ينتهي بإجلائهم عن البلاد أو يقتلهم لأن الفونسو لم يكن الرجل الذي يُطمأن إلى وعده » .

وقد اجتمع أهل الرأي والمشورة في قرطبة ، لطرح أحوال البلاد على بساط البحث أمام كل ذي رأي حصيف ، ليقرروا ماذا يفعلون أمام زحف الفرنجة وليعقدوا العزم على رأى سديد ، لخلاص البلاد من تلك الحال التي تحولت من سيىء إلى أسوأ ، واستقر رأيهم على استدعاء يوسف بن تاشفين ملك المرابطين بأفريقية ، ليقف معهم ضد العدو المشترك رغم تخوفهم من أطماع الدولة المرابطية . ولما قدم عليهم المعتمد بن عباد أطلعوه على قرارهم الأخير ، فاستحسن ذلك منهم وطلب من القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم أن يكون رسوله إلى يوسف بن تاشفين .

وقبل أن يصل الفونسو خبر ذلك المؤتمر كتب إلى ابن عباد يقول له : ( كُثُر بطول مقامى فى مجلسى الذباب واشتدَّ عليَّ الحرُّ فأتحفنى من قصرِكَ بمروحة أرواح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى ) ويعنى بهذه العبارة أنى قاب قوسين أو أدنى من عرش الملك القابع بأشبيلية ، والذي كثر فيه الخدم والحشم ويروِّحون عن المعتمد فى الغدو والآصال ، لشدة وجله وذعره من الجيش الذى يطوق مدينته . فكتب إليه الرد فى ظهر الرقعة التى وصلتته « قرأت كتابك وعلمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللطيفة تروِّح منك لا تروِّح عليك إن شاء الله تعالى » ويقول المؤرخون إن هذا الرد قد أثر على الفونسو تأثيراً واضحاً وجعله يُطرق إطراقاً من لم يخطر له على بال مثل هذا الرد .

وقرر ابن عباد وغيره من عليّة القوم السماح بجواز المرابطين لمشاركتهم فى دفع الخطر المحدق بهم ، رغم تخوف معظم ملوك الطوائف ومن بينهم ابنه الرشيد ، فقال له أبوه قولته المشهورة « رَعَى الجمال خير من رعى الخنازير » ويعنى بها إننا نفضل أن نكون أسرى المرابطين فنرعى لهم الجمال ولا نرضى أن يستذلنا الفونسو فتصبح رعاة الخنازير . وتناسى المعتمد ما بين البربر وعرب الأندلس من عدااء قديم ، وأغضى عما سلف من مشاحنات واشتباكات حدثت بينهما ، منذ أن تواجد فى شبه الجزيرة الأسبانية ، وقد ندم المعتمد فى وقت لا ينفع الندم ، على ما سلف منه من تركه ابن عمار يتعاقد مع الفونسو ويتفق معه سراً لمساعدة المعتمد ، ضد أعدائه من المسلمين نظير إغضائه الطرف عن استيلاء الفونسو على طليطلة ، بل وصل به الأمر إلى مساعدته ، ويروى صاحب نفح الطيب أن يوسف بن تاشفين بعد أن آل إليه زمام الحكم فى دولة المرابطين ، وأطاعته البربر رغم غلظتها وبدائيتها وقوة شكيמתها ، تآقت نفسه إلى عبور المضيق والاستيلاء على ممالك الطوائف ، ولهذا الأمر أخذ فى إعداد المراكب والسفن ليعبر بها ، ولما فطن ملوك الطوائف إلى ما عقد العزم عليه أعدو وللأمر عدته ، إلا أنهم لم يشعلوا نار الحرب ضده خوفاً من أن يكونوا بين نارين .

وكانت صيغة الكتاب الذى بعث به المعتمد باسم ملوك الطوائف إلى أمير

المسلمين بأفريقيا ، كما يلي « أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز ، وإن أجبننا داعيك نسبنا إلى عقل ولم تنسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتي ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوته والسلام » ويذكر أستاذنا على أدهم أن يوسف بن تاشفين لم يكن ملماً باللغة العربية ولا يفقه منها إلا النذر اليسير ، إلا أنه كان سريع الفهم ذكياً الطبع وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فسرّد عليه فحوى الكتاب الذى ألقى إليه من لدن عاهل أشبيلية ، باسم ملوك الطوائف ، وأخبره أنهم يعظمونه ويجلونّه ويجعلون أنفسهم طوع أمره ورهن إشارته ، على ألا يجعلهم فى منزلة الأعادى ، فإنهم مسلمون مثله وذوو بيوتات أصيلة فلا تكون دعوتهم لقدمه وبالأعلى عليهم ، وشراً مستطيراً سيجثو على صدورهم ، لأنهم لم يدعوه إلا لنصرة الإسلام وتخليصه من يد أعدائه المغيرين . فقال له يوسف : « فما ترى أنت ؟ فأجابه بالموافقة على القدوم إليهم ، وتولى أمرهم ونصرة قضيتهم ، فإن وقوفه بجانبهم سيرفع شأنه ويخلد ذكره ، ويجعله محمود السيرة أثير الكلمة سديد الرأى . فقال للكاتب : أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقراً على كتابك » .

فكتب كاتبه فأحسن الرد على كتاب المعتمد بن عباد وملوك الطوائف ، فأئجج صدورهم وبعث الأمل فى قلوبهم ، وعاد اليقين بعد الشك فى خلاصهم من قبضة أعدائهم ، ويذكر المؤرخ الألمانى يوسف أشباح فى كتابه ( تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة الأستاذ عبد الله عنان ) أن يوسف قد أبدى عدم استطاعته العبور إلى أسبانيا ، إلا إذا أُعطِيَ له حصن الجزيرة ، وقد رضى المعتمد بهذا الشرط رغم معارضة ابنه الرشيد ، ويقول : « ثم رأى المعتمد أن يسعى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بقدومه إلى أسبانيا إلى زيارته بالعدوة خفية ، فألفاه فى مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه ، حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال القصر أن يخطرُوا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف ببابه ، فذعر

ابن تاشفين وظن أن المعتمد قدم في جيشه ، ولكنه أدرك في الحال خطأه واستقبل المعتمد بوداً وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى أسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذي يعده للعبور إلى الأندلس ، فعاد ابن عباد إلى أشبيلية مستاء لخيبته في المسعى الذي قصده ، وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائباً من قبله لأسبانيا المسلمة ، وعلى إثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبته إلى الجزيرة .

ويعلق الأستاذ عبد الله عنان على هذه الرواية بقوله : « في هذه الرواية بعض الغموض فالمتفق عليه ، أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين ، ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت من قبل أو بعد موقعة الزلاقة ، والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة » .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة أربعمائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م ، تحركت السفن التي حشدت فيها جيوش المرابطين من سبته تجاه بر الأندلس ، ويروى المؤرخون أن يوسف كان ورعاً تقياً لم يجرؤ على أمر إلا ناجى ربه ، أن يأخذ بناصره إن كان فيه خير ، وألاً يبلغه غايته إن كان فيها شره ، ولم يقدم على أمر إلا استشار فيه الفقهاء والأتقياء ، فكان يناجى ربه أثناء جوازه الأول إلى بر الأندلس مستمداً عوناً راجياً تأييده مقسماً به أنه لم يعبر إليها إلا لنصرة الإسلام وردع أعدائه وتأديبهم ..

ولما عبر يوسف إلى الأندلس ، صلى مفتتحاً عمله باسم الله ، ثم تسلّم قلعة الجزيرة الخضراء ، التي تعهد المعتمد بتسليمها له ، وقد لقيه أهل الأندلس بالبشر والترحاب ، حتى أن المعتمد هم بالترجل عن صهوة جواده ليقبل يد يوسف ، فمنعه عن ذلك وأنبأه أنه ما جاء ليحتفى به ويلتفوا حوله كما تلتف الأتباع حول ملوكهم وأباطرتهم ، وإنما جاء لخوض غمار الحرب ضد أعداء الدين ومفتصبى بلاد المسلمين .

وبعد أن حصّن الجزيرة الخضراء غادرها في بعض جيشه إلى أشبيلية ، ولبت بها ثمانية أيام ، ومن أشبيلية بعث برسله إلى جميع الأمراء الأندلسيين ، يحثهم

بالمبادرة في تقوية الجيوش التي ستخوض الحرب ضد الفونسو عما قريب ، ولم يلبث كل أمير أن بعث بالرجال المدججين بالسلاح ، لينضموا إلى جيوش المرابطين وجيش أشبيلية ، كما ساهموا بالمؤن والعتاد الحربي كلُّ قدر استطاعته ، ويقول المؤرخ الألماني يوسف أشباخ : « ثم غادر الجيش أشبيلية مخترقاً أراضى بطليوس . وكان أخوه المستنصر قد عني بجمع الجند والخيول والدواب . ورتب القوات على النظام الآتي ؟ سار في الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف ، يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلتهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير أشبيلية ، وكانت وحدات الأندلس تؤلف وحدها جيشاً خاصاً ، منفصلاً عن جيش المرابطين المؤلف من جند أفريقيا ، وسار بعدهم بيوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل في المساء في المحلة ( المعسكر ) التي يغادرها أمير أشبيلية في الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى ( أرطوشة ) على مقربة من بطليوس ولبثت هناك ثلاثة أيام » .

وعندما ترامت الأخبار بوصول المرابطين إلى مسامع القشتاليين ، وكانوا آنئذ يحاصرون سرقسطة ، عدلوا عن محاصرتها إلى التجمع والاستعداد للمعركة مع المسلمين . فسمى الفونسو إلى التحالف مع ملك أراجون ، والكونت ريموند ملك برشلونة ، وكان أولهما يحاصر طرطوشة ، بينما كان ريموند يحاصر بلنسية ، ففكا حصارهما عن تلك المدينتين ولَبَّيا دعوة ملك قشتالة وليون وكونوا جيوشاً ناهزت مائة وخمسين ألف رجل وفارس على أصح الروايات ، هذا وقد انضمت فرق من ولايات فرنسا الجنوبية ، لتقاتل في صف جنود الولايات الأسبانية ، ضد العرب الأندلسيين والبربر الأفريقيين . وقد تجمع من جنود المسلمين ما يناهز ثمانين ألف مقاتل وما يَرَبُو على خمسين ألف فارس . وعسكر الجيشان على مسافة غير بعيدة من بطليوس ، في سهل تتخلله الوديان والأحراش ، سَمَّى حسب الروايات العربية ( بالزَّلَاقَة ) أمَّا الروايات النصرانية فتسميه بـ ( سَكَّرَ إِيَّاس ) وكان يفصل بينهما نهر حجير . وذكر صاحب نفح الطيب أن يوسف بن تاشفين ، عجب من أمر الفونسو الذي بعث إليه يخبره فيه أنه سيكفيه عناء الجواز إلى بر الأندلس ، وأنه

سيأتيه من حيث لا يحتسب فرد عليه بقوله : « بلغنا يا أدقنث أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك وقد جمع الله بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وأعقب هذه الرسالة رسالة أخرى من يوسف إلى الفونسو يدعوه فيها إلى الإسلام أو الجزية ، فعظم هذا الأمر على الفونسو وكبر عليه مطلب ابن تاشفين هذا ، وهو السلطان الذي لا يقهر ، والذي تدفع الولايات الإسلامية له الجزية مضاعفة ، لشدة بطشه وصلابة عوده ، فكيف لهذا الغازي الأفريقي أن يطلب منه دفع الجزية ، ولما فطن إلى قوة الجيش الإسلامي وشدة بأسه ، فكر في حيلة نكراء وخدعة بلهاء ، وهو أن يفاجئهم في وقت يكونون مطمئنين ، قد ألقوا أسلحتهم وأمنوا جانب عدوهم .

فبعث إلى المعتمد برسالة في يوم الخميس يخبره فيها إن غداً يوم الجمعة عيد المسلمين ، وبعده السبت عيد اليهود ، ويتلوها الأحد وهو عيد النصاري ، ولهذا فإنه يحيطهم علماً بأن موعد النزال هو يوم الإثنين ، وهو يضم في سريرة نفسه ، كما أخبر جنوده أنه سيوجه الضربة الأولى لمعسكر المسلمين في صبيحة الجمعة ١٣ من رجب سنة ٤٧٩ هـ الموافق ٢٣ من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ولما وصل كتابه إلى المعتمد ابن عباد بهذا المضمون ، علم علم اليقين أن الفونسو سيباغتهم صبيحة الجمعة فأرسل على التو لجميع القواد ، أن يكون على استعداد في تلك اللحظة ، لأن عدوهم يريد أن يخدعهم بحيلته النكراء .

ويقول المؤرخ يوسف أشباخ : « ولكن الفونسو كان يرى وفقاً لمبدأ ذميم أنه يحق له أن يلجأ في الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع فسيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجيء العدو وليتمكن بعد ذلك من هزيمته ، ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ، وفي صبيحة يوم الجمعة انقض الجيش المسيحي بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك بمنتهى الصلف على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد » ، ويقول المؤرخ المذكور :

« وأمل الفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجيء الروح والاضطراب في صفوف العدو ، ولكن شدة ما دهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسى ، جيشاً من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارساً بقيادة داود بن عائشة ، وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم ، أجل لم يكن فى وسعه أم يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم ، وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطم من عنف هجمة النصارى ، وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى . »

أما الفونسو فقد داهم بجيشه جيش المعتمد بن عباد ، وثبت المعتمد ثباتاً منقطع النظير ، ثم كرّ الفونسو عليه بجموع هائلة وأحاطوه من كل جانب واستحضر القتال فلم تثبط عزيمته ، وإنما قاتل قتال المستميت وأبطأ يوسف فى نجدته حتى ظن أنه قد ترك وحده يلاقى ضربات الأعداء ولم يسع بعض أصحابه إلا الفرار من حوله ، ويقول المؤرخون إنه قد عقرت من تحته ثلاثة أفراس وأنه أصيب فى رأسه بضربة سيف فلقت هامته إلى صدغيه وكادت أن تقضى عليه ، وجرحته يده اليمنى ، ولكن العناية الإلهية شاءت له البقاء ، وكان يتلقى ضربات أعدائه ويكيل لهم أعنف منها ، وهو يترنم بهذين البيتين مخاطباً ابنه الصغير ، الذى تخيله أمامه فى ثبج المعمة ، وهو الذى تركه عليلاً بأشبيلية :

أبا هاشم هشمتنى الشفّار      ولله صبرى لذاك الأوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج      فلم يثننى ذكره للفرار

وهذه المعركة لا تقل شأنًا عن معركة تور ( بلاط الشهداء ) التى أوردنا ذكرها آنفاً ، بل تزيد عليها فى كثرة القتلى حتى أصبح ميدانها بركاً من الدماء ، وكثر فيها الضجيج العجيج والهرج والمرج ، وثار النقع حتى بلغ عنان السماء ، وسقط فيها آلاف مؤلفة من الجانبين . ولم يلبث داود بن عائشة أن انضم بجيشه إلى المعتمد فحمى ظهره ووضع عنه وزره وحمل عنه مهمة الصمود ، فتحول من الصمود إلى الهجوم ، ثم وافاهما يوسف بن تاشفين بجيش غاية فى البسالة فلقى العدو على حين غفلة منه ، بعد أن كان يمتنى نفسه بالنصر فزلزلت الأرض من تحت قدميه ، واحمرت

السماء في عينيه ، وكأنه في بحر لجى من فوقه موج من فوقه سحب إذا أخرج منه يده لم يكد يراها ظلمات بعضها فوق بعض ، فلم يسعه إلا الفرار إبقاء على من بقي من جنوده ، ولم يذرْه المعتمد يفلت من قبضته ، دون أن يكيل له ضرباته ، الصارمة فأسخنه ضرباً وأورده مورد الحمام وكان يتابع فلوله المنهزمة وهو يخوض في برك من الدماء ، حتى لم يبقَ منهم سوى بضع مئات لاذوا بالفرار مع قائدهم الذى أصيب بضربة سيف في فخذه نزف منها دمًا مدراراً ، لولا أن حمله أصحابه تحت جناح الظلام إلى ربوة عالية ، فعالجوه حتى قوى على السير فتابعوا الفرار إلى جهة نائية . ويقول الأستاذ على أدهم : « وأقبل المعتمد على يوسف فصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف مقامه وحسن بلائه وجميل صبره ، ولما انحاز الفونسو بشرذمته ، جعل ابن عباد يحرض على أتباعه ومطاردته وقطع دابره ، ولكن يوسف خالفه في ذلك وقال له لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين ، فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ، ويجتمعوا بنا ثم نرجع إليه ونحسم داءه .

وهكذا انتصر المسلمون في موقعة الزلاقة انتصاراً باهراً ، وسجل لهم التاريخ من الثبات والإقدام والجرأة ما شهد به الأعداء أنفسهم ، وقد تجلى في هذه المعركة إنكار الذات والتفانى في سبيل النصر ، أو الفوز بالاستشهاد دفاعاً عن الإسلام ، الذى كاد أن يحتضر في شبه الجزيرة الأسبانية . ويذكر المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ ، أن المرابطين قاتلوا عدوهم بشجاعة نادرة ، وكانوا يضطرمون شوقاً إلى الاستشهاد ، وأنهم كانوا يجدون في طلب الموت ، ليفوزوا بنعيم الخلد ، ويذكر المؤرخ أن النصارى قاتلوا في ذلك اليوم العصيب بإخلاص يضطرم للدين والوطن . وهذا الوصف الذى أوردته كتب التاريخ والأدب لهذه المعركة يؤكد لنا أنها كانت معركة دينية ، ويزيد على كونها معركة دينية بالنسبة للمسلمين ، أنها كانت معركة مصير أى أنها مسألة حياة أو موت .

وأقامت عساكر المسلمين بعد الفوز المبين أربعة أيام بأرض المعركة ، تجمع أثناءها الفنائم وتقتسمها فيما بينها ، ثم تواردت الأخبار على يوسف من أفريقيا

ب وفاة ابنه الأكبر أبى بكر سير الذى خلفه نائباً عنه أثناء جوازه إلى الأندلس ، فحزن عليه حزناً شديداً ، وسارع بالعودة إلى بر العدو تاركاً معظم جيشه بالأندلس يقوده قائده سير بن أبى بكر .

ولما عاد المعتمد ظافراً إلى أشبيلية هزته نشوة النصر فنظم قصيدة عصماء ، يفتخر فيها بشجاعة جنده وجنود المرابطين فى الحرب ، ويصف التحول العجيب فى سير المعركة ، وكيف استطاع الجيش المرابطى الظافر الانتقضااض على الأعداء ، وتشتيت شملهم وإبادة ضراغمهم فى وقت وجيز . ثم جلس ليستمع إلى قصائد الشعراء الذين جاءوا من كل حدب ينسلون ، أقبلوا مهنتين مادحين ، مبايعين له بيعة صادقة على مواصلة القتال حتى يستأصل شأفة الأعداء عن آخرهم .

وهذا ابن حمديس يقول من قصيدة طويلة موجّهاً خطابه إلى المعتمد :

ليهنىء بنى الإسلام أن أبتَ سالمًا	وغادرت أنف الكفر بالذل راعمًا
كشفت كرويًا عن قلوب كأنما	وضعت عليها من هواك خواتمًا
صبرت لحر الطعن والضرب ذائدًا	عن الدين واستصغرت فيه العظاممًا
رحمناك من وقع الصوارم والقنا	فكان لنا فى حفظك الله راحمًا
وكم شجة فى حر وجهك لم يزل	لك الحسنى فيها بالشجاعة واسمًا

ويشير ألى يوسف والجنود المرابطين بقوله :

نقمت على (*) من أسفوك بيوسف	( وأنت على ) من خالف الحق ناقمًا
وأذنت عمار القفار بحريهم	فيا قرب من شقوا إليك الخضارمًا
بنو الحرب غدتهم لسان ثديها	ولم يستطيعوا منه ولا العلاقما
يحثون للهيجاء جرداً سلاهبًا	وينضون فى البيداء بزلًا صلادمًا

ويقول الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن القراز موجّهاً خطابه إلى

المعتمد :

(\*) أى صبيت نقمتك على أعدائك بيوسف بن تاشفين .

جَلَبْتُ عَلَى الْأَعَادَى أُسْدَ غَابٍ      برائنها الأسنة والصُّفاحُ  
 وَقَفْتُ وَمَوْقِفُ الْهَيْجَاءِ ضَنْكَ      وفيه لباعك الرُّحْبُ انفساحُ  
 وَالسَّنةُ الْأَسْنَةُ قِثَالَاتُ      إذا ظهروا المؤيد لا يراحُ  
 وَقَالُوا كَفُّهُ جُرْحَتْ فَمَلْنَا      أعاديهِ توافقها الجراحُ

أما الشاعر عبد الجليل بن وهبون فيشير إلى يوسف وحسن بلائه في قصيدته الميمية الرائعة كما يشيد بالمعتمد وحسن مجادلته للأعداء فيقول فيها :

أظنُّ خُطوبَهَا قَالَتْ سَلَامُ      فلم يعبت لها منك ابتسامُ  
 وَثَارَ إِلَى الطَّعَانِ حَلِيفُ صَدَقْ      تشور به الحضيضة والذُّمَامُ  
 نَمَا فِي حِمْيِرٍ وَنَمَتِكَ لَحْمُ      وتلك وشائجُ فيها التحامُ  
 نَهَجْنَ لِسْبَلِهِ نَهَجًا فَوَاقَى      وفي آذيه الطَّامَى عَرَامُ  
 فَهَيْلَ بِهِ كَثِيبُ الْكُفْرِ هَيْلًا      وكل رقيقة منها رُكَامُ

ثم يقول للمعتمد :

وَأَنْتَ النُّعْمَةُ الْبَيْضَاءُ فَاسْلَمْ      لنا وليطرُدْ فيك التُّنَامُ

### دروس وعبر :

تلكم هي معركة الزلاقة التي أعقبت سقوط طليطلة معقل الإسلام في يد الفونسو السادس ، وقد كان لهذه المعركة صدى بالغ الأثر في العالم الإسلامي ، ففدا المسلمون مبهجين أشد الابتهاج بهذا النبا الذي أنساهم تلك الفاجعة العظمى ، التي سبقتها ، وهي سقوط طليطلة في يد أعدائهم وتهديد المسلمين بالإبادة .

ويمكننا تحديد بعض العوامل التي ساعدت المسلمين في الأندلس على إحراز النصر فيما يلي :

١ - إنهم نسوا الأحقاد والضعفان والحزازات التي مبعثها التعصب الأعمى لفئة ضد أخرى ، فالفينا عرب الأندلس يسارعون في استدعاء بربر أفريقيا لتحقيق

هدف أسمى وهو الصمود أمام العدو المشترك الذى يهدد بلاد المسلمين وينذرهم بالذل والثبور .

٢ - إنهم وضعوا نُصب أعينهم مبدأ الاتحاد قوة والتفرق ضعف مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ . ولذا بادرت جميع الإمارات المستضعفة فى أسبانيا المسلمة بالمساهمة فى إعداد جيش قوى لسحق عدوهم الجبار ، الذى حرّمهم النوم وأحال حياتهم إلى جحيم لا يطاق .

٣ - إن استشعار المسلمين بالخوف من الله تعالى ، إذا امتُهنت حرمة الدين جعلهم يسارعون فى تلبية إخوانهم فى الدين لدرء الخطر الذى كان يهددهم ، ولذلك رأينا يوسف بن تاشفين يعبر بجيش عرموم صلد إلى الجزيرة الخضراء تلبية لهذا النداء ، ناسياً مطامعه الشخصية وتطلعه إلى بسط نفوذه على الممالك والإمارات الأندلسية التى أضعفها تفرقها ، وانشغال أمرائها لإرضاء نفوسهم الجشعة عن مصالح الشعب .

٤ - إن الحرب التى كان يخوضها المسلمون فى الأندلس كما أسلفنا ، كانت حرب حياة أو موت ولذا أبدوا من البسالة ما يعجز القلم عن وصفه ، وأنهم كانوا يقاتلون وهم يضطرمون شوقاً إلى الاستشهاد فكانوا تطبيقاً علمياً لقول أبى بكر الصديق ( احرص على الموت توهب لك الحياة ) .

٥ - لقد قيل قديماً ( إن الحرب خدعة ) ولذا رأينا الفونسو يبعث برسالة يخدع فيها المسلمين ، حتى يمكنه الانقضاض عليهم انقضاض الوحش الكاسر على فريسته ، إلا أنهم كانوا أشد منه فطنةً وأبعد منه نظراً فأعدوا للأمر عدته رغم أنهم تظاهروا بتصديقه وترحيبهم بدعوته .

وقد خُدعنا فى بداية معركة سينا التى بدأها العدو بالضربة الأولى فى صبيحة اليوم الخامس من شهر يونيو ١٩٦٧ بعد أن أوعز إلى أنصاره بترويج الادعاءات الكاذبة بأننا سنكون المعتدين عليهم وذلك تمويهاً لما عقدوا العزم عليه .

### ماذا أعقب موقعة الزلاقة؟

إن معركة الزلاقة لم تكن المعركة الفاصلة بين العرب المسلمين والأسبان المسيحيين رغم عظمها وكثرة القتلى في الجانبين لأن رجوع يوسف بن تاشفين إلى مراكش كان ضربة قاضية لأمرء الأندلس إذ استطاع عدوهم الذي بلغت خسارته من الجنود المقاتلة ما يربو على ثلاثين ألفاً استطاع أن يسترد قوته ، وأن يجند أعداداً هائلة في وقت وجيز ، بينما لم يستطع المعتمد وغيره من الأمراء تعويض ما فقدوه في معركة الزلاقة وذلك راجع إلى الأسباب الآتية :

١ - استرداد أمرء الولايات التابعين لأشبيلية سلطانهم واستقلالهم عنها وعدم إمكان المعتمد محاربتهم أو بسط نفوذه عليهم سلمياً .

٢ - مُنيت أشبيلية بخسارة فائقة في جندها وعتادها ، لم تستطع تعويضه بعد انتهاء الحرب .

٣ - ظهرت نيات المرابطين في إسقاط حكومات البلاد الأندلسية والاستيلاء على عواصمها عنوة ، ممّا جعل الأمراء يلجأون إلى التحالف مع العدو الأجنبي لمحاربتهم وإجلائهم عن البلاد .

٤ - عدم موافقة يوسف بن تاشفين على ما طلبه منه المعتمد بجعله قائداً لجنود المرابطين حتى يمكنه استرداد قوته ومحاربة أعداء البلاد .

٥ - تأليب العامة وفقهاء الأندلس قادة المرابطين على الملوك والأمراء الأندلسيين لوضع حد للفساد الناتج عن استغراقهم في النعيم وترك مصالح الشعب جانباً .

### محاولة الاستيلاء على حصن لبيط المنيع :

أشرنا - إلى أن يوسف عاد إلى أفريقيا وهو يحمل الكثير عن أحوال البلاد الأندلسية ، وكان يمتنى نفسه بآمال كبار في بسط نفوذه عليها ، إلا أنه كان يتظاهر لأمرائها بالورع والتقوى والزهد في الدنيا ، والتزهد عما في بلاطهم من النعيم . وقد

هاله في قرارة نفسه ما في قصورهم من بذخ وإسراف ، وشد ما كانت دهشته حين شاهد ما عليه المعتمد بن عباد من دعة وترف ، وما يحفه من سندس وديباج ، وما يسامره من عازفات وما يطربه من قيان وندماء ، وما يهزه من شعر ، وما يحوطه من شعراء . حتى إذا وافته الفرصة السانحة كشف عن نياته التي كثيراً ما منى بها نفسه ، فأشعلها حرباً ضروساً بينه وبين من استدعوه لنجدتهم ، فمزقهم شراً ممزقاً ، وقتل من قتل منهم ، وحمل من حمل أسرى إلى أغمات وغيرها من بلاد الشاطئ الأفريقي .

وقبل أن نورد ما حدث بين يوسف والأمراء الأندلسيين نذكر شيئاً عن جوازه الثاني إلى بر الأندلس وكان ذلك في شهر ربيع الأول لسنة ٤٨١ هـ الموافق لشهر يونية من عام ١٠٨٨ م ، وذلك حينما تواترت الأخبار بانتعاش قوى النصارى ، وتهديدهم بلاد المسلمين واستغاثة المعتمد بن عباد به ، والذي خسر في موقعة الزلاقة زهرة جنده وفقد سلطانه على كثيراً من الولايات التي كانت تابعة له قبل تلك المعركة ، فلم يسعه إلا أن يسير إلى أفريقيا طالباً مساعدة يوسف له على أعدائه من الجانبين . وأن يعهد إليه بقيادة جيوش المرابطين في الأندلس ، حتى يتأتى له تحقيق ذلك الهدف ، ويقول المؤرخ الألماني يوسف أشباخ : « شد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلاً من أن يجيبه إلى طلبه رأى لكى يعوض ما خسر الإسلام في الزلاقة ويحقق له ظفراً جديداً ، أن يعبر في جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شيء ، وهكذا عاد المعتمد إلى أشبيلية وهو عالم بهذا العزم » .

وبعد أن جاوز يوسف المضيق إلى الجزيرة الخضراء بجيشه الضخم ، وجد المعتمد بن عباد في استقباله ثم توجهها تلقاء مالقة ثم إلى مرسية ، حيث طلب يوسف من الأمراء أن يوافوه بجيوشهم التي ستحاصر حصن لبيط المنيع ، « فخف الأمراء إلى تلبية دعوته وفي مقدمتهم المعتمد وتميم بن بلكين والى مالقة وأخوه عبد الله بن بلكين والى غرناطة ، ولأه بياسة وجيان ولوكة ومرسية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد ( يوسف أشباخ ) .

ويذكر المؤرخون أن تلك القوى الإسلامية التي تجمعت للاستيلاء على ذلك الحصن ، عانت عناءً شديداً دون جدوى من جرأ انقضاض الأعداء المحصورين عليهم فجأة من حين إلى حين ، ورأوا أنه من العبث تشديد الحصار على هذه القلعة المنيعه . ففكوا الحصار عنها لئلا يداهمهم ألفونسو بجيوش هائلة وهم منشغلون بمحاصرة الحصن .

هذا وقد ظهرت في أعقاب هذا الحصار بداية الانشقاق بين صفوف المسلمين ، إذ تدمر كثير من الأمراء المتاخمة حدود إماراتهم لحصن لبيط على ما قرره يوسف والمعتمد ، وذلك لأنهم سيكونون في مهب الريح الجارفة التي ستجتاح بلاد المسلمين ، فثاروا ثورة هوجاء وامتشقوا الحسام ضد هذين العاهلين ، ومن أبرزهم عبد العزيز ابن رشيق والى مرسية بعد ابن عمار ، فشهر سيفه للبطش بالمعتمد ، لولا أنه قبض عليه وشدد في اعتقاله ، إلا أن جنوده استطاعوا أن ينقذوه من المصير الذي كان ينتظره ، ففروا به إلى مرسية ، وقطعوا عن الجيش المرابطى المعونة ، وكان هذا دافعاً لأن يتفرق الجنود الآخرون في الميدان ، تاركين جنود المرابطين بغير زاد وقليل من العتاد ، ولم تكن جنود أشبيلية بأحسن حال من المرابطين ، فانحلت عزائمهم فتركوا عدوهم يجدد هجماته ويظفر بالفنائم والأسلاب ، وينقذ من بقى بحصن لبيط ثم يحطم أسواره ويتركه خراباً يباباً .

### خضوع أسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين :

إن انتصار يوسف بن تاشفين يوم الزلاقة رفع شأنه في العالم الإسلامي قاطبة ، وفي الإمارات الأندلسية خاصة ، وزاد تعلق الفقهاء والعامة به ، ثم تقشفه وحبّه للأئمة وتوقيرهم ، وأخذ مشورتهم وحذبه على الضعفاء والمساكين . كل هذا دفعهم إلى أن يؤمنوا به أميراً للمسلمين ومحرراً للبلاد من الغزاة والأمراء والسادة المتحكمين ، فقوى سلطانه وزادت هيئته في أعين الجميع ، وأصبح ذكره على كل لسان ، ولعل هذه الثقة دفعته إلى أن يطلب من الأمراء معاونته المادية لمدافعة الأسبان ، فكتب إلى صاحب المربة يطلب منه تقديم المعونة لهذا الأمر ، ذاكراً أن

عمر بن الخطاب سبقه في أخذ المال من المسلمين إلى بيت المال ، فكتب صاحبها إليه « أما بعد فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك وبأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس ، أفتوا بأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله وضجيعه في قبره ، لا يشك في عدله ، فليس أمير المؤمنين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه في قبره ، ولا ممن لا يشك في عدله . »

وهذا التحدى الذى لاقاه يوسف من الأمراء ، جعله يفكر في تحقيق أطماعه التى كثيراً ما ساورتها ، والتى لم يكشف القناع عنها آنفاً ، فعبر إلى أسبانيا متظاهراً أنه قد اعتزم مجاهدة النصارى ، وهو الجواز الثالث إلى بر الأندلس ( فى أوائل ٤٨٢ هـ ) ويقول المؤرخ يوسف أشباخ : « وسير قواته الضخمة التى عبرت من سبتة ، ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنوداً لمعونته ، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم ، وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفذ منها حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسير فرقاً من جيشه إلى مختلف المدن وسار بنفسه إلى غرناطة . »

وبعد استيلاء يوسف على غرناطة ( فى رجب سنة ٤٨٢ هـ - أغسطس ١٠٩٠ م ) بعث بصاحبها عبد الله بن بلكين مكبلاً بالأغلال إلى أغمات بالشاطئ الأفريقى ، وادعى أنه كان متحالفاً مع الفونسو عدو البلاد ، ثم أتبعه بأخيه تميم أمير مالقة . وأرسل أميراً أشبيلية وبطليوس سفيريهما إلى غرناطة لاستجلاء حقيقة الأمر ، وقد ذهباً متظاهرين بتقديم التهئة ليوسف بالفتح ، إلا أنه أعرض عنهما وجعلهما فى موضع حرج أمام جنوده « فعادا إلى أميريهما يضطرمان جزعاً وسخطاً . »

### نهاية دولة بنى عباد أعظم ملوك الطوائف فى الأندلس :

وأعقب استيلاء يوسف على غرناطة عبوره إلى سبتة تاركاً لقائده سِير بن أبى بكر مهمة القضاء على أمراء الأندلس ، وكان عبوره يستهدف إمداد الجيش

المرابطى بما يحتاجه من العدد والعدد . وكان قد أمر بتسيير أربعة جيوش فى وقت واحد للقضاء على الإمارات الأندلسية وبسط نفوذه عليها ، وكان أقوى هذه الجيوش الأربعة بقيادة سير بن أبى بكر ، ليتجه إلى أشبيلية وبعد ذلك إلى بطليوس .

أما الجيش الثانى فكان بقيادة عبد الله بن الحاج ، وقد أصدرت له الأوامر بالتوجه لتقاء قرطبة وكان واليها الفتح الناصر أحد أبناء المعتمد بن عباد . وكان الجيش الثالث بقيادة جرور اللمتونى يزحف نحو أرض رُنْدَة ، وكان يلى أمرها آنئذ الراضى بالله الابن الثانى للمعتمد . وزحف الجيش الرابع بقيادة أبى زكريا بن غانية واستولى على المريّة ( فى رمضان سنة ٤٨٤هـ ) وكان أميرها المعتصم بن صمادح صديق المعتمد الحميم ، ولم يمضِ عام واحد حتى استطاع المرابطون تصفية ملوك الطوائف فى الأندلس ، فقتلوا منهم من قتلوا ، واقتادوا منهم كثيراً من الأسرى إلى بر العدو بالشاطئ الأفريقى .

أما الجيش الذى اتجه نحو أشبيلية فكان أقوى الجيوش الأربعة عدداً وعدة ، حيث زحف للقاء جيوش المعتمد دون أن يعلن قائده عن نية المرابطين ، فتأهب المعتمد للصمود أمامهم واشتبك معهم فى عدة معارك ، إلا أنه كان أقلّ منهم عدداً وأضعف منهم عدة ، وقد شتتوا مجهود رجاله ليقاتلوهم فى عدة معارك فى آن واحد ، مما عجلّ بالقضاء على قوى الجيش الأشبيلى ، فاستسلمت جيان ثم انضم سير إلى القائد جرور اللمتونى الذى كان يحاصر قرطبة آنئذ ، فتمائلت المدينة للتسليم ( سنة ٤٨٤هـ ) بعد أن وعدها جرور بعدم المسام بالنفس والمال والولد والعرض ، وما إن استسلمت حتى نكث بعهده ، ومثّل بمن فيها أبشع تمثيل ، وقد زاد عمّا فعله القائد الأفريقى هانيبال إزاء الرومان من قبل . ( كما يقول المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ ) فقتل من قتل ، وأمعن الغزاة فيها نهباً وسلباً ، وكان بين القتلى ولد المعتمد الباسل الفتح المأمون ، وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله والى رُنْدَة ، وكان مقتلهما عقب أخذهما انتهاكاً لكل ذمام وإنسانية .

وقد انحصر سلطان المعتمد على مدينتى أشبيلية وقرمونة ، وفى نفس الوقت الذى كان يحصّن فيه هاتين المدينتين ، كان المرابطون قد استولوا على قلعة رباح ،

وتوغلوا في أجزاء شاسعة من الدولة القشتالية النصرانية . وعندئذ استغاث المعتمد بالفونسو للتحالف معه ضد المرابطين ونسي كل منهما ما كان بينهما من عداوة ومشاحنات وحروب طاحنة . ثم سقطت قرمونة في يد المرابطين ، ولم يبق للمعتمد من أمل سوى نجدة النصارى له ، فاشتبكت الجنود التي سيّرها الفونسو مع المرابطين على مقربة من قرطبة ، ثم نشبت بينهما معركة دموية رهيبة انتهت بانتصارات المرابطين الماحقة عليهم ، وهذا الأمر عجل بمحاصرتهم لأشبيلية وجعلها تحت رحمتهم .

وتختلف الروايات في ( الكيفية ) التي استسلمت بها أشبيلية ، فبعضها يقول بأنها استسلمت للمرابطين ، وبعضها يقول بأنهم دخلوها عنوة ، والأرجح هو القول الأول ، وذلك بعد أن - قطع المرابطون عهداً على أنفسهم بتأمين المعتمد وآله وشعبه في النفس والمال والولد ، وكان سقوطها في رجب سنة ٤٨٤هـ الموافق سبتمبر ١٠٩١م ، ويصف المراكشي في كتابه<sup>(١)</sup> المعجب ذلك الموقف الضئيل الذي وقفه المعتمد بقوله « فبرز المعتمد من قصره وسيفه بيده ، وغلالته ترفاً على جسده لا درقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الدرج فارساً من الداخلين شاكياً السلاح فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغلالته وخرج من تحت إبطه ، وعصمه الله منه ، ودفعه بفضلة عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعاً ، والتأمت الحال أياماً يسيرة إلى أن ورد الأمير سير بعساكر متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس في خلال هذه الأيام خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ويعبرون النهر سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة ، والموفون بالمعهد المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة من رجب من السنة المذكورة ( ٤٨٤هـ ) وهذا هو يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حسم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباده . »

(١) نقلاً عن تاريخ المرابطين والموحدين للمؤرخ الألماني يوسف أشباخ .

ويصف الفتح<sup>(١)</sup> بن حاقار في كتابه فلائد العقيان ذلك 'اليوم الرهيب الذي سقطت فيه أشبيلية . وما أعقبه من انتشار الدعر في المدينة وما حدث من أعمال السلب والنهب التي قام بها رجال البربر المدججون بالسلاح . وكيف استولوا على قصر المعتمد بما فيه من نفائس . ثم يصف وقفة المعتمد البطولية التي كان يدافع أثناءها أعداداً هائلة من جنود البربر بمفرده . فيقول « وما زال يوالى عليهم الكر حتى أوردتهم النهر وما بهم من جواد . وأودعهم حشاه كأنه لهم فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله . وهاب ملكه وارتحاله . وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته سانحاً لحوزته . دافعاً للذل عن عزته . وقد عزم على أفضح أمر ، وقال بيدي لا بيد عمرو ، ثم صرفه ثقاء عما كان يواه . ففرل من القصر بالقسر إلى قبة الأسر . فقيد للحين ، ولاح له يوم شر ما ظن أنه سيحير . ولما قيدت قدماء وبعد عنه رقة الكبل ورحماء قال يخاطب أسره

إليكَ فلو كانت قيودُك أسعرت      تضرّم منها كل كُفٍّ ومعضم  
مخافة من كان الرجال بسيبه      ومن سيفه في جنةٍ أو جهنم

وهكذا انتهت دولة بني عباد إلى هذه النهاية المحزنة . . فحمل المعتمد وآله أسرى إلى أغصات بالمغرب ، وهم يرسفون في الأغلال ويدوقون من العذاب والحرمان ، ما لم يدّر بخلدِهم قبل ذلك المآل . ونهبت قصورهم التي ملئت بالنفائس من كل الألوان ، ومن التحف ما يعجز عن وصفه اللسان ، وهنا جاشت عاطفته ووافته قريحته فانفجر شعراً راثياً حاله

لما تماسكتِ الدُمُوعُ<sup>(٢)</sup>      تنهّته القلبُ الصُّرُوعُ  
قالوا : الخُضوعُ سياسة      فليبدُ منك لهم خُضوعُ  
والذُّمُّ من طعم الخُضوعِ      على فمِ السُّمِّ النقيعِ  
إن تَسْتَلِبِ مِنِّي الدُّنَا      ملكي ويسلمني الجموعُ

(١) نقلاً عن تاريخ المرابطين والموحدين للمؤرخ الألماني يوسف أشباخ

(٢) مختارات من الشعر الأندلسي لـ د. د. نيكل

لم أَسْتَلْبُ شَرْفَ الطَّبَّاعِ      وَيُسَلِّبُ الشَّرْفُ الرَفِيعُ  
 قَدْ رُمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ      الْأُتْحَاحُ صُنْنِي الدُّرُوعُ  
 مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَالِ      وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ  
 شَيْمُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ      وَالْأَصْلُ تَتْبَعُهُ الْفُرُوعُ

وقد وقى للمعتمد شعراؤه المخلصون فبكوا زوال دولته . ورثوا لحاله وحال أسرته ، وأرسل شعْرهم على كلِّ لسان فتناقلته الأجيال على مر الزمان ، يحكى قصة الفجيعة العظمى التى حلت بهذه الأسرة ، التى كانت كعبة الشعراء والأدباء والفقهاء ، ومنارة الجود والمرؤات العربية ، ومنبت الشعر والفن وقد كانوا ملوكا عظماء ، يحبون رعاياهم ويجلُّون علماءهم ، ويوفون بالعهد لمن عاهدهم من أعدائهم .

ومن الشعراء الذين بكوا زوال بنى عباد الشاعر القدير أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة والذى رثاهم فى قصيدته الشهيرة التى يقول فيها :

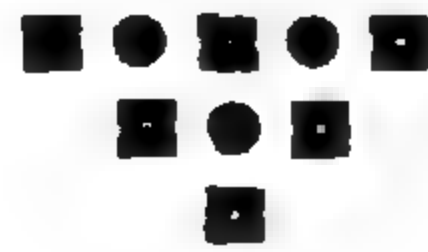
تبكى السماءُ بمُزْنِ رَائِحِ غَادِي      عَلَى الْبِهَائِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادِ  
 عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قِوَاعُهَا      وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ  
 عَرِيسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَى      أَسَاوِدٍ لَهُمْ فِيهَا وَأَسَادِ  
 وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الْأَمَالُ تَخْدُمُهَا      فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفَ فِيهَا وَلَا بَادِ  
 يَا ضَيْفَ أَهْضَرِ بَيْتِ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ      فِى لَمْ رُحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ  
 وَيَا مَوْمِلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَ سَكْنُهُ      خَفَ الْقَطِينُ وَجَفَ الزَّرْعُ بِالْوَادِي  
 وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلْتَ      تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهَا وَأَعْدَادِ  
 الْقِرَاسُلَاحَ وَخَلَّ الشَّرْفُ فَقَدْ      أَصْبَحَتْ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغِ الْعَادِي  
 لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تُخَلِّفْ لَهُ عِدَّةً      وَكُلُّ شَيْءٍ لِمَيْقَاتٍ وَمِيعَادِ  
 إِنْ يُخْلَعُوا فَبِنُو الْعِبَّاسِ (\*) قَدْ      وَقَدْ خَلَّتْ قَبْلَ حَمَصِ أَرْضِ بَغْدَادِ  
 خُلِعُوا      سَيَقُوا عَلَى نَسَقٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِ

(\*) يقصد تغلب العنصر الفارسى والتركى على خلفاء العباسيين .

حموا حريمهمو حتى إذا غلبوا  
فويق دهم لتلك الخيل انداد  
وأنزلوا في متون الشهب واحتملوا  
وصارخ من مفدأة ومن فادي  
حان الوداع فضجت كل صارخة  
كانها إبل يحدو بها الحادي  
سارت سفائنهم والنوح يصحبها

ويمر ابن اللبانة بعد النكبة بأحد أبناء المعتمد الملقب بفخر الدولة ، وهو الذي كان يُعده والده للحكم من بعده ، يمرُّ عليه ابن اللبانة وهو يعمل بدكان صائغ في أغمات بالمغرب فيهُوله ما صار أمره إليه ، وتسود الدنيا في عينيه ، فيرسل زفراته شعراً مؤثراً يقول فيه :

أذكى القلوب أى أبكى القلوب دماً  
وعقد عروتنا الوثقى قد انفصماً  
أفراد عقد المنى مناً قد انتثرت  
والرزء يعظم فيمن قدره عظماً  
شكأتنا فيك يا فخر الهدى عظمت  
ضاقت عليك وكم طوقتنا نعمة  
طوقت من نائبات الدهر مخنقة  
من بعد ما كنت في قصر حكى إرماء  
وعاد كوثك في دكان قارعة  
لم تدرك إلا الندى والسيف والقلماء  
صرفت في آلة الصواغ أنملة  
فنستقل الثرياً أن تكون فما  
يد عهدتك للتقيل تبسطها  
ولا تحيف من أخلاقك الكرماء  
ما حطك الدهر لما حط من شرف



## معركة أقليش أو ( أقليج )

( ٥٠١هـ - ١١٠٨م )

يعتبر كثير من المؤرخين المسلمين جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس إنقاذاً للإسلام الذى كان يحتضر فى شبه جزيرة أيبيريا ، كما يعتبرون تغلبه على ملوك الطوائف وبسط سلطانه على ممالكهم تجديداً لجذوة الإسلام فى تلك البلاد . ويوسف بن تاشفين هو أحد الرجال الأفذاذ الذين اصطفتهم يد القدرة لتغيير سير الحوادث فى التاريخ ، فجمع شمل بربر أفريقية الذين كانوا ممزقين شر ممزق ، وكوّن منهم مملكة عظيمة مترامية الأطراف ، وأضاف بحروبه فى أسبانيا ضد المسلمين والنصارى ( ومن أجلها معركة الزلاقة ) وأضاف إلى رقعة مملكته ممالك أخرى جعلتها تمتد من المحيط الأطلنطى غرباً إلى مصر شرقاً وفى أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب نهر الوادى الكبير وفى أفريقيا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى شمالاً إلى نهر النيجر وساحل العاج جنوباً .

وبعد أن آل أمر الأندلس إلى المرابطين واستتب لهم الأمر ، جاز يوسف المضيق إليها حاملاً بين طياته كثيراً من المخططات التى ستوطد حكمه لتلك البلاد وكان ذلك فى سنة ٤٩٦هـ ( ١١٠٣م ) أى بعد استرداده بلنسية من الأسبانيين ، فلم يكن عبوره استعداداً للحرب والنزال ، وإنما كان يستهدف إدارة شئون البلاد المفتوحة إدارة حسنة ، واصطحب معه ابنه أبا الطاهر وعلياً أبا الحسن ، وكان يؤثر ابنه الأصغر علياً لا اعتقاده أنه هو الأحق بالرعاية والعناية ، لما كان يتوسم فيه من المواهب والخلال التى تؤهله لولاية الأمر بعد والده .

وما إن عبر يوسف المضيق حتى اتجه تلقاء قرطبة حيث جمع العلماء والفقهاء ووجهاء القوم ، وأعلن قبيهم أنه عهد بالإمارة من بعده إلى ابنه على ، فبايعوه على

---

ما عقد العزم عليه ، وكتبوا بهذه المبايعة وثيقة توضح شرح النقاط الأساسية المتعلقة بولى العهد ، وما يسند إليه من الأمور .

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التى بوع بمقتضاها ، وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا ، وشهد على ذلك الحاضرون بالأصالة عن أنفسهم وبالنسبة عن الفائين وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوعة لولاية العهد وقبلها ، أمضى له الكاتب إشهاداً بذلك ، وكان إعلان هذه البيعة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦هـ ( ١١٠٣م ) وقد اتخذ يوسف كل الاحتياطات التى من شأنها أن توطد لابنه من بعده قدميه ، وأن تقوى عضده إزاء كل عقبة تعترضه ، شأن كل سلطان محنك لا يريد أن يفارق الدنيا من غير أن يورث من بعده خلفاً يرفع ذكره ، ويثبت دعائم أسرته فى الحكم . ولما انتهى يوسف من تنظيم شئون الأندلس عاد إلى أفريقية ، حيث بقى فى الحكم بضعة أعوام ولكن داء الشيخوخة تغلب عليه ففاضت روحه إلى بارئها « فتوفى فى قصره بمراكش فى المحرم سنة خمس مائة ( سبتمبر / ١١٠٦م ) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلال الأعمال » .

وبعد وفاة يوسف بُودى بابنه على أميراً للمسلمين ودُعِيَ له فى الصلاة فى سائر مساجد أفريقية والأندلس ، ولم يتخلف عن البيعة سوى أهل فاس الذين كان يلى أمرهم ابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، فسار إليهم وقتلهم حتى أذعنوا لسلطانه راغمين . ولم يكن الأمير على جاوز الثانية والعشرين من عمره حين ولى الأمر بعد وفاة والده . إلا أنه كان فتى جريئاً مغامراً أنوفاً ، وقد سار على نهج والده فى الاستعانة برجال الدين وأخذ مشورتهم عندما يشكل عليه أمر من الأمور . فيقول المؤرخون فى حقه إنه كان ذا صفات حميدة وخلال نبيلة وسعة أفق ورقة طبع .

وعبر على إلى أسبانيا عدة مرات كان أولها لاستتباب الأمن وترسيخ قواعد حكمه للبلاد الأندلسية ، وتجديد البيعة له فى أنحاءها . وفى عام ٥٠١هـ ( أواخر

عام ١١٠٧م ( أى مشارف عام ١١٠٨م ) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ « بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان ، بكل ما وهب من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر الذى عينه والياً لأشبيلية ، فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجهاً إلى حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة فى أن يدلل فى الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لو شاء ذلك أبوه ، وحالت دون تقدمه فى قلب قشتالة قلعة أقليش ( أو أقليم ) المنيعه فضرب حولها الحصار فى الحال » .

وفى هذا الوقت بلغ الملك الفونسو السادس أزدل العمر ، فحالت الشيخوخة بينه وبين مدافعة أعدائه عن البلاد فرأى نزولاً على رأى بطانته ، أن يرسل إلى الميدان ابنه الوحيد سانشو ، ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن سانشو لم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره آنئذ ، وقد أرسل معه من الرجال الذين يثق فيهم ليكونوا عوناً له فى حله وترحاله .

ولما - تراءت الفئتان تردد أبو الطاهر فى منازلة أعدائه وأراد أن يرتد رافعاً الحصار عن القلعة الحصينة ، حتى لا يورط جيشه فى معركة لا يعرف مداها ، إلا أن المرابطين ألحوا عليه بعدم الارتداد ، ونصحوه بأن يخوض معهم معركة حياة أو موت ، لأن ارتداده سيتيح لأعدائه اصطلام جيشه عن آخره ، ولأنه قد سُدَّت أمامه جميع السبل إلى الفرار ، ويصف لنا المؤرخ المذكور تلك الموقعة بقوله « وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين فى فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد ، رغم شجاعتهم ورياسة جأشهم ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى شانسو فى قلب المعركة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت غرسيه ملكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ، ويحاول إنقاذه ما وسعه الجهد ، فلم يغن دفاعه شيئاً وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة وما كاد يذاع بين النصارى أن شانسو قد

سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشناتاً وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش وسقط في ميدان الحرب عشرون ألفاً من النصاري وسبعة من كونتات قشتالة ،

### دروس وعبر :

هذا هو الوصف الموجز لأحداث معركة أقليمش التي انتصر فيها المرابطون في عام ٥٠١ هـ وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر مايو ١٠٨٠ م . وقد اعتبر المؤرخون هذه المعركة ذروة انتصار المرابطين في أسبانيا ، إذ بدا نجمهم بعد هذه المعركة يأخذ في الأفول شيئاً فشيئاً ، حيث أخذت الثورات تمزق هذه الأمبراطورية في أنحائها الشاسعة حتى انتهى سلطانهم تماماً وقامت بعدهم دولة الموحدين .

ومن هذه المعركة يمكننا أن نستخلص النتائج التالية

١ - إن أيلولة الأمر إلى يوسف بن تاشفين في الأندلس وشمال أفريقية جعل من دولته دولة قوية الجانب . يهابها الأعداء ويخشون بأسها وذلك راجع إلى كياسته وحزمه وعزمه

٢ - إنه قد أحسن اختيار خلفه من بعده وأمكنه أن يترك من يسد الثغرة التي ستشق بعد وفاته وقد سقاه من المعين الذي شرب منه ودربه على جميع المسئوليات التي كانت منوطة به .

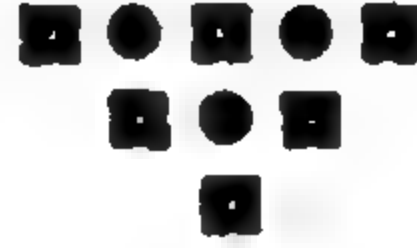
٣ - إن انتصار المرابطين في معركة أقليمش كان من أسبابه ما يأتي :

( أ ) قوة العزيمة الصادقة والشعور بالثأر ممن عاشوا في بلاد المسلمين وأحالوها إلى أنقاض ومثلوا بمن فيها أبشع تمثيل .

( ب ) انتهاء نوازع الفرقة والشحناء بينهم وذلك بالقضاء على ملوك الطوائف ومحو الأسباب التي كانت تشعل الفتنة بين العرب والبربر في الأندلس .

(ج) إن معركة أقليش كانت معركة انتحارية بالنسبة للمسلمين لأنهم كانوا قد كدهم النزاع شهوراً طوالاً ، وأجهدهم الجهاد ، ووقفهم أمام تلك القلعة فى حالة استعداد دائم ، وتاهب مستمر لدخولها ، وعدم إمكانهم الحصول على الإمدادات ، ولم تكن المؤن طوع إرادتهم كل هذا دفعهم إلى أن يستमितوا فى القتال ، سيما وأنهم قد جابههم عدوهم من حيث لم يحتسبوا ولم يتح لهم فرصة للفرار .

( د ) إن الأمير على قد أحسن اختيار القائد الذى أمكنه قيادة الجند وتحقيق انتصار ساحق على الأعداء وذلك بدافع إبراز الذات والتدليل على أحقيته ( أى أبى الطاهر ) بأنه أهل لمسئوليات أجل من مسئولية خوض معركة فقط .



## حروب النصارى الأسبان ضد المسلمين من معركة أقليش حتى قيام دولة الموحدين

### الحروب الصليبية فى أسبانيا ،

بعد وفاة الملك الفونسو السادس لم يظهر فى أسبانيا المسيحية ملك يضاهيه سوى الفونسو الأرجونى أو الفونسو المحارب ، وهو الذى خلف أخاه ( بيدرو ) على عرش أراجون سنة ١١٠٥ م ، ولا يعتبره المؤرخون نِدًا لألفونسو السادس فحسب بل يزعم بعض المؤرخين الأوربيين أنه أقوى شخصية ظهرت على مسرح الأحداث ، فى تلك الحقبة من التاريخ منذ عهد ( بلايو ) مؤسس أول إمارة مسيحية فى أسبانيا عقب فتح العرب لها .

وقد سبق هذا الملك سلفه بيدرو الذى عاهد البابا وملوك أوربا الآخرين على إشعال نار حرب صليبية ضد المسلمين فى أسبانيا المسلمة ، فى الوقت الذى كانت حملات الصليبيين تتجه صوب المشرق العربى لأول مرة ، فحاصر سرقسطة وأراد الاستيلاء على بلنسية إلا أنه أخفق فى ذلك المأرب . وقد تُوِّج ألفونسو الأراجونى بعد وفاة أخيه باعتباره الوارث الشرعى الوحيد من بعده ، وعمل منذ تولّيه الحكم على تحقيق ما أخفق فيه سلفه ، وهو الاستيلاء على سرقسطة ، وزحفت قواته تجاه تطيلة فاستولت عليها فى سنة ١١١٠م ( رجب ٥٠٢ هـ ) بعد أن أبلى أهلها بلاءً حسنًا ، بقيادة المستعين بالله بن هود أمير سرقسطة الذى سقط شهيداً بعد جهاد جهيد وصبر عنيد . إلا أن خلفه عماد الدولة استطاع استعادة هذه المدينة بمساعدة المرابطين الذين بثوا الرعب فى قلب أسبانيا النصرانية وهددوا عاصمتها طليطلة ، واستولوا على كثير من المعاقل الحربية وعلى مدن مجريط ومريد ووادى الحجارة وطليطلة وغيرها . وفى نفس الوقت الذى كان على بن تاشفين يزحف تجاه طليطلة ، كان المرابطون بقيادة الأمير سِير بن أبى بكر يقاتلون فى البرتغال أميرها الكونت

---

هنرى ، وافتتحوا عدة مدن بها وهددوا قلمرية العاصمة . وفى نفس الوقت أيضاً كان جيش ثالث بقيادة والى مرسية قد حاصر برشلونة مدى عشرين يوماً ، ولم يرفع المسلمون الحصار عنها إلا بعد أن فوجئوا بالفونسو فى جيش زاخر ، فاشتبكوا معه وأثخن كل منهما فى الآخر دون أن يحرز أى منهما انتصاراً على عدوه ، ففادرها المسلمون بعد أن عاثوا فيها .

وهكذا استمرت الحرب سجالاً بين الفريقين فهى بين مدٍّ وجزر دائمين . وكان كل من الأسبانيين والمرابطين يحاول أن ينتهز الفرصة السانحة للقضاء على خصمه . ويسجل التاريخ أن الأعداد العسكرية كانت ترد إلى أسبانيا المسيحية من جميع دول أوروبا الأخرى ، طمعاً فى نيل ثواب الجهاد ضد المسلمين وأملأ فى جمع الغنائم ، بعد أن يعيشوا فى كل مدينة يستولون عليها ، ويأتون على ما فيها ومن فيها فلا يتركون فيها أخضر ولا يابساً . ويقول المؤرخ يوسف أشباخ « وفى سنة ١١١٤م ٥٠٨ هـ سار الكونت برش إلى تطيلة فى قوة من الفرسان الفرنسيين والإنجليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ، ولتحقيق المغنم الدنيوية ، واستولى عليها بالخدعة وأقطعه الملك إياها على جزية ، ورغب النصارى فى سكنها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوجد عليها كثير منهم فى وقت قصير » .

### سقوط سرقسطة ثانياً معاقل المسلمين فى الأندلس بعد طليطلة :

كان الفونسو الأراجونى يمتنى نفسه دائماً بالاستيلاء على سرقسطة ، كما كان سلفه الفونسو السادس يتطلع إلى الاستيلاء على طليطلة من قبل . لأن سرقسطة ذات موقع استراتيجى هام ، ولأنها كانت تعتبر مفتاح البلاد الإسلامية الأخرى ، لا سيما وأنها واقعة على نهر إيبرو الذى لا يستطيع الفونسو الاستغناء عنه فى الملاحة ، وقد عجل الخلاف الذى دب بين أميرها عبد الملك بن هود وأمير المرابطين فى الأندلس أبو محمد عبد الله بن مزدلى ، عجل بتحقيق أمنية الفونسو ، إذ انسحب ابن هود إلى قلعة روطة ، على أثر الخلاف الذى نشب بينهما وتحالف مع أعدائه ضد المرابطين ، فاستولى الأسبانيون على سرقسطة ولا ردة فى سنة ٥١٢ هـ ، ١١١٧م ، وطبقاً للاتفاق المعقود بين ابن هود والفونسو سلّمت المدينة لابن هود بعد أن

أمنًا جانب عدوهم المشترك ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الحليفين فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين ، وحاصر الفونسو سرقسطة بقوة هائلة من الجند ، حتى إذا استيأس أهلها وظنوا أنهم لا محالة واقعون في قبضة عدو لا يرحم ، ففاوضوه في أمر التسليم على أن يؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، فقبل ذلك منهم فدخلها وعاث فيها وضرب بالعهد عرض الحائط ، ففر من فر وبقى من بقي ، انتظاراً لمصيره المؤلم . وهكذا انهار ثانی معاقل المسلمين في أسبانيا ، بعد أن لبث في قبضتهم أربعمئة عام ، وحول مسجد سرقسطة الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزاً للأسقفية واتخذت عاصمة لمملكة أراجون . وكانت قد نشبت بين المسلمين والأسبان معركة دموية رهيبة عند قلعة أيوب ، تغلب فيها الذعر على اليقين والثبات ، فاستسلم المسلمون لأعدائهم بعد أن ترامت إلى أسماعهم أنباء الفاجعة العظيمة ألا وهي سقوط سرقسطة في قبضة الفونسو .

ويقول يوسف أشباخ « وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى أسبانيا في سنة ١١٢١م وهو يضطرم المأ للذه المحن ، وغزا أراضى طليطلة والبرتغال وأثخن فيها ، واستولى على قلعة قلمرية الهامة وأتى على جميع سكانها النصراني قتلاً وأسراً ، وهي واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية ، بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تعويضاً زهيداً لما أصاب الإسلام ، ويذكر المؤرخ المذكور أنه منذ ذلك الحين بدأ طالع المرابطين يقرب شيئاً فشيئاً .

### ظهور أبو عبد الله بن تومرت ( المهدي ) مؤسس دولة الموحدين :

هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن تومرت ، ينتسب إلى قبيلة مصمودة من قبائل المغرب العربية وقد ظهر هذا الرجل في عهد على بن يوسف بن تاشفين ، وقد تتلمذ على يد الإمام أبي حامد الغزالي ( حجة الإسلام ) وروى ظمأه من ينابيع علمه الفزير ، وحمل رسالته من بغداد إلى المغرب الأقصى ، حملها بلسانه أولاً ثم حملها بسيفه ثانياً ، انتصافاً ممن أساءوا إلى إمامه الأشهر ، فقد سمى العلماء والفقهاء لدى الأمير على وأكدوا له أن كتاب الإمام الغزالي ( إحياء علوم الدين ) ناشز عن السنة المحمدية ، فأمر بإحراقه أينما وجد ، وقد تأثر الإمام

الغزالي رحمه الله حين بلغه ذلك الخبر ، فرفع يديه إلى السماء وهو يقول ( اللهم مزق ملكهم كما مزقوه . وأذهب دولتهم كما أحرقوه ) ويقال أن ابن تومرت رجا الإمام أن يدعو الله أن تتحقق هذه الدعوة المستجابة على يديه ففعل .

ولما عاد أبو عبد الله إلى مراكش ، التقت حول دروسه جمهرة المصلين ، في كل مسجد يحل به ، وكان لا يخشى غضب ولي الأمر فيما يوجهه إليه وإلى أتباعه من نقدات ، حتى إنه لم يأبه بقدوم الأمير إلى المسجد لأداء الصلاة ، ولما حاول سدنة المسجد أن يلفتوا نظره إلى التأهب للقائه غض بصره ، كأن الأمر لا يعنيه وقرأ قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ وأخذ يشرح هذه الآية في ثبات ورباطة جأش ، وقوة عقيدة ورسوخ إيمان . ولما أن هم الأمير بالخروج لم يسرع إلى تقبيل يديه ، وإنما دعاه بلفة عنيفة أن يرفع الظلم عن المظلومين ويقضى حوائج المعدمين . وأن يزيل الحجاب بينه وبين الرعية وحسب الأمير أن هذا ولي من الأولياء الصالحين ، لا ينبغي مؤاخذته فيما يقول .

ولكنه بعد أوبته إلى قصره اهتم بأمره أيما اهتمام ، حتى أصبح شغله شاغل لما زاد تعلق الناس به في المساجد وفي الميادين العامة ، حيث كان يحمل حملة شعواء على البدع والملاذ الدنيوية وبعد الناس عن أوامر الدين ، ونواهيهِ وعدم اهتمام الأمراء برعيتهم ، فاستشار مستشاريه في أمر هذا الرجل فتصحوه بأن يزج به في غياهب السجن ، قبل أن يستفحل شأنه ويأتى اليوم الذى يستطيع فيه قيادة الجماهير ضده ، ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض هذا الرأي ، وكان أثر الكلمة عنده ، وكان يرى عدم الاهتمام بأمره لأنه كان يعتبره رجلاً حقيراً يؤلب العامة على الأغنياء ، ورأى أن دعوته لا تلبث أن تخمد جذوتها ، ولا خوف على الإمارة أو ولي الأمر منه ، إلا أن الأمير رأى إبعاده عن مراكش اتقاء لشره ، ولكن إلى حين ثم عاد الأمير إلى تشديد النكير على هذا الداعية ، وواجهه بالعلماء والفقهاء الذين يجالسونه ويستفتيهم في شتى الأمور ، وحاول أن يتقلب عليه بالحجة بعد أن أخفق في التغلب عليه بالنفى والمطاردة ، إلا أنه لم يجد بداً من العودة إلى السبيل الأولى ، وهى استعمال أقصى أنواع القهر والحرمان والتشريد ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ

« وما إن بدأت مطاردة أبى عبد الله بن تومرت على هذا النحو حتى كُتب النجاح لقضيته ، ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع منعزل ، بقرب مراكش وابتنى له كوخاً بين القبور ، فهُرِعت إليه جموع غفيرة من الناس ، تطلب الاستماع إليه ، والتقى حوله ألف وخمسمائة رجل ، كانوا على استعداد دائم لأن يعملوا كل شئ ، وأن يحتملوا كل شئ في سبيل أستاذهم وسيدهم » ومنذ ذلك الحين أخذت جذوة الثورة التى أشعلها ابن تومرت تزداد شيئاً فشيئاً . ولما أحسَّ الأمير على بهذا الخطر الداهم ، أصدر أوامره بالقبض عليه وإعدامه قبل أن يستشرى داؤه فى البلاد ، غير أن أبا عبد الله فطن إلى ما اعتزمه الأمير ففر هارباً تلقاء مدينة تينمل ، حيث تحصَّن بها وأعلن أنه المهدي المنتظر ، الذى ورد اسمه فى الحديث الشريف وأنه منقذ الإنسانية من جور الحكام وفساد حكمهم ، وبايعه على أداء رسالته عشرة من تلاميذه الأصفياء ، تحت شجرة خرنوب تيمنا ببيعة الأنصار والمهاجرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة التى ورد ذكرها فى سورة الفتح . ثم بايعه من الدرجة الثانية خمسون رجلاً ، ومن الدرجة الثالثة سبعون رجلاً وكوّن حكومة لها نظامها الخاص .

وولّى العشرة المصطفين مقاليد الحكم فى دولته وأوكل إليهم الأمور الجسام ، وقد تكاثر أشياعه وزادوا على عشرين ألف رجل ، وقد تخيّر منهم للحرب عشرة آلاف رجل ، واتخذ له راية بيضاء وهى على عكس راية المرابطين . وكان على ابن تاشفين فى الأندلس يحارب النصارى آنئذ ، وقد بلغه ما وصلت إليه دعوة ابن تومرت من الانتعاش والازدهار ، وساء ما اعتزمه خصمه وهو الإطاحة بسلطان المرابطين وتمزيق عرى دولتهم . فلم يجد بداً من منازلته والقضاء عليه . غير أن الموحدين ( وهم الذين اتحدوا من أجل إعلاء كلمة الله ) استطاعوا أن يقضوا قضاء مبرماً على الجيوش الثلاثة التى أرسلت لمحاربتهم ( سنة ٥٢٤ هـ ) وكان الجيش الأول بقيادة ابن أمير المرابطين ويدعى الأمير أبو بكر ، وقد استولى الذعر على أفراد هذا الجيش قبل الاشتباك مع خصمهم ، ثم ولوا من الميدان مدبرين . أما الجيش الثانى الذى أرسله المرابطون فقد هزم هزيمة نكراء على يد القسائد

أبى محمد البشير قائد الموحدين ، وهنا وجد الأمير على أنه لا مناص من استدعاء القائد المظفر أبى الطاهر تميم وهو شقيقه الذى قاد جيوشه ضد النصارى فى حروب طاحنة أسفرت عن انتصارات ساحقة للمرابطين على أعدائهم ، غير أن هذا الجيش لم يكن بأحسن حظاً من الجيشين السالفين فى الثبات والإقدام - أمام الموحدين - فركن أفرادهم إلى الفرار بأرواحهم ، بعد أن هلك كثير منهم فى المفاوز والقفار ظمأً وجوعاً .

وقد شجعت هذه الانتصارات التى أحرزها الموحدون على أعدائهم ، شجعتهم على التآهب لغزو مراكش عاصمة المرابطين ، ولما علم بهم الأمير على سائر إليهم قوة ضاربة قوامها مائة ألف مقاتل ، بينما كان رجال الموحدين لا يزيدون على أربعين ألفاً ، ورغم هذه القلة فى العدد والمعدات ، استطاعوا أن يكسروا شوكة أعدائهم فهزتهم نشوة الانتصار وتقدموا لمحاصرة مراكش ، والاستيلاء عليها عنوة ، غير أنهم مُنوا بهزيمة مروعة ، وقتل قائدهم أبو محمد البشير وخمسة من الأصفياء والمقرئين لدى المهدي الذى كان طريح الفراش آنئذ ، وقد قال قولة مشهورة عندما رجعت فلول الموحدين مولية الأدبار ( ما دام عبد المؤمن حياً فإن لنا الغلبة إن شاء الله ) .

ولما فرغ الأمير على من قتال الموحدين وأمن جانبهم ، اتجه بقواته صوب الأندلس لقتال الفونسو الأراجونى ، وهو الذى لُقّب بالفونسو المحارب لكثرة الحروب التى خاضها ضد العرب ، وكان آنئذ قد ضرب الحصار حول غرناطة للاستيلاء عليها فعمل المرابطون على تفريب النصارى المعاهدين من الأندلس إلى مجاهل أفريقية ، حتى لا يكونوا حرية تطعنهم من الظهر ، وهم يخوضون الحرب ضد الأسبانيين الغزاة .

### حروب عبد المؤمن بن على قائد الموحدين ضد ملوك المرابطين :

لم ييأس المهدي من النصر وهو على فراش الموت حينما بلغه خبر الهزيمة الساحقة التى منى بها الموحدين ، وإنما طمأن أصحابه بأن الغلبة لهم ما دام على قيد الحياة رجال يحسنون القيادة من بعده ، وخص منهم عبد المؤمن بن على ،

وسرعان ما أرسله على رأس جيش تعداده ثلاثون ألف رجل ثم عادت سلطته على معظم القبائل التي تنكرت له قبلاً ، فشجعه ذلك على لقاء المرابطين الذين بلغت جيوشهم مائة ألف رجل ، ونشبت بين الفريقين معارك عديدة استطاع الموحدون في نهايتها أن يهزموا عدوهم ، ويجبروه على الفرار ، وطاردوا فلولهم المنهزمة حتى أسوار مراکش ، وضربوا الحصار حولها في الحال إلا أن عبد المؤمن اعتبر بنتيجة الحصار الأول لمراكش ، فشدد رحاله إلى ( تينمل ) عاصمة الموحدين فلقى سيده يحتضر على فراشه حيث ألقى عليه آخر نظرة وودعه الوداع الأخير في رمضان ٥٢٤ هـ .

وبعد وفاة المهدي اجتمع الأئمة الأربعة من الأصفياء العشرة وجماعة الخمسين وجماعة السبعين لاختيار زعيم آخر خلفاً للمهدي ، وقد اجتمعت كلمتهم على تولية عبد المؤمن قائداً لهم ، ولم يتخلف عن البيعة أحد منهم . فلُقّب بالخليفة وأمير المؤمنين ، ويذكر بعض المؤرخين أن عبد المؤمن أخفى وفاة المهدي على أصحابه وتولّى شؤون الدولة باسمه ثلاثة أعوام ، وكان في خلال هذه الأعوام الثلاثة قد أعد شِبلاً رَوْضَةً على الجلوس معه ، وعصفوراً دريه على النطق بالعربية ، وما زال يتعهد هذا العصفور وذلك الشبل حتى أصبحا ملازمين له أينما حل . وفي اليوم الذي صدع فيه بوفاة المهدي كان قد أعد العصفور لينطق بجملته يدخل بها الروح في قلوب معارضيه في ولاية الأمر ، كما درب الشبل على مجابهة الجالسين ومهاجمتهم كما لو كان في غابة ، وذلك ليؤكد لهم أنه مؤيد بقوى خارقة تجعل الحيوان الكاسر ينصاع لها ، فأخبرهم بوفاة المهدي وقبل أن يطلب منهم مبايعة فتح باب الشبل على مصراعيه فخرج فاغراً فاه يريد أن ينقض على كل من بالمجلس ، ولكنه سرعان ما رُبّت على رقبتة واقتاده إلى مثواه ثانية ، وفي نفس الوقت فوجئ القاعدون بالعصفور ينطق بلهجة عربية فصيحة ( النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين سند المملكة وناصرها ) وفي هذا المعنى قال شاعر الموحدين أبو علي :

أنسَ الشبلُ ابتهاجاً بالأسدِ      ورأى شِبّهَ أبيه فقصدُ

ودعا الطائر بالنصر لکم      فقضى حقكم ولما قد

أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكلُّ قد شهد  
أنك القائمُ بالأمر له بعد ما طال على الناس أمدُ

ومنذ أن وطَّد عبد المؤمن دعائم حكمه في البلاد قاد رجاله في معارك حامية الوطيس ضد المرابطين ، وأحرز عليهم انتصارات ساحقة ، جعلته يتقدم بخطوات سريعة نحو احتلال أراضى الامبراطورية المنهارة ، حتى أمكنه محاصرة مراكش عاصمتهم للمرة الثالثة ، وفي هذا الموقف الراهن دعا على ابنه تاشفين من الأندلس لمناصرته ضد الموحدين وقد كان تاشفين قائداً مغواراً ، أحرز انتصارات عديدة على الأسبانيين فاصطحب معه فرقاً ضخمة من الجنود المرابطة ومن النصاري المعاهدين ، ليتمكن تخلص مملكة أبيه من الانهيار بفعل الثورة العارمة التي قادها الموحدون ، والتي توشك أن تقضى على البقية الباقية من سلطانهم في أفريقية . ولكن الأمل الكبير الذي كان يعلقه الأمير على تلك الجيوش لم يتحقق ، إذ باءت بالفشل الذريع أمام ضربات عبد المؤمن ورجاله ، الذين كانوا يقاتلون بضراوة منقطعة النظير . وهنالك خابت مساعي الأمير الشيخ على بن تاشفين كما خابت آماله باستعادة سلطانه فاشتد حزنه إلى أن مات حرصاً ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة في رجب سنة ٥٢٧ هـ وكان قد ناهز التاسعة والخمسين من العمر .

فخلفه من بعده ابنه تاشفين وبايعه على الطاعة والولاء كبراء مملكته وبعث إلى زعماء الأندلس يخبرهم بأيلولة الأمر إليه ، طالباً منهم سرعة مبايعته وإعلان الولاء له فبادروا إلى تلبية طلبه ، وعلى رأسهم أبو زكريا يحيى بن غانية وعثمان بن أضحى وعمه على بن أبي بكر . وقد حارب تاشفين الموحدين ببسالة وشجاعة نادرة وهزمهم هزائم متلاحقة في مستهل إمارته ، فكان يخرج بقواته إلى البسائط المحيطة بمراكش فيلتقى بهم فيها ، فيكيل لهم ضربات صارمة إلا أن هذه الانتصارات لم تكتمل بنصر مؤزر ساحق على أعدائه ، إذ استطاعوا أن يستفيدوا من وعورة الجبال وخبرتهم في ارتيادها ، كما استفادوا من خبرتهم بالعيش في الكهوف المجهولة ، وتخزينهم المؤن التي يقاتلون بها طيلة فترة الشتاء القارص ، بينما يتعرض أعداؤهم لبرودته الشديدة وعدم إمكانهم الولوج إلى تلك الكهوف .

ولما استنفذ المرابطون ما معهم من مؤن وذخيرة كر عليهم الموحدون كرة ظافرة، فأنزلوا بهم خسائر فادحة وفرت جموعهم صوب قلعة تلمسان وبعضها تشتت في القفار القاحلة ، ومات الكثيرون منهم وهم يتضورون جوعاً وظمأً ، ولم ييأس تاشفين من النصر وإنما بعث إلى ابنه أبى إسحاق إبراهيم يستدعيه من الأندلس لنجدته ، فوافاه بقوات ضاربة ولكن المرابطين في هذه الجولة رغم ضخامتهم عدداً وعُدّة لم يستطيعوا الصمود أمام عدوهم فولوا مدبرين .

واستطاع الموحدون عقب انتصاراتهم الباهرة أن يستولوا على تلمسان ثم على وهران بعد أن سقط تاشفين ميتاً ، وهو يحاول الهرب إلى الأندلس في نهاية عام ٥٢٩ هـ ثم بويج بالإمارة من بعده ابنه إبراهيم ، وثار عليه عمه إسحاق بن علي فوجهت لقواته ضربات من جانبيين ، مما عجل بسقوط دولة المرابطين في أفريقية ثم في الأندلس .

وقد أهرقت أنهار من الدماء في الحروب التي خاضها المرابطون ضد الموحدين، ومُثل بالسكان الآمنين أبشع تمثيل ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ : أن قوات عبد المؤمن بن علي قد أزهقت أرواح مائة ألف نسمة من سكان تلمسان ، عقب استيلائه عليها ، كما أنه قد قتل معظم سكان مدينة فاس العاصمة الثانية للمرابطين بعد مراكش ، ثم لما أن ضرب عبد المؤمن الحصار حول مراكش للمرة الرابعة كانت تزخر بأكبر عدد مقارناً بالسكان الذين يقطنون أي مدينة تجاورها ، فأتى حصاره لتلك المدينة بالويل والثبور لسكانها الآمنين ، فمات أكثرهم وهم يتعطشون لقطرة ماء ويتضورون جوعاً ، وأكثرهم مات هلعاً وفزعاً .

ويقول « على أن مراكش نظراً لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأقوات ، واشتد الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ، بل أكلت الجثث البشرية وأكل السجناء بعضهم بعضاً ، واقتضى الجوع والضيق والأمراض التي ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان ، خصوصاً من الشباب والأطفال ، حتى قُتِي منهم في وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتي

ألف نفس ، وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح وقد خارت عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التي كانت بالأمس آهلة زاخرة سكون مروّع ، كالسكون الذي يسبق العاصفة ، ففي تلك الآونة العصيبة عمد الفرسان النصارى الأندلسيون - حسبما قيل وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصة حرسه - إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة وفي ساعة معينة فتحو أبواب المدينة التي كانت في عهدهم للموحدين فدخلوها دخول الذئب إلى حظيرة الأغنام .

وهكذا انتهت الدولة المرابطية في أفريقية بعد أن قُضِيَ على آخر خلفائهم ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين الذي اغتيل على يد الموحدين ، بعد أن دخلوا مراكش على جثث ذويها ، وبعد أن عاثوا فيها وقتلوا من سكانها ستين ألفاً حسبما ورد في كتب التاريخ ، وهكذا انتهت الدولة المرابطية ولم يستكمل تاريخها مائة عام ( ٤٥٠ - ٥٤٠ هـ ) وقد استطاعت هذه الدولة الأفريقية المنشأ أن تؤخر انهيار لواء الإسلام من شبه جزيرة أيبيريا إلى حين بعد أن كان مائلاً للسقوط .

### خلاصة:

نخلص من هذا العرض السريع للأحداث التي أعقبت معركة أقليش إلى أن العرب في الأندلس مُنوا بحروب أهلية طاحنة كانت نتيجة حتمية للصراع الذي شب بين المرابطين والموحدين ، كما أسهمت الحروب التي خاضها المرابطون ضد الثورات التي نشبت في البلاد الأندلسية أسهمت بنصيب في إنهاك قوى المسلمين في تلك الحقبة من التاريخ ، ولا يغيب عنا أن المرابطين وغيرهم من الأمراء قد استعانوا بأعدائهم الأجانب في حروبهم الأهلية مما عجل بانزواء لواء الإسلام عن شبه الجزيرة الأسبانية ، وأن الحرب التي أزهدت مئات الألوف من أهل شمال أفريقية والأندلس نتيجة الصراع بين المرابطين والموحدين ، قد تركت تأثيراً عميقاً في أجيال هذه الأمة وكسرت شوكة المسلمين أمام أعدائهم الذين انتعشت قواهم واستردوا شبه جزيرة إيبيريا كلها فيما بعد .



## معارك العرب في أسبانيا من معركة إفراغة إلى معركة الأرك

المرابطون يسحقون جيوش القيصر في معركة إفراغة :

خاض الفونسو الأراجوني ( أو الفونسو بن رُدْمِير ) حروباً طاحنة ضد العرب في أسبانيا كان له الظفر في بعضها ، وكان يندحر في أغلبها ، وكان يتطلع إلى ما تطلع إليه قبله الفونسو السادس ، وقد لقب بالقيصر تيمناً بقياصرة الرومان الذين كان لهم الحول والطول والجبروت ، ولكن مطامعه هذه لم تتحقق ، كما كان يمتنى نفسه بها من قبل .

ولما كان يحلم بأن يكون له منفذ على البحر الأبيض المتوسط ، لذا عهد إلى تأمين الملاحة في نهر أييرو ، الذي يمكنه من الوصول إلى بغيته ، كما فكر في أهمية فتح ثغر طرطوشة وأخذة عنوة من يد المسلمين ، ولذا أعد العدة لهاجمته من البر والبحر ، مستعيناً بالفرسان الذين قدموا تلبية لنداء دعاة الحرب الصليبية في أسبانيا . وكان يتعين عليهم الاستيلاء على عدة مدن أخرى ، تمهيداً للاستيلاء على ذلك الثغر ، منها مدن مكثسة ولاردة وإفراغة وكانت إفراغة أشدها منعة وصلابة ، فقد كانت تقع على آكام عالية وعرة المسالك .

ولما حوصرت هذه المدينة أبدى الأهالي بها شجاعة نادرة ، ومقاومة عنيفة ، وقد خف لمعونتهم يحيى بن غانية قائد المرابطين بالأندلس ، على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لنجدة المدينة المحاصرة كما بادرت قوى أخرى من جنوب أسبانيا للاشتراك في الدفاع عن هذه القلعة الحصينة . وهذه هي صهوة الموت الأخير للمرابطين الذين انهارت دولتهم على يد الموحدين ، فأثبت لهم التاريخ هذه الوقفة الشجاعة في معركة إفراغة في رمضان عام ٥٢٨هـ .

ولما وصلت الأنباء إلى القيصر بمقدم الجيوش الإسلامية لنجدة المحاصرين ، لم يتراجع حقناً لدماء من معه من الجنود ، وإنما ركب رأسه ، وآلى على نفسه أن يصمد حتى يفتتحها ، أو يموت في حلبة الصراع بينه وبين المسلمين . ثم أمر بأن

يأتوه برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يقود الفرقة الانتحارية من جنده الصفوة من الرهبان والقساوسة ، وعلى أثر ذلك التحم الجيشان في معركة طاحنة ، وفي الجولتين الأوليين هُزم المسلمون القادمون لنجدة إخوانهم ، وفر أكثرهم من الميدان هرباً بأرواحهم ، حتى يئس المحاصرون ، وفاوضوا القيصر على التسليم ولكنه رفض كل عرض ، وحاول أن يفتحها عنوة وهنا فاجأه المرابطون على حين غفلة منه ، فأوقعوه في كمين جذبوه إليه بطريقة فنية عجيبة ، ثم انقضوا عليه انقضاض العقاب على فريسته ، فأثخنوا فيه وهلك كثير من فرسانه ، وأجمعت الروايات العربية وبعض الروايات الأفرنجية على أن الفونسو سقط في هذه المعركة متأثراً بجراحه ، بعد أن هلك معظم جيشه ، ويروى مؤرخ قطلونى أنه بعد حدوث معركة إفراغة فر القيصر بصحبة فارسين من جيشه ولجأوا إلى دير القديس ( خوان دى لابنيا ) في سرقسطة وهناك توفى غماً ويأساً ، لثمانية أيام فقط من الموقعة وذلك في رمضان ٥٢٨ هـ (\*) ( ١١٢٤ م ) ويزعم معظم المؤرخين أنه لم يعثر لهذا القيصر على جثة عقب سقوطه في تلك المعركة .

### جواز الموحدين إلى الأندلس وسيادتهم عليها :

كانت معركة إفراغة في حكم الأمير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ، ولما توفى على في سنة ٥٢٧ هـ تولى الحكم بعده ابنه تاشفين ، وعهد بولاية مدن الأندلس إلى بعض القواد المشهورين مثل يحيى بن غانية على قرطبة ، وبعد وفاة الأمير المرابطى تاشفين في رمضان سنة ٥٢٩ هـ تولى الحكم ابنه أبو إسحاق إبراهيم وهو غلام حدث وقد قتل بعد تولية الحكم بعامين فقط . وفي عهده قويت شركة الموحدين ، وتعرض المرابطون في البر الأفريقى لهزائم متلاحقة على يد الموحدين الذين كان يقودهم عبد المؤمن بن على خليفة أبى عبد الله بن تومرت ، وأعقب أفول نجم المرابطين في البر الأفريقى أفول نجمهم في بلاد الأندلس ، مما جعل قوى الأسبان والبرتغاليين ومن يناصرونهما تتعش وتفتك بالمسلمين فتكاً ذريعاً . وفي الوقت الذى كان عبد المؤمن بن على يحاصر مراكش عاصمة المرابطين في

(\*) ليست هذه الموقعة هي الوحيدة التي انتصر فيها المرابطون على أعدائهم المسيحيين في أسبانيا في ذلك التاريخ بل انتصروا في السنة ذاتها على جيش ملك قشتالة أدفونس بن رمند في مكان قريب من سهل الزلاقة وانتصروا عليهم مرة زخرى بقيادة تاشفين بن على على شمال قرطبة وهزمهم تاشفين بعدها في عدة مواقع .

أفريقيا ، كان هناك حلفاء ينتظرون معونته لهم في الأندلس للقضاء على سلطان المرابطين ومن أبرزهم أحمد بن قُسى والى الغرب ( من قبل الموحدين ) ، فسيّر القائد أبا عمران موسى بن سعيد فى جيش عدته عشرة آلاف فارس فجاز إلى شبه الجزيرة فى أوائل ٥٤٠ هـ ( ١١٤٦ م ) ثم أمكنه بمساعدة ابن قسى الاستيلاء على حصن الجزيرة ، وتركها الحامية المرابطية إلى أشبيلية ثم سارت الجيوش إلى جبل طارق وشريش ففتحتا أبوابهما طوعاً واختياراً ، ثم سارت الجيوش المتحالفة تجاه أشبيلية وكان يتحصن بها ابن حمدين ، فلم يستطع المقاومة لفترة طويلة ، فاستسلم للحلفاء فى شعبان ٥٤١ هـ ولم يجد المرابطون مفرأ لهم سوى قرمونة التى تحصنوا بها بعد انسحابهم من أشبيلية « ودُعِيَ لعبد المؤمن بن على - كما يقول المؤرخ يوسف أشباخ - سلطان الموحدين فى الصلاة فى مساجد أشبيلية ثم دُعِيَ له بعد ذلك بقليل فى مالقة » وقد أورد لنا الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه قصة الأدب فى الأندلس ، قصيدة للشاعر أبى عبد الله محمد بن غالب البلسنى المعروف بالرصافى يمدح فيها زعيم الموحدين عبد المؤمن بن على بعد عبوره المضيق ، وقدمه مالقة التى كان يقيم بها الشاعر نقتطف منها الأبيات التالية :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور	قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها	ليلاً تسار ولم تشب لمقامور
فضية القدح من نور النبوة أو	نور الهداية تجلو ظلمة الدور
ما زال يقضمها التقوى بموقدها	صوأم هاجرة قوأم ديجور
حتى أضاء من الإيمان عن قبس	قد كان تحت دماء الكفر مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على	سقط إلى زمن المهدي مذخور
مواطن من نبي طالما وصلت	فيها الخطى بين تسبيح وتكبير
حيث استقلت به نعلاه بوركتا	فطاب كل كموطوء ومعبور
وحيث قامت قناة الدين ترفل فى	لواء نصر على البحرين منشور
فى كف منشمر البردين ذى ورع	على التقى وصفاء القلب مفطور
تسنم الفلك من سخط المرار وقد	نودين باخير افلاك العلا سبرى

فسرن يحملن أمر الله من ملكٍ      بالله مستنصر في الله منصور  
يومي له بسجود كل تحركةٍ      منها ويؤليه حمداً كل تصريح  
لما تسابقن في بحر الزقاق به      تركن شطيه في شك وتحير  
أهزمن موجه اثناء مسرور      ام خاض من لجه احشاء مذعور  
كانه سالك منه على وشلٍ      في الأرض من لهج الأسياف مقطور  
ذو المنشآت الجوارى في أجرتها      شكل الغدائر في سدل وتضفير  
أهدى المياه وانفاس الرياح لها      ما في سجايه من لين وتعطير

وقد رسخت أقدام الموحدين في الأندلس بعد وقت وجيز قضوه في معارك متواصلة مع المرابطين ، ومن يحالفهم من ملوك أسبانيا المسيحيين . إلا أن سخط الأندلسيين على المرابطين ، ساعد على انكماش سلطانهم والقضاء عليهم ، ثم حدث أن استسلمت مراكش وقضى على آخر سلاطين المرابطين إبراهيم بن تاشفين ، فوجه الموحدون قواتهم تجاه الأندلس لفتح ما بقى من ولاياتها التي كانت حجر عثرة في سبيل تقدمهم .

وقد استطاعوا القضاء على الثورة التي أشعلها محمد بن هود في سلا ، والذي تسمى بالهادى ، وكاد ينتزع من الموحدين كل الأقاليم والمدن التي كانوا يسيطرون عليها ، خلا فاس ومراكش إلا أنهم استطاعوا بعد ذلك القضاء عليه واسترداد ما سقط في يده من البلاد وبنفس السرعة التي استولى فيها على تلك الأقاليم .

### حملات النصارى ضد المرية وأشبونة وطرطوشة :

في الوقت الذي كان المسلمون منشغلين بحروبهم الأهلية الطاحنة ، وجهه الفونسو السابع ( ملك قشتالة ) ضربات للولايات المتاخمة لحدود دولته ، لضمها إلى ملكه وادعى أن بعض القراصنة الأندلسيين يغيرون على شواطئ أسبانيا ، وجلباية وبرشلونة والبرتغال وشواطئ فرنسا وإيطاليا الجنوبية ، فوجه ضربه إلى أكبر معقل كان يخشى وجود قراصنة البحر فيه ، وهو ثغر المرية . وكان محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية مشغولاً بحرب المرابطين ، وفي نفس

الوقت كان المرابطون يواجهون زحف الموحدين في الجنوب فحاصر الفونسو المدينة من البر والبحر ، وقطع المؤن والعتاد عنها ، ويقول المؤرخ يوسف أشباخ نقلاً عن المؤرخ الأسباني كوندى « حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النصور ، ونفدت المؤن بسرعة ورأى المسلمون أن لا أمل في النجدة فخرجوا مراراً لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ، ولم يعد يكفى للدفاع ، بدأوا المفاوضات مع النصارى وسلّموا المدينة للأدقنش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمنوا في أنفسهم وكان ذلك في أواخر ٥٤٢ هـ » بيد أن الموحدين<sup>(١)</sup> استعادوا مدينة المرية بعد عشر سنين من سقوطها ( أى في سنة ٥٥٢ هـ ) .

وبعد أيام معدودات من سقوط المريّة حدثت فاجعة أشد وأنكى للمسلمين إذ سقطت أشبونة في يد الفونسو ملك البرتغال ومن حالفه من الفرسان الصليبيين ، بعد أن يئس أن يقتحمها من البر والبحر لمنعتها وقوة دفاعها وصمود رجالها ، إلا أن رسوّ زهاء مائتى سفينة من سفن الصليبيين ، دفعت بهذا الملك أن يستثير حماسهم ضد المسلمين وزين لهم ما سيعود عليهم من الجزاء إن هم ساعدوه في فتحها ، ويقول المؤرخ المذكور « وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون أشرت الهولندى إلى مياه أشبونة لمعاونة البرتغاليين على أخذها ، وانتهت جهود البرتغاليين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل وسلم المحصورون المدينة ، بعد أن نفذ كل أمل في الإغاثة ، ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعاً ، وحصلوا مقابل ذلك على الرحيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ، واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لقوا في المدينة من غنائم لا تحصى ، وقد استمرّ ( الحصار ) مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام ( ١١٤٧ م ) وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط المريّة » .

وكانت ثالثة الأثافي سقوط ثغر طرطوشة الذي يعتبر مفتاح نهر الإيبرو إلى سائر بلاد المسلمين في الأندلس ، فقد شجع النصر الذي أحرزه الأسبانيون في المرية الكونت ريموند صاحب برشلونة على معاودة محاصرة هذه القلعة التي

(١) التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن على الحجى .

استعصت عليه آنفاً ، فحشد لها قواته في البر والبحر وضرب الحصار حولها ستة أشهر وعجز أمير بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش عن إرسال المدد إليها ، فسقطت في قبضة الكونت<sup>(١)</sup> ريموند في ١٢/٢١/١١٤٧م ( ٥٤٢ هـ ) .

وأعقب هذه الكوارث تقلص نفوذ المسلمين عامة وصاحب بلنسية بصفة خاصة إذ انتزعت منه قلاع مكنسة ولاردة وإفراغة ولم يبق في يده سوى الحاضرة بلنسية التي غدت تحت رحمة أعدائه .

### تحالف الفونسو السابع مع المرابطين ضد الموحدين :

لم يستطع الموحدون الهيمنة على سائر أسبانيا المسلمة بسهولة ، وإنما وجدوا أمامهم عدة عقبات كان ينبغي عليهم تخطيها منها مقاومة البقية الباقية من جيوش المرابطين لهم ، وكان يقودهم أبو زكريا يحيى بن غانية وكان يعتصم في غرناطة ، ويعقد الأمل الكبير على حامية المرابطين في قرطب بقيادة واليها يحيى بن علي ، والعقبة الثانية هي قيام ثورة أخرى في سبتة عقب القضاء على ثورة الهادي ( في سلا ) وكانت الثورة الثانية بقيادة عياض بن موسى الذي نادى بأبي زكريا قائد المرابطين نكايه في الموحدين . إلا أنهم استطاعوا القضاء على هذه الثورة في مهدها وعقبة ثالثة هي الممالك المسيحية التي كانت تتحالف مع المرابطين ، لإيقاف تقدم الموحدين واستئصال شأفتهم من أسبانيا وكانت هذه هي أشد العقبات صعوبة أمامهم .

فحارب الموحدون أعداءهم واشتبكوا معهم في معارك ضارية ، كان لهم الغلبة في أكثرها ، وتمكنوا من الاستيلاء على قرطبة عاصمة الأندلس ، ثم تقدموا لتطويق غرناطة التي كان يعتصم بها أبو زكريا والذي تحالف مع الكونت المانريش صاحب قشتالة ، ضد جحافل الموحدين ، وقد سقط أبو زكريا في ميدان الحرب وهو يقاتل أعداءه قتالاً مستميتاً . ويؤخذ عليه أنه استعان بأعدائه ضد بني جنسه وملته ، وبعد أن كانت له معارك خالدة ضد من استعان بهم ، وهو بطل معركة إفراغة التي سقط فيها الفونسو المحارب .

(١) ذكر صاحب تاريخ الأندلس نقلاً عن ( التكملة لابن الأبار ) أن سقوط ثغر طرطوشة كان في يوم الخميس ١٦ من شوال سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٨ م ) .

ولم يستطع الموحدون الاستيلاء على غرناطة فارجأوا اقتحامها إلى حين ، وسيروا قواتهم صوب جيّان فاستولوا عليها ، ثم عادوا لتهديد المريّة التي كانت في يد النصارى ، وغرناطة التي كانت في يد المرابطين ، فتحالف أدفونش بن رمند مع من بقى من المرابطين ومع غرسيه ملك نافارا فسيروا قواتهم تجاه قرطبة فحاصروها وعاثوا فيها ، بعد أن هُزم الموحدون فولوا الأدبار أمامهم ، وقد تواترت الأخبار بجواز عبد المؤمن إلى الأندلس فأدرك الفونسو مغبّة الاستمرار في حصار قرطبة ففك الحصار وارتد صوب جيّان فاستولى عليها ووضع حامية قوية من جنده بها ، ثم قفل عائداً إلى طليطلة .

ولم يلبث عبد المؤمن أن بعث بجيش ضخم إلى شبه الجزيرة بقيادة الشيخ أبى حفص وابن عبد المؤمن أبى سعيد فبدأ القتال بمحاصرة المريّة ، التي كانت في يد النصارى ، فتحالفوا مع المرابطين ومع محمد ابن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية ، وحال الحلفاء بين الموحدين والاستيلاء عليها . إلا أن المعارك استمرت بين الجانبين على أشدها وكان النصر للموحدين فاستطاعوا الاستيلاء على المريّة ، ثم ضربوا الحصار حول غرناطة التي انتزعها ابن سعد منهم من قبل ، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مهما كلفهم الأمر ، وسار القيصر والمرابطون وجنود ابن سعد لفك الحصار عن غرناطة ، واشتبكوا مع الموحدين وطال الاشتباك فارتدوا دون أن يحرز كلا الطرفين نصراً على الآخر ، واستولى القيصر على بيّاسه في طريق عودته إلى بلاده ، إلا أن الأنباء التي تواترت عليه أزعجته حين علم باستيلاء الموحدين على غرناطة في عام ٥٥٧هـ (١٦٢م) واغتيالهم قائد النصارى بها ، وحاميتها جميعاً وأعملوا سيوفهم في رقاب المرابطين ، فأدبر من بقى منهم على قيد الحياة فراراً بأرواحهم . فتأثر القيصر بهذه الأنباء فمات مغموماً مهموماً .

### قيام جماعات الفرسان الدينية في أسبانيا والبرتغال :

قامت جماعات دينية في جميع الولايات المسيحية لمناهضة المسلمين وإشغال حرب دينية ضدهم للقضاء عليهم قضاءً مبرماً ، وكانت هذه الجماعات قد تكونت على نمط الجماعات الدينية التي تكونت في فلسطين بعد دخول الصليبيين فيها ،

وذلك ليجمع بينهم الدين ضد عدوهم المشترك . ويذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن المسلمين سبقوهم إلى تكوين هذه الجماعات ، بأن درّبوا فرقاً مثقفة دينياً تدريباً عسكرياً راقياً لحماية الثغور والحدود المتاخمة للعدو سُمّوا ( بالمرابطين أو المرابطة ) وهم الذين يرابطون لحماية هذه الحدود من هجمات الأعداء .

والدافع إلى تكوين هذه الجماعات الدينية في الولايات المسيحية أن الممالك كانت كثيراً ما تصطرع فيما بينها ، كما كانت الملوك تتحالف مع المسلمين أحياناً للقضاء على منافسيهم في عروشهم . لذا وجدت هذه الجماعات ألا سبيل للقضاء على المسلمين ، إلا أن تتعصب ضدهم غير منحازة إلى سياسة معينة للملك من الملوك .

وهكذا نجد أن الحركات المسيحية اتسعت وزادت اشتعالاً ضد المسلمين ، وبدأوا يستعدون لاستئصال شأفتهم من شبه الجزيرة مستخدمين أبشع الطرق وأخس الوسائل ، للقضاء عليهم ، وكانت نواة هذه الجماعات قد تكونت في الوقت الذي كان الموحدون يقاتلون المرابطين ، وجنود ابن سعد ومن حالفهم من الأسبانيين .

**الموحدون في الأندلس من منذ افتتاح غرناطة حتى معركة الأرك :**

**( أ ) رقعة دولة الموحدين :**

اتسعت رقعة دولة الموحدين في عهد أميرهم عبد المؤمن بن علي اتساعاً فاق دولة المرابطين من قبلهم فامتدت حدودها في أفريقيا من الصحراء الكبرى جنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط شمالاً ومن المحيط الأطلنطي غرباً إلى مصر شرقاً .

أما في شبه جزيرة أيبيريا فكان الموحدين يستحونون على جميع بلاد الأندلس فيما عدا أملاك محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلنسية ومرسية الذي كان حليفاً حميماً للمالك المسيحية . فكان في أيديهم أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وهي التي تسمى بمنطقة الوادي الكبير ، أما في الغرب فكانوا يملكون الضفة اليسرى من وادي آنه كما ملكوا من ضفته اليمنى عدة مدن هامة ، وقد ورت<sup>(١)</sup>

(١) التاريخ الأندلسي للدكتور الحجى .

الموحدون - استيلاء - كل أملاك المرابطين بالمغرب والأندلس ، ووصلت دولة الموحدين إلى مستوى عالٍ من القوة ، وشيئت للفضائل صروحاً ، وأسهمت في الاستمرار بالعلم والمعرفة . وحرس الحضارة الإسلامية في بقاعها وحمت كيان الإسلام في الأندلس .

### (ب) عبور الموحدين إلى الأندلس :

وكان أول جيش أرسله الموحدون<sup>(١)</sup> إلى الأندلس في سنة ٥٤١ هـ ، لإزالة ما بقي فيها للمرابطيين من سلطان ، ثم خضعت مناطق أخرى للموحدين . وقد جعلت غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً حشدت له كل وسائل الدفاع ، كما نُقلت العاصمة من قرطبة إلى أشبيلية في سنة ٥٥٧ هـ ، حيث اعتُبرت مستقراً للجيش الموحدية .

وفي سنة ٥٥٨ هـ توفي عبد المؤمن بن علي ثاني أمراء الموحدين بعد أبي عبد الله بن تومرت ، بعد حكم دام ثلاثة وثلاثين عاماً ، وأعقبه في الحكم ابنه أبو يعقوب يوسف الذي بويع بالخلافة في سلا قرب الرباط ، ثم عاد منها هو وحاشيته إلى مراكش .

وفي عام ٥٦٠ هـ<sup>(٢)</sup> عبرت جيوش الموحدين للمرة الثانية إلى الأندلس ، وكانت بقيادة أبي يعقوب ، وذلك لتعزيز دفاعات بعض المناطق الأندلسية ضد أسبانيا الشمالية . كما حدث صدام بين الموحدين وبين محمد بن سعد بن مُردنيش صاحب بلنسية ، وكانت له صلوات مودة مع ملوك أسبانيا الشمالية ، وقد بلغ عدد المرتزقة النصراني في جيشه - في لقائه مع الموحدين - ما يقرب من ثلاثة عشر ألف مقاتل ، وقد حارب الموحدون كلا الجيشين متعاهدين على الثبات والاستشهاد في سبيل الله ، حتى تم لهم النصر في معركة عرفت بمعركة ( فحص الجلاب ) سنة ٥٦٠ هـ .

وعبر أبو يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية ( المرة الثالثة بالنسبة لعبور جيوش الموحدين ) في سنة ٥٦٦ هـ بجنود من الشمال الأفريقي ، للقيام بأعمال الجهاد في الأندلس ، ثم عاد إلى مراكش في عام ٥٧١ هـ ، وتلت عودته

(١) ، (٢) التاريخ الأندلسي للدكتور الحجى .

هجمات شنها عدد من ملوك أسبانيا النصرانية ، فخاض الموحدون ضدهم عدة معارك أهمها : معركة طلبيرة ، حيث قاد القشتاليين ملكهم الفونسو الثامن فى عام ٥٨٧ هـ . وفى عام ٥٨٠ هـ عبر أبو يعقوب المنصور بجنوده للمرة الثالثة إلى الأندلس ، واتجه إلى قلعة شنترين لمحاصرتها والاستيلاء عليها ، إلا أنه لم يستطع فتحها ، ولكنه أصيب فى إحدى معاركها وتوفى فى ذات العام ( ٥٨٠ هـ ) .

وبعد وفاة أبى يعقوب بويج بالخلافة ولّى عهده وأكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب ، الذى تقلب أيضاً بالمنصور ، وبعد أن استتب له الأمر فى مراكش عبر إلى بر الأندلس للمرة الأولى فى عام ٥٨٦ هـ لمنازلة العدو الصليبي ، حيث ألقاه ملك البرتغال ( ابن الرّيق ) ومن بعده ابنه شانجه ، الذى بدأ يشن الغارات على الأندلس منذ عام ٥٨٥ هـ ، انتقاماً لما حدث للصليبيين فى المشرق العربى ، حيث استولى صلاح الدين الأيوبي على بيت المقدس فى عام ٥٨٣ هـ - ( ١١٨٧ م ) - فلهذا قام شانجه الأول ملك البرتغال ( وهى مملكة حديثة الانفصال عن قشتالة وليون - عاصمتها آنئذ قلمرية ) - قام هذا الملك بمحاصرة مدينة شلب ، حيث ثبتت أمامه بقوة لمدة ثلاثة أشهر ، ولما قطع عنها الماء وأشرفت على الاستسلام كان حلفاء شانجه يودون الدخول للمدينة عنوة ، كى يعيشوا فيها ما يشاءون ويسفكوا دم أهلها ، إلا أنه أقنعهم - كما يقول المؤرخ يوسف أشباخ - بالاكْتفاء بما فيها من أموال وقصور ، وكان دخولهم لها فى عام ٥٨٥ هـ .

### (ج) معركة الأرك :

كان عبور أبى يوسف يعقوب المنصور<sup>(١)</sup> للمرة الثانية إلى الأندلس فى عام ٥٨٦ هـ ، وكان هدفه استعادة مدينة شلب ، فقام بعدة معارك فى عدة مناطق إلا أنه لم يستطع استرداد المدينة ، فعاد إلى أشبيلية للاستعداد وإعادة الكرة على الأعداء ، فخرج بجيش كثيف فى عام ٥٨٧ هـ متجهاً نحو الشمال الغربى حيث استعاد من الصليبيين قصر الفتح ( قصر أبى دانس ) الذى كان قد استولى عليه ابن الرّيق

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

البرتغالي في عام ٥٥٥ هـ - ثم استطاع الموحدون استرداد مدينة شلب في ذات العام ( ٥٨٧ هـ ) .

وكان الموحدون قد عقدوا مع الفونش الثامن ملك قشتالة معاهدة عدم اعتداء لمدة خمس سنوات ، وحين انتهت هذه المعاهدة في سنة ٥٩٠ هـ بدأ القشتاليون بمهاجمة الأندلس والعيث فيها ، فأعدَّ الموحدون حملة للتوجه إلى الأندلس تمَّ عبورها في جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٥ م ) بقيادة الخليفة الموحدى نفسه متجهاً إلى أشبيلية العاصمة ، ثم اتجه للقاء جموع الفونش الثامن القشتالى في مكان يسمى حصن الأرك ، على بعد حوالى عشرين كيلو متراً إلى الغرب من قلعة رياح ، على أحد فروع نهر آنه . وهذا الحصن يقع شرقى السهل الذى جرت فيه معركة الزلاقة في عام ٤٧٩ هـ ، وسبب المعركة - كما سبق ذكره - هو نقض القشتاليين لعهدهم الذى أعطوه للموحدين في عام ٥٨٦ هـ ، فأرسلوا إلى جميع الثغور الإسلامية منذرين أهلها بالاستسلام ، وتظاهروا في ذات الوقت بطلب تجديد المعاهدة ، ولما كان الفونسو الثامن وأتباعه يكيدون للمسلمين ، فقد كان الله لهم بالمرصاد ، وأعقبهم الله سوء غدرهم ، وحق بهم وبأل مكرهم .

يقول ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض<sup>(١)</sup> المعطار : أنه قد بلغ المنصور يعقوب أن صاحب قشتالة شن الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقاً وغرباً فى وقت واحد ، وعمَّ ذلك جهة أشبيلية ونواحيها ، فامتعض من ذلك ثم تحرك من حاضرتة مراكش إلى الأندلس واستقر بأشبيلية .

وتفسير ذلك أنه قد توالى أخبار الأندلس على الخليفة الموحدى أبى يوسف يعقوب المنصور ، فأعد جيشاً جهّزه بأسلحة شتى ، ثم عبر به إلى الأندلس ، وقاده بنفسه للمرة الثانية ، وكان عبور الخليفة بجيش الموحدى إلى طريف بالأندلس فى عام ٥٩١ هـ . ثم توجه إلى أشبيلية العاصمة ، حيث أنفق أسبوعين فى وضع الخطط المحكمة ، ثم رحل إلى قرطبة ، ومنها صوب قلعة رياح ، بينما تجهز الفونش

(١) التاريخ الأندلسى ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

( الثامن )<sup>(١)</sup> ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامى ، وذلك منذ سمع بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وطلب العون من ملكى ليون ونبارة ( كانتا تابعتين لقشتالة ) ثم سار مسرعاً ونزل فى الأرك ، وهى نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس ، بينما نزل الخليفة الموحدى ( أبو يوسف يعقوب ) قريباً من المعسكر القشتالى .

وقد مرت أيام لم يقع<sup>(٢)</sup> فيها اشتباك بين الجيشين ، إلا مناوشات خفيفة ألحقت بالجيش القشتالى بعض الخسائر ، وأخذ المنصور يستشير أصحابه الرأى ، ويعقد فيهم مجالس الحرب ، فأشار أحد قواده ( وهو أبو عبد الله بن صناديد ) بأن تبدأ الجيوش الأندلسية والجيوش غير النظامية القادمة مع الموحدين بالاشتباك مع الأعداء ، ويبقى الخليفة بجيشه من الموحدين فى موضع مستور ، فإن كان النصر للمسلمين فذاك ، وإلا فيبادر الخليفة بقواته للقاء العدو ويحمى ظهور المسلمين . حينئذ تخمد قوة العدو ، فأعجب الخليفة برأيه وقرر الأخذ به .

وأورد الدكتور عبد الرحمن الحجى فى كتابه التاريخ الأندلسى أن جموع القشتاليين بلغت - كما ذكر ابن عميرة الضبى فى بغية الملتمس - ما ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتى ألف رجل ، وكان معهم جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأعدوا أموالاً فهزمهم الله تعالى . ويقول « ويذكر عبد الواحد المراكشى ذلك فى كتابه المعجب فيقول : وكان الأدقش قد جمع جموعاً لم تجتمع له مثلاً قط ، فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين ، وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير المؤمنين فى ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين » بعد الاستعانة بالله تعالى .

وذكر صاحب المرجع السابق نقلاً عن ابن عذارى صاحب البيان المغرب : أن الجيوش نظمت تنظيمًا جيداً ، وتولى القيادة العامة أبو يحيى بن أبى محمد ابن أبى حفص ، وبقي الخليفة طبقاً للخطة - بجيشه فى المؤخرة . وخاطب القائد العام جنده وبلغهم بقول الخليفة المنصور ، يقول لكم أمير المؤمنين : اغفروا له - فإن

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨٦ .

(٢) ذكر المؤرخ يوسف اشباخ أنه الفونسو التاسع وليس الثامن .

هذا موضع غفران - وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم . فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم ، وما جرى له من حسن معاملتهم . ثم قام خطيبٌ وحرص على الجهاد ، وبين فضلَه ، وتقديمه على غيره ، فاشتدت حمية الناس وتنافسوا لبذل أرواحهم انتصاراً للدين والأوطان . وكان الجيش الإسلامي في سهل الأرك ، بينما كان القشتاليون في المرتفع المشرف عليه قرب حصن الأرك . وفي يوم الأربعاء التاسع من شعبان من عام ٥٩١ هـ ( الثامن عشر من شهر يولية سنة ١١٩٥ م ) بدأت المعركة الحاسمة .

رأى القشتاليون الجيش الإسلامي<sup>(١)</sup> يزحف نحوهم ببطء ، فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً ، وأمواجاً تعقب أمواجاً ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج .. وما لبث الجيش القشتالي وأنصاره أن مالوا على ميسرة المسلمين فتزحزح قوم من المطوعة ومن أخلاط الناس ، فصعد الفبار إلى عنان السماء ، وهنا صرخ المنصور في خاصته ومن طاف به من المسلمين قائلاً : جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها ، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم كلاماً وجيزاً مؤثراً .

ثم التحم الطرفان في قتال عنيف ، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين ، ثم التحمت بهم بقية الجيوش الإسلامية ، فاضطر الجيش القشتالي إلى التقهقر والفرار ، كما فر ملك قشتالة صوب طليطلة ، واستمرت المعركة يوماً واحداً فقط ، أحرز فيه المسلمون بقيادة الموحدين نصراً مبيناً ، وغنموا مغانم كثيرة ، وافتتحوا حصن الأرك ، وقد تحقق هذا النصر بمدد من الله تعالى للمسلمين رغم الكثرة الكاثرة للفرنجة الذين كانوا قد أعدوا جيشاً عظيماً ، قال عنه المؤرخ الألماني يوسف أشباخ إنه تجمع من أقصى أنحاء العالم المسيحي ، ولكن الموحدين بقيادة يعقوب المنصور أنزلوا بهم هزيمة منكرة ، ويقال أنهم خسروا في تلك الموقعة ١٤٦ ألف رجل بالإضافة إلى ثلاثين ألف أسير ، وفرت فلول الجيش المسيحي إلى كلاترافا واعتصموا بها ، ولكن المسلمين ما لبثوا أن اكتسحوها فهرب الفونسو إلى طليطلة ، حيث حشد جيشاً لجباً لمقاومة الموحدين ، غير أنه متى مرة أخرى بهزيمة منكرة

(١) يوسف أشباخ ( تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ) .

وخسائر فادحة ، واستولى الموحدون ثانية على كالاترافا ووادي الحجارة ومدرید وسلمنقة ومدن وحصون أخرى في أسبانيا والبرتغال ، وأعادوا إلى حوزتهم معاقل كثيرة كانت قد سقطت في يد الفونسو من قبل .

وفي سنة ١١٩٦م حاصر يعقوب<sup>(١)</sup> مدينة طليطلة حصاراً شديداً حتى خرجت أم الفونسو تصحبها زوجاته وبناته ، وتوسلت إلى يعقوب والدموع في عينيها أن يبقى على المدينة ، فأثر توسلها في نفسه ، ولم يجبها إلى طلبها فحسب ، بل أذن لها ولمن معها بالإنصراف عليهن الحلّ والهدايا النفيسة الأخرى . ثم أنقذ مدرید من محاصرة أهل أرغونة لها ، وجعلهم يولون الأدبار فراراً من بأسه ، ثم عاد إلى أشبيلية فأقام بها سنة يبحث شروط الصلح مع سفراء الأمراء المسيحيين الذين وفدوا عليه فأجابهم إلى طلبهم - وبعد عودته إلى أفريقية وافاه الأجل في عام ٥٩٥ هـ ( ١١٩٩م ) - وكان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أرسل إليه سفيره ابن أخى الأمير أسامة طالباً النجدة ضد الصليبيين . وكان جيش المنصور حسن التنظيم ، وحكمه حازماً وعادلاً ، ونبع في عهده الطيبان الشهيران ابن زهر وابن باجه والفيلسوف ابن رشد .

### دروس وعبر عن معركة أفراغة وحصن الأرك :

١ - وقعت معركة أفراغة في عام ٥٢٨ هـ في أواخر عصر المرابطين ، وكان المسلمون في موقف ضعيف جداً بالنسبة لعدوهم الفونسو المحارب ملك أراجون ومن يناصرونه من المتطوعة الصليبيين ، وفي عهد ذلك الملك قويت حركة الاسترداد المسيحية ، لكل ما في يد المسلمين من بلاد الأندلس - ورغم مناعة تلك المدينة إلا أنها أوشكت على الاستسلام للأعداء ، لولا أن قيض الله لها المرابطين بقيادة أبى زكريا يحيى بن غانية ، فأحال حزن المحاصرين إلى فرحة ، وصَلَفَ الفازين إلى ترحة .

٢ - ووقعت معركة الأرك في عهد الخليفة الموحدى الرابع أبى يوسف يعقوب المنصور في عام ٥٩١ هـ ، وفي عهد الفونسو التاسع ملك قشتالة الذى حشد الحشود لمحاربة المسلمين من جميع البلاد الأوربية ، وهى حرب صليبية طاحنة ضد

(١) تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٤٠ .

المسلمين والمتأمل لوضع المعسكرين في ذلك الوقت ، سيرى أن جميع عوامل النصر كانت متوفرة لدى المعسكر المسيحي ، من حيث كثرة العدد وتوافر العدد ، وعظم القواد ذوى الكفاءة والدربة ، وامتلاكهم للموقع الحصين وهو حصن الأرك . بينما المسلمون كانوا قليلي العدد ، وناقص العدد ، وهم أخلاط شتى وأكثرهم غير مدربين على فنون القتال ، وكان معسكرهم في سهل منبسط معرض لنبال الأعداء ورماحهم - ولكن الله من عليهم بالنصر لجزعهم إليه ، واستدراهم رحمته ورضوانه ، وورع الخليفة ، وطلبه الصفح ممن أساء إليه ، وهكذا اجتمعت عوامل روحانية تغلبت على كل ما تباهى به الأعداء من قوة وأعداد وعدة ومنعة .

٢ - مما يجدر ذكره أن المسلمين بعد هاتين المعركتين لم يدركوا حق الإدراك لماذا تم لهم النصر في كلا المعركتين . ولم يفطنوا إلى أن النصر لا يلبث أن ينقلب إلى هزائم متلاحقة بسبب الاستفراق في الملذات ، والتشاحن ومناصرة الأعداء ، والتفتت إلى فرق ودويلات .

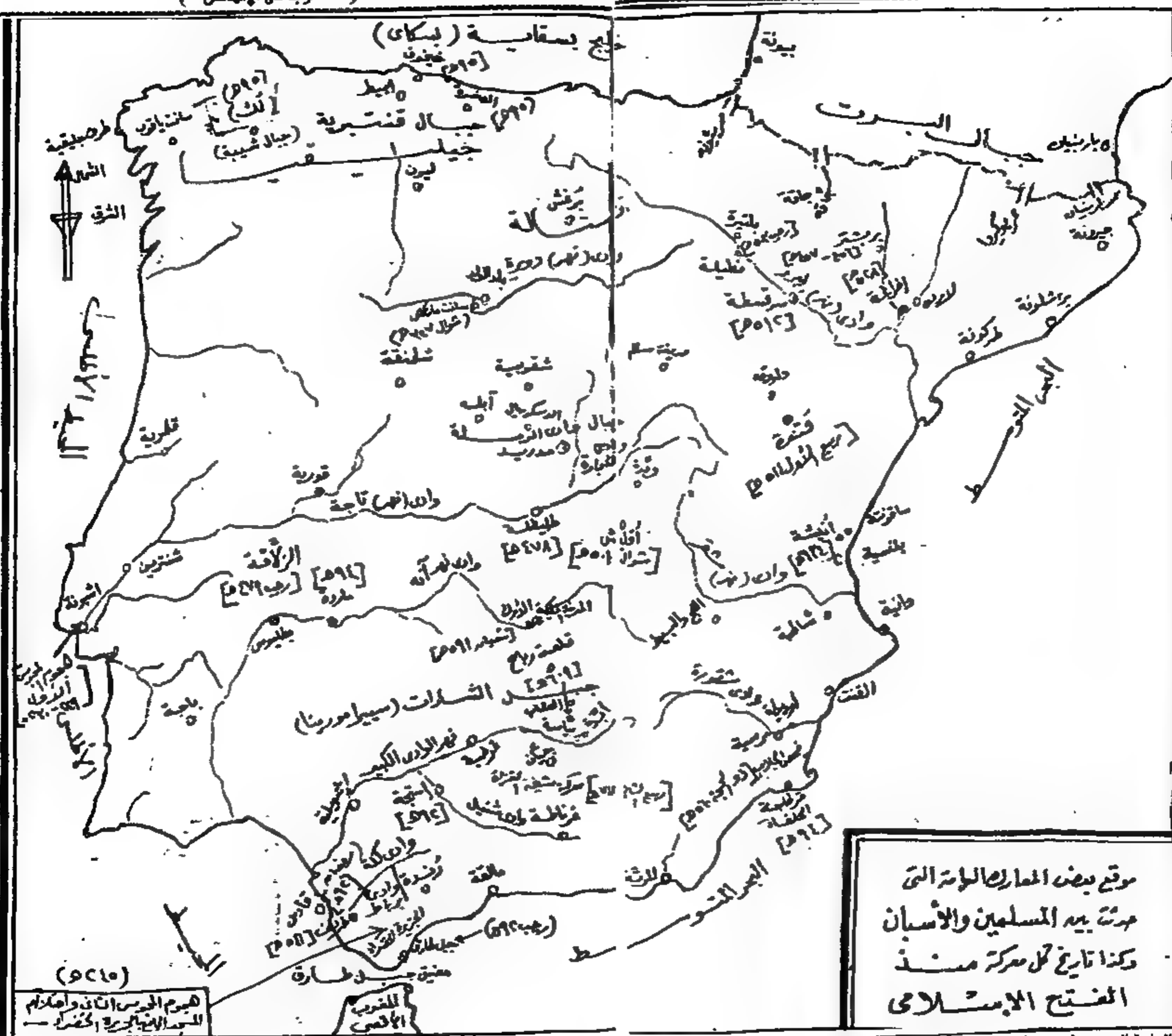
٤ - كذلك لم يقدرُوا ما هم فيه من موقف عصيب وخرج منذ سقوط طليطلة في عام ٤٧٨هـ - ولم يستطيعوا استردادها رغم انتصارهم على الفرنجة في معركة الزلاقة بعد عام من تلك الكارثة ، وإنما أعقب ذلك سقوط كثير من المعاقل الإسلامية في يد المسيحيين الأسباب تباعاً .

٥ - إن الصراع الرهيب بين الموحدين والمرابطين في الشمال الأفريقي وفي الأندلس ، وسقوط الآلاف المؤلفة من الجانبين أضعف من قوة المسلمين ، كما أضعفهم من قبل المذابح التي ارتكبها المرابطون ضد الأهالي في الأندلس بغية القضاء على ملوك الطوائف .

٦ - إن قيام الثورات وحركات الاستقلال ضد الموحدين ، فت في عضد الدولة الموحدية وأضعف كيائها في أفريقية والأندلس ، كما أضعف المرابطين من قبل وانتهوا بذات النهاية التي انتهى إليها أسلافهم .









الفصل الرابع

## الجهاد الأخير للمسلمين في الأندلس

• الجهاد الأخير للمسلمين في أسبانيا

(معركة حصن العقاب وأنيشة وماتلاهـما )

ثم جلاء المسلمين عن آخر معاقلهم في غرناطة



## الجهاد الأخير للمسلمين فى أسبانيا ( معركة حصن العقاب وأنيشة وما تلاهما ) ثم جلاء المسلمين عن آخر معاقلهم فى غرناطة

ماذا بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور :

لما تُوفّي الخليفة الموحدى يعقوب المنصور<sup>(١)</sup> ( بطل معركة الأرك ) خلفه ابنه محمد ، الذى لُقّب بعبد الرحمن الناصر لدين الله ( أو بأبى عبد الله الناصر ) وكان يختلف عن أبيه خلقاً ومقدرة ، واهتم باللهو والترف ، ولذلك كان السبب الرئيسى فى خراب امبراطورية الموحدين ، وبالتالى ضياع قضية المسلمين فى أسبانيا . كما كانت وفاة يعقوب المنصور إيذاناً للمسيحيين باستئناف هجماتهم على الأندلس ، فقد غمر الفونسو التاسع ملك قشتالة ( الأدفنش ) البلاد الواقعة حول اشبيلية وقرطبة بجنوده ، وأعمل فيها الحديد والنار حتى صارت يباباً ، إزاء هذه الأحداث المؤلة عبر الناصر إلى الأندلس للانتقام من المسيحيين ، وأول شىء فعله هو إعدام قائده يوسف بن قادس حاكم قلعة رباح عقاباً له على تسليمها للمسيحيين ، وقد أثار هذا الفعل ثائرة الأندلسيين وقاموا بثورة جارفة ضد الناصر لهذا العمل . وقد عمّ السخط والاستياء جميع المدن الإسلامية فى الأندلس ، وكان له رد فعل سلبي فى حمية الجند إذا أدى إلى اختلال صفوفهم فى ساحة القتال ، وكانت أنباء استعدادات الناصر قد أثارت الشعوب المسيحية ، وقد هُرع إلى أسبانيا جميع المغامرين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الصليبيين ، بعد أن طردتهم جيوش صلاح الدين المظفرة فى المشرق الإسلامى ، فأعلن البابا أنوسنت الثالث حرباً صليبية على المسلمين فى الأندلس ، وذهب رودركيو أسقف طليطلة إلى روما يلتمس المعونة من البابا ، داعياً فى كل مكان إلى خوض حرب مقدسة ضد المسلمين .

(١) مختصر تاريخ العرب - سيد أمير على ، ص ٤٤١ .

### الصراع بين الموحدين وبين بقايا المرابطين على السلطة والحكم :

يذكر المؤرخ الألماني يوسف أشباخ أن خليفة المنصور وهو الناصر<sup>(١)</sup> محمد كان ذا كفاية ودراية ، إلا أنه مع كفايته ودرايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان كثيراً ما يعهد بأهم شئون الدولة إلى رجال عاجزين يوليهم كل ثقته .

وكانت قد اشتعلت ضد الموحدين ثورة عارمة ، وثورات أخرى قام بها المرابطون في الجزائر الشرقية ( جزر البليار ) ثم انضموا بعد ذلك تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ، وبعد قتال عنيف مع الموحدين اعترفوا بهم في عام ٥٦٧هـ ، بيد أنهم عملوا في الخلاء على استدعاء أنصارهم تبعاً إلى ميورقة ، ولما شغل الناصر محمد بإخماد الثورة التي قامت ضده في فاس ، رأى المرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالعهم في الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، ونهض المرابطون بزعامة يحيى بن إسحق الميورقي<sup>(٢)</sup> ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا إلى أفريقية واستولوا على عدة مدن في أحواز قرطاجنة القديمة ( تونس ) . واضطر الناصر أن يحشد جيوشه ليحول دون تقدم الثوار ، ذلك أن زعيم الثوار كان قائداً وافر الخبرة بفتن الحرب ، ولكن المرابطين لم يوفقوا إلى استرداد سلطانتهم ، ذلك أنهم تحصنوا من الموحدين بأسوار المهديّة ، ولكن المدينة اضطرت برغم حصانتها وبسالة يحيى الميورقي أن تدعن أمام ضربات الموحدين العنيفة ، حيث رميت بالمنجنقات العظيمة - وقد استسلمت المدينة للناصر في سنة ٦٠١هـ ( ١٢٠٥م ) وعفا عن أهلها بعد الاستسلام وكذا عن يحيى الميورقي عفو الكرام .

ولكن تسامح<sup>(٣)</sup> سلطان الموحدين ( الناصر محمد ) لم يكن له من أثر إلا أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم يحيى

(١) تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق . (٣) المرجع السابق .

ابن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت شوكته بانضمام عدد كبير من الناقمين من قبيلة زناتة إلى الثورة . ولكن المرابطين هُزِمُوا للمرة الثانية في موقعة دموية ، وكاد أن يُسحق جيشهم عن آخره ، وفرَّ يحيى ناجياً بنفسه ، ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائياً ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو يحيى في الجزيرة ، وحاصرت الحملة الجزيرة واستولت عليها عنوة ، وأسِرَ عبد الله واحتُزَّتْ رأسه ، وأُرسل محنطاً إلى مراكش ، وعلقت جثته على بعض جدران المدينة .

ولم تُبدِ الجزيرتان ميورقة ويايسة أية مقاومة ، بل خضعتا للفاتحين في سنة ٦٠٤ هـ ( ١٢٠٨ م ) وهكذا انهارت الأنقاض الأخيرة لسيادة المرابطين . وعندئذ استطاع سلطان الموحدين أن يوجّه عنايته إلى شبه الجزيرة الأسبانية ، لكي يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ، وبعد أن أقام في مختلف المدن المغربية أبنية عظيمة فخمة يخلد بها ذكره ، اعتزم أن يبرز أسلافه بأعمال الحرب الضخمة في شبه جزيرة أيبيريا .

### الأعمال البشعة التي ارتكبتها القشتاليون قبل لقائهم بالموحدين :

ذكر المؤرخ الألماني يوسف أشباخ<sup>(١)</sup> بعض الأعمال البشعة التي ارتكبتها الفونسو القشتالي في المسلمين قبل معركة حصن العقاب فقال « ولم يكن القشتاليون الظمأى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ، فبعد أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على الإنجليز في جويان ( وهي حرب قليلة الأهمية وقعت سنة ١٢٠٤ م ) وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصاري بسبب تدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة الفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ما وسعه من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة بعد وفاة يعقوب المنصور .

ثم ذكر أنه بعد أن حصَّن ألفونسو قلعة مورة الواقعة على الحدود تحصيناً قوياً سنة ١٢٠٩ م ، سار في جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ،

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبى منهم جموعاً كبيرة ، ثم عاد إلى قشتالة ولقي ملكي نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهد الصلح ، وحصل منهم على وعد بتأييده ، وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعتزم بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين ، وفي العام التالي سار مرة أخرى إلى الأندلس وخرّب أراضى جيّان وبيّاسة واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلاً بالفنائم .

### تأهب الموحدين لمحاربة القشتاليين :

ولما وقف الناصر محمد على اعتداءات النصارى المتكررة على الأندلس ، أعلن الجهاد مؤملاً أنه يستطيع بقواته الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى أسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مرأ . وحشد فى جنوبى شبه الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، سيكون أولها من القبائل البربرية ، والثانى من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحّدية أو الجنود النظامية التى تحشد وفقاً لنظام عسكري موحد . ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة ، ويضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . يقول المؤرخ « وأنه من (١) الممكن أن تقدّر الجيش الذى حشده محمد الناصر لمحاربة أسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل » . وفى ٢٥ من ذى القعدة سنة ٦٠٧ هـ ( أوائل مايو سنة ١٢١١م ) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونهزل فى جزيرة طريف ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى أشبيلية .

وقد ارتكب الناصر خطأ فادحاً بتوجيه خيرة جنده للاستيلاء على حصن سريطرة الجبلى المنيع ، بناء على رأى حاجبه أبى سعيد بن جامع الذى كان يثق فيه ، ويشك الموحّدون فى صدق نيّاته ، واستمر الحصار طيلة فصل الصيف حتى دخول الشتاء ، وعانى المغاربة فى هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، ومرض منهم الكثيرون ، وحاول الفونسو رفع الحصار إلا أنه لم يفلح . وسقطت قلعة سريطرة بفعل الجوع والمعاناة - سقطت أخيراً فى يد الموحدين ، ولكن مقاومتها الطويلة - كما يقول يوسف أشباخ - كانت سبباً فى إنقاذ أسبانيا النصرانية .

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - يوسف أشباخ ، ص ٢٥٦ .

## تأهب القشتاليين لملاقاة الموحدين وحشدتهم قوى أوربا لمعركة المصير:

وكان ملك قشتالة الفونسو النبيل قد أرسل جرّهارد<sup>(١)</sup> أسقف شقوبية إلى البابا أنوسان يرجوه أن يرسل الصيحة إلى أمم أوربا النصرانية ، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ، وأرسل رودريك مطران طليطلة ( المؤرخ المشهور ) وعددًا آخر من الأحرار إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة في شرقها ، ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية من جبال البرنيه ، إلى البحر الأسود ، للمساهمة في كفاح الصليب المقدس .

وفي الوقت الذي كان البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوربا النصرانية ضد المسلمين ، كان الفونسو النبيل يعمل لجمع كلمة الملوك الأسبان ( قشتالة نافارا وليون وأراجون والبرتغال وبرشلونة ) ضد الموحدين . ودعا في سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقده في قونقة ، ولم يشهده إلى جانب الفونسو سوى بيدرو ملك أراجون ، ولكن شهدته مندوبون من قبل باقي - ملوك النصراري ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال .

وهكذا انقضى عام ١٢١١م في القيام<sup>(٢)</sup> بأهبات عسكرية عظيمة لمتابعة الحرب ، وقبل انتهاء فصل الشتاء اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة - التي اتخذت مكاناً لاجتماع الجند - قوات عظيمة ، وفي أوائل العام ( ١٢١٢م ) عاد المطران رودريك الطليطلي ومعه جمع غفير من الفرنسيين ، وتلا ذلك تجمع وفود من مدن أسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساتذة فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب والاسبترارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ، واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك الفونسو النبيل في أكمل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاباً لعدوهم .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

« ومع أنه وفدت على أسبانيا<sup>(١)</sup> جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية ، متقلّدين الصليبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً .. وكان الجميع يضطرمون شغفاً للقاء المسلمين .. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافارا - بعد أن غاضباً من ملك قشتالة - على أن يؤيد قضية أسبانيا بالمال والجند أولاً ، ثم بالأخص على التعهد بأن يسير مع فرسانه وأن يشترك بنفسه في القتال . »

وفي شهر مايو سنة ١٢١٢م - اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هُرِعوا من جميع أنحاء أوربا لمعاونة أسبانيا زهاء سبعين ألف مقاتل - وكان في الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد ، وفي أول يونية وهو عيد التثليث قدم بيدرو الثاني ملك أراجون في جيشه الضخم .. وأخيراً قدّمت الإمدادات من ليون وجليقية والبرتغال ، وكانت القوات البرتغالية تتألف من عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين ، يقودهم أمير برتغالي هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ، وكان القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز أخى ملك ليون - وكانت جموع المحاربين من الكثرة بمكان بحيث تعذر أن تضمهم مدينة طليطلة فانتشروا فيما حولها من القرى والمزارع والبرارى .

وليس أدلّ على الأهمية التي كان يعلّقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكَوْن آلاف منهم يتقلدون الصليب ، كذلك لا ريب في أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا - وكان ذلك مما مكّن الملك الفونسو النبيل من أن يمدّ جيش الوافدين الذى بلغ في أوائل يونية سنة ١٢١٢م أكثر من عشرة آلاف فارس ومائة ألف من المشاة فضلاً عن المؤن ورواتب مالية مُجزية ، وفي رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية ، وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد رجال الدين

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى .

وتأهب الجيش النصراني بالسير إلى لقاء العدو في ٢٠ من يونية سنة ١٢١٢م - ونظمت القوات في ثلاثة جيوش حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص المؤن - وسار في الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف محارب على الأقل . وقدره بعضهم بمائة ألف وكان تحت إمرة القائد القشتالي ديجو لوبيث دي هارو .. وكان يقود الجيش الثاني الملك بيدرو الثاني ، وهو مؤلف فقط من الأرجونيين والقطلونيين وفرسان الداوية ، أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ويتألف من جنود قشتالة وليون والبرتغال وفرسان قلعة رباح وسنت ياقب والأسبتارية وقوات الأمير الليوني سانشو فرناديز والأمير البرتغالي بيدرو ، ورودريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة آخرين ، وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة .

هذا هو الوصف الذي أورده المؤرخ الألماني يوسف أشباخ للحشود الهائلة التي حشدتها أوربا لمحاربة المسلمين واقتلاعهم من الأندلس ، وقد سقناه للقارئ الكريم بإيجاز - لكي يتبين مدى الحشد والاستنفار لهذه المعركة الصليبية المصيرية محكاة على لسان شاهد من أهلها - ويتبين لنا أن هذه الجيوش النصرانية المستنيرة للحرب لا تقل عدداً عن جيوش الموحدين ، فقد أورد المؤرخ أن عدد جيش الوافدين بلغ مائة ألف محارب في أحد الروايات ، والجيش الثاني المكون من الأرجوانيين والقطلونيين يزيد عنه عدداً وأهمية فيمكن تقديره بمائة وخمسين ألف مقاتل ، والجيش الثالث وهو أهمها جميعاً والذي يقوده الفونسو النبيل قد ضم جيوش ممالك عديدة بالإضافة للجيش القشتالي ، كما ضم فرسان القلاع وفرسان الأسبتارية وهم النازحون من الحرب الصليبية في المشرق العربي ، وضم فرقاً يقودها المطارنة والأساقفة .. وقدّر المؤرخ عدد الفرسان فقط في هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، فيمكن القول بأن العدد الإجمالي لهذا الجيش لا يقل عن مائة وثمانين

ألفاً - أى أن إجمالى هذه الجيوش الثلاثة لا يقل عن أربعمائة وثلاثين ألف مقاتل - هذا عدداً ما توافر لهذه الجيوش من الإمدادات وحسن التنظيم ، وتهيئة الظروف الملائمة للسير والراحة ، واختيار القواد ذوى الكفاية والدراية العالية ، والتعبئة الروحية الفائقة .

### معركة حصن العقاب : (الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ / ١٦ من يولية ١٢١٢م)

وفى اليوم الخامس من بدء السير<sup>(١)</sup> من طليطلة أى فى الرابع والعشرين من شهر يونية ، هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ، ولكن المؤن أخذت فى النقص ، وفكر كثير منهم فى العودة ، وكان حماسهم قد خبت على أثر هذا المجهود الأول . وفكر كثير منهم فى العودة إلى أوطانهم ، ولما قدم ملك قشتالة إلى مجلون هدأ روع المتطوعة بتوزيع المؤن عليهم ، واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ، ولقى النصارى عناء شديداً فى عبور نهر أنه بسبب الصنائير والخوازيق التى نشرها المسلمون على جانبيه ، وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جميع الجهات ، ولكنهم ردوا أكثر من مرة لمناعتها وقوة حاميتها ، وخشوا أن يطول الحصار ، وذكر المؤرخ يوسف أشباخ أن المسلمين كانوا يرابطون فى نهاية مقاطعة لامنشا بين جيآن وقرطبة ، ولما شدد المهاجمون الحصار على القلعة بعث الناصر قائده يوسف بن قادس سرّاً وتحت جنح الظلام ليفاوض ملك قشتالة على ترك حامية القلعة تخرج بسلاحها ويعدّه بتحفٍ عظيمة وبتسليم القلعة ، وكان ملك قشتالة يميل إلى هذا الطلب لكى يستولى على القلعة بسرعة ، ولكن الأرجوانيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية ، بيد أنه لما أبدى المسلمون عزمهم على المقاومة إلى آخر رمق ، وافق النصارى أخيراً على أن تتسحب الحامية دون سلاحها ، مع تعهد الفونسو وييدرو والفرسان على حمايتهم أثناء الانسحاب ، وحاول الصليبيون

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ( يوسف أشباخ ) ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الآخرون الفتك بهم ، ولكن الله أنجاهم منهم . وذكر المؤرخ أن الناصر حينما وقف على أمر ابن قادس وتسليمه القلعة للأعداء ، أمر بقتله جهاراً نزولاً على نصيحة وزيره أبى سعيد بن جامع ، وكان رجلاً كثير الدس ، يفيض كل الزعماء الأندلسيين .

لقد تعمّدت أن أورد فيما سبق كيف تأهبت أوروبا للحرب المقدسة ضد المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا نقلاً عن مؤرخ المانى مسيحي ، حتى يكون وصفاً محايداً - إن لم يكن في صالح بنى جنسه وملته - ثم بعد ذلك أقتطف هذه الفقرة من كتاب التاريخ الأندلسي للدكتور/ عبد الرحمن الحجى « كان البابا - لهذا الوقت- أنوصان الثالث الذى يتمتع بروح صليبية عالية ، بعث هذا البابا إلى الأساقفة في جنوب فرنسا بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لموازرة ملك قشتالة ، وأنه- إلى البابا - يمنح من لُبى هذه الدعوة الففران التام . ذكر عدد<sup>(١)</sup> من مصادرها هذا الأمر ، فيقول الحميرى في الروض المعمار : إن « الأدفونش بن شانجة لم يقدر في ذلك الوقت على شيء حتى استغاث بأهل ملته ، وكاتب من قُرب وبعد منهم ، وشكا إليهم ما دهاه من المسلمين ، وحثهم على حماية دينهم ونصر ملتهم ، فاستجابوا له وجاءوه من كل جهة وانثالوا عليه ، فكان من وقية العقاب ( جمع عقبة ) على الملك الناصر في عام ٦٠٩هـ ما هو مذكور في موضعه » حتى إن ملك ثبارة شانجة - شانجو السابع المقلب عندهم بالقوى - الذى كان قد ارتبط مع الموحدين في حلف وصداقة ، هدده البابا إذا لم ينقضه ويعاون ملك قشتالة ففعل ، كان التجمع لهذا اللقاء واسعاً وضخماً .

ثم التحم الجيشان في يوم الاثنين<sup>(٢)</sup> الخامس عشر ( أو الرابع عشر ) من صفر لسنة ٦٠٩هـ ( ١٦ من تموز - يولية سنة ١٢١٢م ) في سهل يقع جنوب غربى حصن العقاب الذى عُرفت المعركة باسمه ، وقد كان الخليفة الناصر يرى النصر حليفه لما شهد من التفوق العددي لجيشه ، وانتهى اللقاء بعد قتال شديد بين الطرفين بهزيمة

(١) التاريخ الأندلسي ( د. عبد الرحمن الحجى ) .

(٢) المرجع السابق .

المسلمين الذين كثر فيهم القتل . وكانت الخسارة فيهم عظيمة ولها نتائج كبيرة ، ويقول المراكشي « عبأ الأدفونش جيوشه ورتب أصحابه ودهم المسلمين ، وهم على غير أهبة ، فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير .. » ولعل أموراً كثيرة انتفع بها ملك قشتالة ومن عاونه من أهل ملته وقد أتبع كل وسيلة حتى الغدر والاحتيال . فلما انتهى اللقاء بهزيمة جيش الناصر وتشنت قوة الموحدين ، عاد إلى مراكش حيث توفي<sup>(١)</sup> في سنة ٦١٠ هـ ( ١٢١٣ م ) ربماً غمّاً وكمداً من نتيجة معركة العقاب التي كانت نذيراً بانحلال الدولة الموحدية وانهيارها . وقد خلف الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف ( الثاني ) الملقب بالمستنصر بالله ، والذي عقد معاهدة سلم مع قشتالة بعد وفاة ملكها الفونش ( الثامن ) . لكن الأندلس خسرت بهذه المدة بعض القواعد منها قصر الفتح ( قصر أبي دانس ) في شهر ربيع الأول سنة ٦١٤ هـ بيد ملك البرتغال الفونش ( الثالث ) وبمساعدة أسطول الصليبيين الألمان ، فاستسلمت المدينة بعد مقاومة وقتال مبررين .

### دروس وعبر من معركة حصن العقاب :

١ - بادىء ذي بدء نردد قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهذه الآية الكريمة لا تتعارض مع قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ فالآية الأولى تنطبق على ما آلت إليه شبه جزيرة أيبيريا بعد معركة العقاب الحاسمة ، وهذا الأمر المحزن لا يسىء إلى الإسلام الذي أدى رسالته خير أداء في تلك البقاع ، ولكنه كان نتيجة حتمية لمن حملوا راية الإسلام وهم في ضعف وتخاذل رغم كثرتهم العددية وكثرة عتادهم وكانوا يتباهون بكثرتهم ، ونسوا الله ربهم وناصرهم . والآية الثانية هي البشري العظيمة للمسلمين إذا صلح شأنهم بأنهم سيملكون الأرض كما ملكها أسلافهم حينما أخلصوا لله دينهم .

٢ - لقد اجتمعت عوامل كثيرة في هزيمة المسلمين في تلك المعركة منها :

(١) المرجع السابق .

( أ ) تتأزعمهم وإراقة دماء بعضهم بعضاً بأساليب رهيبة وبشعة تبعدهم عن الإسلام .

( ب ) عدم إخلاصهم دينهم لله تعالى وإيثارهم الدنيا على الآخرة .

( ج ) الزهو والإعجاب بكثرتهم - وأن الناصر لم يكن ورعاً كوالده (يعقوب) الذى كان دائم الذكر لله تعالى فى كثير من المواطن ، وكان يستدر عطفه ورحمته .

( د ) بطش الناصر بالقادة النبلاء وإصفاؤه لوسائل العملاء .

( هـ ) إجهاد جنوده واستنفاد طاقتهم بمحاصرة قلعة سريطرة المنيعه ، وعدم مبارحتها لملاقاة العدو مما فتّ فى عضد المقاتلين واستنفد الكثير من طاقتهم والمؤن والعتاد والذخيرة .

٣ - استصراخ الفونسو النبيل والبابا أنوسان الثالث ورودريك الطاليطلى جميع ملوك أوربا من جبال البرنيه إلى البحر الأسود للقضاء على المسلمين فى الأندلس ، واستخلاص الأراضى الأسبانية منهم .

٤ - استفادة الجيوش النصرانية بالخطط الحربية التى خاض بها المسلمون معركة الأرك ومنها تقديم فرق المتطوعة على سائر الجيوش النظامية ، وتوفير جميع وسائل الراحة للجنود ، وتوفير المؤونة والعتاد الحرى ، وعدم استنفاد طاقتهم بمحاصرة القلاع المنيعه كقلعة رباح التى رضوا بأن تسلم لهم بالمفاوضة مع المسلمين، وقلعة سريطرة التى تركوها لمنعتها ، كما توفر لجنودهم الإعداد الروحى - وهو ما يسمى بجهاز التوجيه المعنوى حديثاً - مما جعلهم ذوى روح معنوية عالية .

٥ - لم يستخدم الجيش الموحدى أسلوب مباغته العدو فى الوقت المناسب ، وكان أنسب وقت لمباغته هو فى بداية المعركة وقبل أن يباغتهم العدو .

٦ - لقد كان للمعارك التى خاضها الجيش الموحدى ضد الثائرين فى المغرب وفى الأندلس أثره البالغ فى إضعاف قوة الجند واستنفاد معداتهم .

٧ - استخدام النصارى كل أساليب الخداع لإيقاع جيش المسلمين فى شراكهم حتى خالطوهم على غفلة وفرّ المسلمون فراراً ما سُمعَ بمثله .

### التدرج من حيث القرابة والترتيب الزمني لخلفاء عبد المؤمن :

كما سبق القول آنفاً بأن عبد المؤمن بن علي هو التلميذ النجيب الذي اصطفاه أبو عبد الله بن تومرت ( مؤسس دولة الموحدين ) خليفة من بعده ، فلما توفى أبو عبد الله المهدي في رمضان من عام ٥٢٤هـ ، نُودي بعبد المؤمن خليفة للموحدين في أفريقية وفي جميع بلاد الأندلس ، وبوفاة عبد المؤمن بن علي في عام ٥٥٨هـ في سلا ( العاصمة الأولى للموحدين ) تولى الحكم بعده ابنه يوسف ( المكنى بأبي يعقوب ) وكان أبو يعقوب المنصور قائداً مغواراً حقق على الأسبان كثيراً من الانتصارات ، ووافقته المنية في عام ٥٨٠هـ ، بعد إصابته في محاولة الاستيلاء على قلعة شنترين ، ومنذ ذلك العام خلفه ابنه يعقوب ( المكنى بأبي يوسف ) وهو بطل معركة الأرك التي حدثت في عام ٥٩١هـ ، ووافاه الأجل ببر العدو في عام ٥٩٥هـ ، وقد لُقّب كلا الخليفتين أبي يعقوب (يوسف) وأبي يوسف (بالمنصور) ، وأعقب يعقوب المنصور ابنه محمد ( المكنى بأبي عبد الله ) ولقب بالناصر ، وهو الذي هُزم المسلمون في عهده هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة في الأندلس ، وأقصد بذلك معركة العقاب ( جمع عقبة ) التي حدثت في عام ٦٠٩هـ ، وعاد الناصر إلى مراكش مذموماً مدحوراً ، ومات بها كمدأ في عام ٦١٠هـ ، ثم خلف الناصر ابنه يوسف الثاني ( المكنى بأبي يعقوب ) ولقب بالمستنصر بالله ، وهو الذي عقد معاهدة سلم مع الفونش ملك قشتالة ، لكن الأندلس خسرت بهذه المعاهدة بعض القواعد منها قصر الفتح ( قصر أبي دانس ) في عام ٦١٤هـ - ويقول الدكتور حسين مؤنس عن هذا الخليفة في مقدمة كتاب الحلة السيرة لابن الأبار « وخلال السنوات العشر التي دامها حكم هذا المستنصر تغيرت نفسية أهل البيت الموحدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا بيتاً متحداً تجمعهم معنوية واحدة ، بل أشياخاً اقتعد كل منهم قاعدة من خِوان الملك الموحدى ، أو وظيفة من وظائفه الرئيسية في مراكش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمنى نفسه بها » . أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين باثني من أبناء يعقوب المنصور هما « أبو محمد عبد الله ( وكان يتولى مرسية )

وأبو العلا إدريس ( وكان يتولى قرطبة ) ، وشاركهما في هذا الطمع وأرى عليهما ابن عمهما عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ( الذي عرف أهل بيته بالبياسيين ) وكان يتولى أشبيلية ثم بلنسية ، وناصره والداه عبد الرحمن وعبد الله ، فأولئك نفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون ملك ما بقى للإسلام في الأندلس .

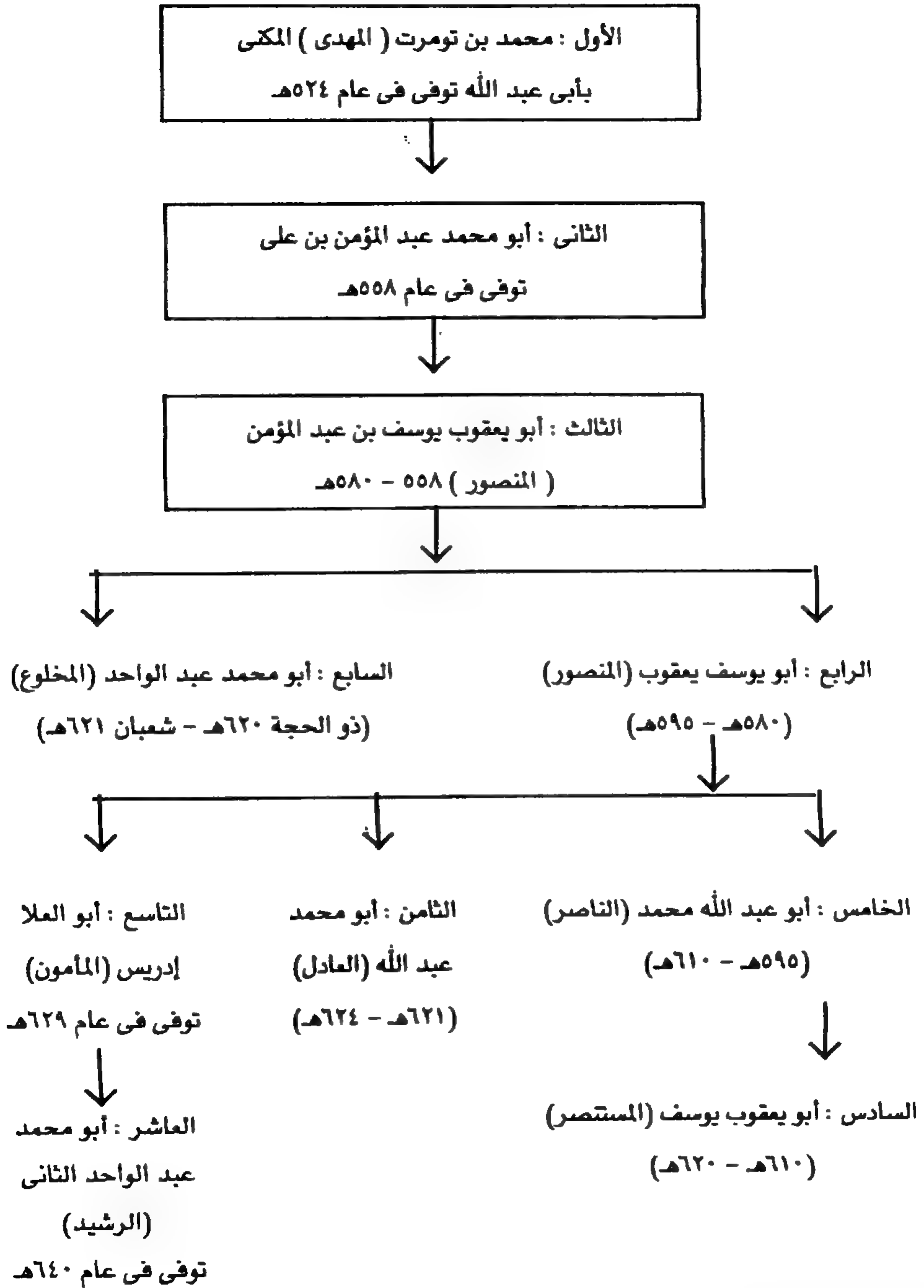
فلما تولى الخلافة بعد وفاة المستنصر أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب المنصور ، نهض ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن يعقوب وخلعه في العام التالى من تولية الحكم أى فى عام ٦٢١هـ ، وأعلن نفسه خليفة من بعده ، ولقب بالعدل ، وأيده فى ذلك أخوه أبو العلا إدريس ( صاحب قرطبة ) وابن عمه عبد الله البياس ( صاحب أشبيلية ) . وحدثت فى أيام العدل ( أبى محمد عبد الله ) فتن عظمت للإسلام والمسلمين بالأندلس ، وخاصة بعد تنكره لمن أيدوه على عمه ( عبد الواحد ) . فانضم العدل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلم له عدداً من بلاد المسلمين مثل فيجاطة وباجة ولوشة ، ولم يطل أمر العدل بعد هذه الأحداث ، لأن خلافاً شديداً نجم بينه وبين رجال دولته وقادته ، فقبضوا عليه ثم قتلوه فى عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م - وفى ذلك الوقت كان أخوه أبو العلا إدريس قد نادى بنفسه خليفة من أشبيلية وتلقب بالمأمون ، وخاض غمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذى كان قد نادى بنفسه أميراً على الأندلس ، فاضطر المأمون بعد أن يئس من النصر إلى العبور إلى مراكش ، ولم يتمتع بالأمان يوماً واحداً حتى أдал الله منه بابنه عبد الواحد الثانى ( المكنى بأبى محمد ) والذى لقب بالرشيد وذلك فى عام ٦٢٩هـ - واستمر الرشيد فى الحكم حتى عام ٦٤٠هـ .

\* \* \*

ويمكن استيعاب هذا التسلسل فى الوقائع والأشخاص بالرسم المشجر

التالى :

## جدول أمراء الموحدين(\*)



(\*) التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى ، ص ٤٦٦ .

**سقوط بعض القلاع الإسلامية عقب معركة العقاب :**

كانت معركة العقاب نذير شؤم على المسلمين في الأندلس ، وهي المعركة<sup>(١)</sup> التي فُقد فيها آلاف مؤلفة من المسلمين ، بل إنها إحدى الكوائن المنذرة بما آل إليه أمر الإسلام في الأندلس ، وقد سبق الإشارة إلى استسلام مدينة قصر أبي دانس في عام ٦١٤ هـ . في عصر المستنصر بالله الموحدى ، بعد أن جابهها الفونش البرتغالى بجيوش كثيفة ، وأمام ضغط هذه الجيوش عرض أهلها التسليم على أن يُسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ذلك ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم .. إلا أن النصارى دخلوا المدينة وقتلوا كل من كان بها وبالضياع المجاورة من المسلمين .

وفى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر صفر لعام ٦٢٧ هـ<sup>(٢)</sup> ( أول كانون الثانى يناير ١٢٢٠ م ) سقطت إحدى الجزائر الشرقية الثلاث ( ميورقة ومنورقة ويابسة ) ونعنى بها جزيرة ميورقة - سقطت فى قبضة جيوش متحدة ومتحالفة من أرغون بقيادة ملكها الطاغية جايْمِش بن بطره بن جايْمِش ( جاقمة بن بيدرو بن جاقمة ) وجيوش من فرنسا وإيطاليا - حيث أمعنوا فى أهلها قتلاً وسفكاً ، رافضين أى دعوة للمصالحة أو الاستسلام سلماً . وقد سُمى المؤرخون الأندلسيون سقوط ميورقة بالحادثة العظمى من قِبَل الروم على ميورقة ، أو الحادثة الشنعاء على أهل ميورقة - حدثت هذه الفاجعة حينما كان يقتتل الخليفة الموحدى الملقب بالمأمون مع محمد ابن يوسف بن هود الذى نادى بنفسه أميراً على الأندلس ، وتلا سقوط جزيرة ميورقة سقوط جزيرة اليابسة وهى صغرى الجزائر الثلاث . أما جزيرة منورقة فاستمرت فى الكفاح ضد مطامع النصارى ، ولم تسقط<sup>(٣)</sup> إلا بعد حوالى ستين سنة من سقوط ميورقة ( أى فى سنة ٦٨٦ هـ - ١٢٨٧ م ) حيث دخلها الجيش الأرجونى وأجلوا المسلمين عنها ، وغادرها حاكمها أبو عمر حكم بن سعيد بن حكم حاملاً رِمةً أبيه أبى عثمان متوجّهاً إلى مدينة سبتة بِيْر العُدوة ، بعد أن مكث أياماً بكل من المرية وغرناطة .

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٤٦٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال لعام (١) ٦٢٢ هـ ( ١٢٣٦ م ) سقطت حاضرة الإسلام الأولى فى الأندلس ، وأعنى بها مدينة قرطبة فى قبضة جيوش ملك قشتالة فرّاندة بن الفونش ( هرّانده بن الهنشّه ) أى فرناندو الثالث بن ألفونس التاسع . وقرطبة هى حاضرة الأندلس الكبرى ، وعاصمة الغرب الإسلامى ، والتى أفاضت خلال خمسة قرون أو أكثر على من فيها ومن حولها خيراً كثيراً وبركة ونوراً ، وامتد نورها إلى ما وراء جبال البرنيه ، وكانت مئوى الفضل ومرتوى للطلبة والعلماء ، وموطناً من مواطن النجدة والفروسية ، كما كانت ثغر جهاد ورباط دعوة ، وقد قاومت قرطبة مقاومة عنيفة ذلك الغازى الجبار ( فرناندو الثالث ) لكنها اضطرت أخيراً إلى التسليم ، فدخلها الأدفونش بعد إخراج أهلها منها ، وحول مسجد قرطبة الجامع إلى كنيسة ، وغنم ما فيها من قصور وذخائر وثروات .

### معركة أنيشة وسقوط بلنسية :

قبل سقوط قرطبة عاصمة الإسلام الأولى فى الأندلس (٢) - أصدر البابا جريجورى التاسع موسومه بإسباغ الصفة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية ، والتى بدأت فى عام ٦٢١ هـ ( ١٢٣٣ م ) حتى عام ٦٢٥ هـ ( ١٢٣٧ م ) وبلنسية هى المعقل الإسلامى الكبير الذى سقط بعد سقوط قرطبة التى سقطت فى عام ٦٢٣ هـ - وكان يحكم بلنسية آنئذ أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى . وقد وقعت خلال حروب الاستيلاء على بلنسية - معركة أنيشة ( أتيجة ) فى يوم الخميس الموفى عشرين من ذى الحجة لعام ٦٢٤ هـ ( ١٢٣٧ م ) .

وأنيشة حصن يقع شمالى مدينة بلنسية على بعد سبعة أميال - هاجمه الملك الأراجونى وهدمه - وابتى حصناً منيعاً يكون مركزاً لعيثه وأعماله الحربية ضد بلنسية . ولما أراد أبو جميل زيان انتزاع حصن أنيشة سار بقوة عسكرية اشترك فيها كثير من علماء بلنسية ، منهم كبير علماء الأندلس ومحدثيها : أبو الربيع

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

سليمان بن سالم الكلاعي ، وقد كان - رحمه الله - جندياً جريئاً خاض عدداً من المعارك ، وخاض معركة أنيشة في مقدمة المجاهدين ، وكان رحمه الله من ذوى الحزم والجرأة والبسالة والإقدام ، وكان يتولى بنفسه القيادة ، ويُبلى فيها بلاء حسناً ، وكانت هذه المعركة هي آخر معركة يخوضها ويُستشهد فيها ، حيث حضرها وحرص المسلمون ، ورغبهم في مكافحة العدو<sup>(١)</sup> ، ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار ، مقبلاً غير مدبر ، ينادى المنهزمين : أعن الجنة تفرُّون ؟ حتى قتل صابراً محتسباً غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستمئة . واستشهد معه علماء فضلاء ، وقد رثاه ورثاهم معه ابنُ الأَبار الأندلسي في قصيدة بلغت المائة بيت وبيت يقول فيها :

مَضَوْوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِدَمًا كَأَنَّمَا	يَطِيرُونَ مِنْ أَقْدَامِهِمْ بِقَوَائِمِ
يُرُونَ جِوَارَ اللَّهِ أَكْبَرَ مَغْنَمِ	كَذَلِكَ جِوَارُ اللَّهِ أَسْمَى الْمَغَانِمِ
أَلَا يَا بِي تِلْكَ الْوُجُوهُ سَوَاهِمَا	وَأَنْ كُنْ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَ سَوَاهِمِ
فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ الَّذِينَ تَقَرُّوْا	إِلَيْهِ بِإِهْدَاءِ النَّفْسِ الْكَرَائِمِ
مَوَاقِفَ أَبْرَارٍ قَضَوْا مِنْ جِهَادِهِمْ	حُقُوقًا عَلَيْهِمْ كَالْفُرُوضِ الْوَازِمِ
أُصِيبُوا وَكَانُوا فِي الْعِبَادَةِ أَسْوَةً	شَبَابًا وَشَيْبًا بِالْعَوَاشِي الْغَوَاشِمِ
سَقَى اللَّهُ أَشْلَاءَ بِسَفْحِ أَنْيَشَةٍ	سَوَافِحَ تُرْجِيهَا ثِقَالُ الْغَمَائِمِ
وَصَلَّى عَلَيْهَا أَنْفُسًا طَابَ ذِكْرُهَا	فَطِيبَ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ
لَقَدْ صَبَرُوا فِيهَا كِرَامًا وَصَابَرُوا	فَلَا غَرَوَانِ فَازُوا بِصَفْوِ الْمَكَارِمِ
وَيَا أَيُّهَا الْمُخْتَوِّمُ بِالْفُوزِ سَعْيُهُ	أَلَا إِنَّمَا الْأَعْمَالُ حَسَنُ الْخَوَاتِمِ

\* \* \*

هكذا وجدنا في الوقت الذي تغيبُ شمس الإسلام عن الأندلس رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم مَنْ قضَى نَحْبَهُ ومنهم مَنْ ينتظر ، حدث هذا في الوقت الذي شدَّ الموحدون رحالهم إلى البرِّ الأفريقي بعد أن دالت دولتهم عن

(١) المرجع السابق .

الأندلس منذ عام ٦٢٢ هـ . وتركوا خلفهم رعية بلا راع ، ورجالاً بلا سلاح اللهم إلا سلاح الإيمان ، ولعل المآسى التى وقعت فى عهد الموحدين غطت على ما حققوه من انتصارات ، ولم يبرز منهم فى ميدان الجهاد ضد العدو الصليبي سوى أميرين بارزين هما : أبو يعقوب المنصور وخلفه أبو يوسف يعقوب المنصور .

على أن معركة أنيشة التى خاضها سكان بلنسية بقيادة أميرهم أبو جميل زيان ، ضد الأرجونيين بقيادة ملكهم جاقمة الأرجونى ، كانت بين قوتين غير متكافئتين . ولذا أبدت الخطأ واتخاذ الحيطة والأهبة واستصراخ الأخوة فى الأندلس والمغرب .

وبعد تحطيم قوى المسلمين فى معركة أنيشة تجهز ملك أرغون<sup>(١)</sup> جايماش ( جاقمة ) لإسقاط بلنسية ، فبدأ حصارها فى رمضان سنة ٦٢٥ هـ ( ١٢٢٧ م ) وكان معه كثير من الجند الوافدين : من فرسان بقيادة مطران مدينة أربونة وآخرون من جنوة . فشددوا عليها الحصار وخرّبوها بالآلات الحربية ، وقد صمم السكان على الدفاع حتى الرمح الأخير . وأرسل أميرها أبو جميل زيان سفراءه إلى بعض المدن الأندلسية طالباً النجدة ، فوجه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله ابن محمد بن خلف الأنصارى إلى مدينة مرسية يستمد العون من أهلها . وأرسل كاتبه ووزيره العلامة الأديب المؤرخ ابن الأبار مع وفد من بلنسية إلى إخوانه فى العدو المغربية يستجدهم ، وقد توجه الوفد إلى الحفصيين فى تونس ، يستجد أميرها أبا زكريا يحيى بن أبى حفص ، ويستصرخه لنجدة سريعة لهذه المدينة المحاصرة ، وقد ألقى ابن الأبار قصيدته السينية أمام هذا الأمير فى جمع كبير من الناس والتى مطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله أندلساً      إن السبيل إلى منجاتها درسا

وسنورد إن شاء الله جزءاً من هذه القصيدة فى خاتمة هذا الكتاب ضمن قصائد الرثاء لهذا الفردوس المفقود .

(١) المرجع السابق .

واستمر حصار الطاغية بلنسية من الخامس من رمضان لعام ٦٢٥هـ حتى يوم الثلاثاء سابع عشر من صفر لسنة ٦٢٦هـ ، وذلك بعد أن استولى الجوع وضعفت قُوى المحاصرين وأكلت الجلود والزقوق ، وبلغ الكتاب أجله ، فكانت المరాوضة على إسلام البلد والخروج منه فى الرابع عشر من صفر لعام ٦٢٦هـ ، بعد المنازلة والصمود . حيث خرج أبو جميل والشهود ، وعقد الصلح بعدها على دانية وقلبيرة ، وكان الرزء فى أخذ بلنسية عظيماً والخطب فيها أليماً ، وهكذا استسلم هذا الحصن الحصين من قلاع الإسلام فى الأندلس للطاغية الأرجونى بعد قتال عنيف بلغت مدته أربع سنوات بين قوتين غير متكافئتين ، استسلمت بلنسية قبل أن يصلها المدد من أى جهة توجهت إليها الوفود .

هذا ما كان من أمر بلنسية وما آلت إليه من مصير مؤلم ومفجع ، وما حدث قبلها للمسلمين من وقعة أنيشة فى عام ٦٢٤هـ التى قال عنها<sup>(١)</sup> ابن الخطيب فى أعمال الأعلام فى معرض الحديث عن أمير بلنسية زيّان بن مدافع « كانت عليه الوقعة بأنيشة من ظاهر بلنسية ، وهلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه إلا الله ، وكلّب عليهم عدوُ الشرق ، ويئسوا من نصرة أهل الأندلس وأهل المغرب » . فماذا كان من أمير تونس الذى استصرخه أهل بلنسية يقول ابن الخطيب : « فتعلّقوا ببيعة الأمير أبى زكريا بتونس واستصرخوه .. ولم يصل جوابه إلاً والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٢٥هـ . فقد بادر الأمير الحفصى ( أمير تونس ) بتجهيز أسطول شحنه بالمؤونة والسلاح من ثمانى عشرة سفينة كبيرة وصغيرة ، اتجهت إلى بلنسية ، فى صحبه ابن الأبار وبقية الوفد الأندلسى ، لكن هذه السفن فشلت فى إيصال الإمدادات إلى المدينة المنكوبة لشدة الحصار حولها ، واضطرت لإفراغ المؤن فى ثغردانية جنوبىً بلنسية ، وهكذا ضاق الحال بأهل المدينة الباسلة ودهمهم الجوع لانعدام المورد وفناء الأقوات ، فى حين كان المعسكر الأرجونى فى سعة من أمره « وواصل عدوُ الله جاقمة ملك أرغون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدة القتال ، وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ،

(١) التاريخ الأندلسى ، د. عبد الرحمن الحجى ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

والنصارى تتوارد أمدادهم إلى أن استسلمت المدينة فى يوم الثلاثاء سابع عشر من صفر سنة ٦٣٦هـ ( سبتمبر ١٢٣٨م ) .

وعند احتلال الطاغية الأرغونى ومن معه<sup>(١)</sup> بلنسية - بعد استسلامها - رحل عنها عشرات الآلاف من أهلها ، بلغت خمسين ألفاً وتحولت - للفور مساجدها إلى كنائس ، ونال المسلمون كل أنواع الاضطهاد ، وتقلبوا فى قتون الأذى ، وتعدى الأحياء إلى الأموات فى قبورهم فتبشت . طمساً لى أثر لأعلام المسلمين فى المدينة، وهى تصرفات وأساليب<sup>(٢)</sup> مُفرية فى الإنحراف ، عريقة فى الهبوط بعيدة عن أية رفعة ، مجردة من أدنى فضيلة . وتلا سقوط بلنسية سقوط عدد من المدن القريبة مثل جزيرة شُقر أواخر سنة ٦٣٩هـ ودانية فى ذى الحجة سنة ٦٤١هـ - وجيان سنة ٦٤٢هـ ، وشاطبة فى رمضان سنة ٦٤٥هـ .

### سقوط أشبيلية ومرسية فى يد الأسبان :

ذكرنا أنه قد تلا فجيعة المسلمين فجائع أشد هولاً وأبعد أثراً ، فتلا سقوطها سقوط جزيرة شقر ودانية وجيان وشاطبة ، وفى معرض وصف ابن الأبار لاستيلاء الطاغية البرشلونى على دانية يقول « وفى وقتنا<sup>(٣)</sup> هذا وصل بعض الشاطبيين يخبر أنه أجلاهم عنها مع أصل جهاتها - وهم ألوف من المسلمين - فتفرقوا فى البلاد .»

أما أشبيلية فسقطت بيد ملك قشتالة فرأندة ( هرأندة بن الهنشة ) فرناندو الثالث فى عام ٦٤٦هـ ( ١٢٤٨م ) وذلك بعد أعمال حربية لعدة سنوات ، وحصار طويل استمر حوالى سنة ونصف سنة ابتداء من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٥هـ حتى أول شعبان أو أواخر سنة ٦٤٦هـ . حيث اضطرت المدينة بعد ذلك للتسليم بشروط منها رحيل أهلها آمنين ، ويذكر صاحب كتاب التاريخ الأندلسى نقلاً عن المؤرخ يوسف أشباخ « تجرّع أهل أشبيلية كثيراً من الأذى ونالهم الأسى ، أشد منه ، وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى ، يجللهم النكد ويفريهم فراق البلد ، غادرها من أهلها

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

ما يقدر بأربع مائة ألف ، قصدوا مدن الأندلس أو العدو الأخرى . ذلك في رمضان من نفس العام ( ٦٤٦ هـ ) - ويصف ابن عذارى ذلك وهو يشرح أحداث عام ٦٤٦ هـ - حيث « جرّعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام .. فسلموا لهم المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام » .

وبالنسبة لسقوط مرسية<sup>(١)</sup> يذكر ابن عذارى - أيضاً - في البيان المغرب أنه بعد استسلام مدينة مرسية صلحاً لجايمنش ملك أرغون سنة ٦٦٤ هـ . دخلها بجيشه ، لم يرعوا في المسلمين عهداً ولا أدنى حد للإنسانية ، حيث تركها أهلها « وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة . فسكنوا بها مدة من عشر أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان ، حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين ، وغدروهم في الطريق أجمعين ، وذلك بموضع يعرف بوركمان ، فسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال ، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح ، فتحكموا فيهم كيف شاءوا بالسيوف والرماح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

هكذا سقط بيد ملوك أسبانيا الشمالية ومن ساعدتهم من الصليبيين عدد من قواعد الإسلام في الأندلس ، في هذه المدة التي عاصرت نهاية الدولة الموحدية ، ومع هذا فقد استطاع المسلمون في الأندلس المحافظة على بعض المناطق في جنوب الجزيرة حيث قامت دولة غرناطة التي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله ، ويمكننا تسميتها الأندلس الصغرى ممثلة في غرناطة التي قامت بعد انهيار الأندلس الكبرى .

### نهاية دولة الموحدين بالأندلس وأفريقية :

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى الخليفة<sup>(٢)</sup> محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك إلى تحطيم سلطان الموحدين بالمغرب - ويقول المؤرخ

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

يوسف أشباخ » وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم في موقعة العقاب - بما كان يملئ الذكاء وضعف العدو - فإن الخلافة الموحدية التي جُرِّدت من كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع الفونسو النبيل طوال حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة مع ليون .

وبسقوط الموحدين في الأندلس والمغرب قامت مقامهم أسر لا تضارعهم في قوتها ومنعتها ، فبعد أن غادر محمد الناصر ميدان المعركة الذي غص بالقتلى من خيرة جنده أسرع إلى أشبيلية وهناك سحق في بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا في مقدمة الفارين من الموقعة .

وفي هذه الآونة حيث أصبحت<sup>(١)</sup> دولة الموحدين من الضعف بمكان لا تستطيع مجابهة الثائرين ، استولى محمد بن هود من الموحدين على مرسية (٦٢٥هـ) ، ونادى بنفسه أميراً باسم المتوكل على الله ، وحاول أن يكسب ود الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين . فاذاع أن يسعى إلى تحريرهم من نير المغاربة المرهق ، وأنه لن يفرض عليهم سوى الضرائب الشرعية ، وأنه يعمل على إقامة شريعة الإسلام الحقة ، وأعلن المتوكل أن الموحدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التي دنسها فقهاؤهم ، وارتدى السواد بهذه المناسبة وأمر الزعماء بارتدائه - لا باعتباره شعار الحداد كما يقول رودريك الطليطلى - ولكن لكي يميز حزيه عن غيره ، وذلك لأن المتوكل رأى أن يعترف بسيادة بنى العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، ولكي يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يمض سوى وقت قليل حتى سارعت - بعد مرسية - معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ومبايعته ، ومنها مدن جيّان وقرطبة ( قبل سقوطها في يد النصارى ) وماردة وبطليوس ، وزاد في قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود

(١) المرجع السابق .

لنصارى سافكى دماء المسلمين ، وأن الخليفة العباسى قد أقر إمارته على الأندلس ، واضطر المتوكل فى بدء إمارته أن يخوض مع الفونسو التاسع ملك ليون معارك شديدة ، واستطاع الفونسو أن يفتح عدة حصون على الحدود فى مقاطعة استرامادورة ، وأن يهزم جيش المتوكل الضخم فى معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهى مدينة عظيمة على ضفة وادى يانة ، وعلى بطليوس وهى إحدى الحصون المنيعه وذلك فى سنة ٦٢٧هـ ( ١٢٣٠م ) .

ولم يسع المتوكل لاسترداد هذه الحصون<sup>(١)</sup> أو بعضها ، وإنما لم يدخر وسعاً فى السعى لإسقاط المأمون الموحدى ( الخليفة التاسع ) أو معاونة منازعه على العرش يحيى بن الناصر ، وكان قد أرسل من جديد جنداً من العدو لمحاربة المأمون فى الأندلس - وبمساعدة الشعب الأندلسى استطاع أن يهزم زعيم الموحدين ، ولم يجد الموحدون سبيلاً للاحتفاظ بما تبقى لديهم من مدن سوى عون النصارى الأسبان - كما يقول المؤرخ يوسف أشباح - مثلما حاول الأمويون فى الأندلس ثم المرابطون فى آخر أيامهم ، لكى يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة ، فكذلك كان شأن الموحدين ، ولقد اتخذ أمير المؤمنين المأمون الموحدى اثنى عشر ألفاً من المرتزقة الأسبان ، وأرسلهم إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش ، ونزل لقاء ذلك عن عشرة حصون لملك قشتالة ودفع له مبالغ طائلة .

ولكن الأندلسيين لم تكن ترضيهم محالفة النصارى ، بل إن هذه المحالفة التى وثّقها المأمون دفعتهم إلى معاونة خصومه ، وفى ذلك الوقت العصيب فُقدت مقاطعة بلنسية الخصبة الغنية بمواردها ، ذلك أن واليها أبا عبد الله محمد أخا المأمون لجأ لحماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين إلى طلب العون من خايمى الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدى له الجزية .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذى رفع ابن أخيه زكريا إلى العرش أن يحصل لمرشحه على المبايعة العامة ، ولكن الحزب المعارض كان أقوى فعمل بتأييد

(١) المرجع السابق ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

الحرس النصراني على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد ، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره وتلقب بالرشيد واعترف بولايته معظم أقطار المغرب وقسم من الأندلس يشمل أشبيلية والجزيرة ، أما يحيى بن الناصر فقد استمر أربعة أعوام أخرى يخوض معارك دموية ضد الرشيد ، كان يُهزم فيها دائماً ، ثم توفي على مقرية من فاس في رمضان ٦٢٢ هـ ( ١٢٢٦ م ) ولكن لم تقطع بوفاته دسائس الأحزاب المختلفة ، وهي دسائس جدُّ عبد الواحد في قمعها ، وهكذا استمر يعيش محوطاً بالقلق والفتن ، حتى وقع حادث سيئ أودى بحياته فجأة ، ذلك أن جواده جمع ذات يوم وركض به إلى بركة في حديقة فغرق وتوفي في التاسع من جمادى الأولى سنة ٦٤٠ هـ ( ديسمبر سنة ١٢٤٢ م ) - وذلك بعد حكم دام عشرة أعوام ، وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبي الحسن الملقب بالسعيد سلطاناً عليهم ، بيد أنه هزم في معركة بينه وبين يحيى بن زيّان أمير تلمسان وقتل أثناءها ، ولم يمض على حكمه ستة أعوام ، وكان مقتله في ٢٩ من صفر سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م ) ، وفي أثناء حكم أبي الحسن السعيد حاصر النصارى مدينة أشبيلية ، وهي آخر قاعدة كبيرة بقيت في يد الموحدين بالأندلس ، ولم يستطع أن يمدّها بالمعونة الكافية فسقطت في يد فرناند الثالث ملك قشتالة قبل وفاة السعيد بأيام معدودات .

وهكذا انطفأت جذوة دولة الموحدين التي لم يستمر كفاحها في الأندلس أكثر من قرن من الزمان ( ٥٤١ - ٦٤٠ هـ ) وقد كانت نهايتها كنهاية المرابطين من قبل ، ولم يستطع حلفاؤها النصارى الذين استعان بهم خليفتهم عبد الواحد ومن تلاه أن يبقوا على هذه الدولة ، كما لم يستطيعوا من قبل أن يبقوا على دولة المرابطين حين اكتسحهم الموحدون - وإنما كانت نهاية دولة الموحدين هي العلامة الكبرى لغروب شمس الإسلام عن الأندلس ، وإن قيام بعض الزعامات المحلية والنزعات الاستقلالية لم تكن سوى تأجيل مؤقت لاجتثاث المسلمين عن تلك البلاد .

## الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين :

منذ أن دب الوهن في دولة الموحدين قامت زعامات محلية<sup>(١)</sup> بالاستقلال عنها في كل من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وفي بلاد الأندلس . ففي المغرب الأقصى ظهرت دولة بنى مرين إحدى قبائل زناتة ، وكان لهم دور بطولى في معركة الأرك مع يعقوب المنصور ، وكان زعيمهم في بداية تأسيس دولتهم الأمير عبد الحق ابن محيو<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦١٤ هـ . واستمرت هذه الدولة حوالى قرنين ونصف قرن . وكان لها مجهود واضح في معاونة مملكة غرناطة بالأندلس ضد عدوان أسبانيا الشمالية . اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ثم تحولوا إلى مدينة مراكش . حين استيلائهم عليها وإنهاء حكم الموحدين (بالمغرب الأقصى) في عام ٨٦٨ هـ (١٢٦١ م) .

وفي المغرب الأوسط ( الجزائر ) استقل بنو زيان من بنى عبد الراد عن الدولة الموحدية ، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم سنة ٦٢٢ هـ وكان زعيمهم آتئذ يغمُراسن ابن زيان بن ثابت ، واستمرت دولتهم حوالى ثلاثة قرون .

كما استقل بنو حفص في المغرب الأدنى ( تونس ) فأقاموا دولتهم هناك بزعامة عبَّوا ( عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص ) حوالى سنة ٦٢٢ هـ واستمرت دولتهم ما يزيد عن القرن .

أما في الأندلس فإن أول شخصية<sup>(٣)</sup> أندلسية ظهرت في الميدان واستقلت عن الخلافة الموحدية فهي شخصية أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى الذى لقب بأمير المسلمين سيف الدولة المتوكل على الله ، كان يسكن مدينة مرسية ومن الأجناد فيها ، حيث بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ، ودخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية هي مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومارجة والمرية وغيرها ، وقال عنه

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٤٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٨ ، ٥١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥١٣ ، ٥١٤ .

صاحب التاريخ الأندلسي نقلاً عن آخرين : إنه كان قليل المبالاة تغلب على تحركه الخفة والاستعجال ، لذلك خسر بعض المعارك حيث نازل فرأندة الثالث ملك قشتالة ووالده ألفونس التاسع ملك ليون ، وعمل على إنهاء سلطان الموحيدين في الأندلس حين عجزوا عن حمايتها ضد الأخطار وهجمات أسبانيا النصرانية ، وفي رأى بعض المؤرخين أن ابن هود لم يكن في مستوى مقدرة قيادية تعينه في مثل تلك الظروف على الاحتفاظ بالأندلس ، وابن سعيد الأندلسي المتوفى سنة ٦٨٥هـ يقول عنه : يعتبر تولّى ابن هود أمر الأندلس ضاراً بها حيث وجد فيها قلوباً منحرفة عن دولة برّ العدو ، مهيأة للاستبداد فملكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأى . وعلى النقيض من هذا الرأى كان رأى ابن الخطيب فيه فيرى أنه كان شجاعاً كريماً حياً وفياً متوكلاً عليه ، سليم الصدر قليل المبالاة بالأمور « ولذلك كان محدوداً لم ينصر به جيش ولا وفق له رأى لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد » ولا أدري هل مدحه ابن الخطيب أم قدحه .

وكان ابن هود للأوصاف التي أوردها عنه ابن الخطيب<sup>(١)</sup> غير موفق في استرداد ما استولى عليه ملوك أسبانيا النصرانية من البلاد الإسلامية التي سقطت في عهده ، منها قرطبة العاصمة التالدة حيث حاصرها ملك قشتالة فرأندة ( فرناندو الثالث ) وتأهب أهلها للدفاع والاستماتة وطلبوا الفوث من ابن هود إلا أنه نكل عن نصرتهم ، وترك المدينة لمصيرها المؤلم ، في وقت كانت الأندلس تنهار أمام هجوم عدد من ملوك أسبانيا النصرانية ، على حين كانت هذه الملوك تزداد قوة على حساب الأندلس وتتضافر للقضاء على المسلمين فيها . وقد توفى ابن هود في مدينة المرية أوائل عام ٦٢٥هـ وهو يعد نفسه لإنجاد بلنسية وأميرها أبى جميل زيان .

وبوفاة ابن هود انتهت دولته التي اتخذ مرسية عاصمة لها ، وبذلك أفسح المكان لمنافسه في الاستقلال والولاية ، وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

المعروف بابن الأحمر ، الذي استطاع أن يكون قوة أمكنها الاحتفاظ ببعض مناطق جنوبى الأندلس ، حيث أسس مملكة غرناطة أو الأندلس الصغرى ( الصغيرة ) وورثه بعد وفاته أبنائه الذين تعاقبوا على الحكم حتى سقوط هذه المملكة الصغيرة فى يد الملكين الكاثوليكين فرأندة الخامس ملك أرجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ، بعد أن حاصروا هذه المدينة حصاراً طويلاً خربت خلاله المزارع والمحاصيل ، وتضور الناس جوعاً وقطعوا كل أمل ، جرى ذلك فى سنة ٨٩٧هـ ( ١٤٩٢م ) . واستسلمت المدينة لهذين الملكين على شروط اتفق عليها ثم نُقضت شيئاً فشيئاً على مراحل .

### دولة بنى الأحمر فى غرناطة ونهايتها :

لما ضعفت دولة الموحدين ودخلها الوهن<sup>(١)</sup> ، قام ابن الأحمر وقضى على سلطانهم بالأندلس فى عام ٦٢٩هـ ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة ، واستمر الملك فى بيته أمداً طويلاً ( ٦٢٩ - ٨٩٧هـ ) أى أنها عمرت - رغم الصعوبات المتعددة فى الداخل والخارج - ما يزيد على قرنين ونصف قرن ، وتوالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكماً ( سلطاناً ) وظهرت بغرناطة شخصيات سياسية لها كفاءات عالية وقدرات ممتازة .

ينتسب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة<sup>(٢)</sup> الأنصارى ، وأول ملوكهم - كما سبق القول - هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الخزرجى الأنصارى ، وقد ملك غرناطة فى رمضان سنة ٦٢٥هـ إلى أن توفى فى عام ٦٧١هـ ، وخلفه ابنه أبو عبد الله الثانى ( ٦٧١ - ٧٠١هـ ) وهكذا تعاقب الخلفاء وكنيتهم فى أغلب الأحوال أبو عبد الله ، وقد حكم من ملوك هذه الدولة كثير ، وكانوا يلقبون أنفسهم أمراء المسلمين - ولقد استردوا معظم بلاد الأندلس من الأسبانيين - ومنعوا الأتاوة التى كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا ، واستكثروا من الجيوش والأساطيل ، وخلال مدة القرنين والنصف التى حكموا فيها الأندلس الصغرى انتعش الأدب ، وكثرت العلوم والفنون

(١) قصة الأدب فى الأندلس ص ٧٢ ، التاريخ الأندلسى ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) قصة الأدب فى الأندلس من ص ٧٢ إلى ص ٧٦ .

ومن سلاطينهم الذين ازدهر في عهدهم الأدب وكثرت العلوم والفنون أبو الحجاج يوسف وابنه محمد في الفترة من ٧٢٤هـ إلى ٧٦٠هـ وقد تولى لكليهما الوزارة الأديب الكبير والشاعر الشهير لسان الدين بن الخطيب .

ثم ضعف السلاطين لكثرة الخلافات والثورات والخصومات ، ورضوا بأن يقدموا الجزية لفرناند ملك أرغون وزوجته ملكة قشتالة ، ثم أخذ الأسبانيون يحيطون بقرنطة ويحاصرونها من كل جهة ، حتى أتم فرناند محاصرتها في عام ٨٩٦هـ - فاضطر آخر ملوك قرنطة أبو عبد الله عقد معاهدة صلح بينه وبين الأسبانيين وتسليم قرنطة لفرناندو إيزابيلا وبذلك سقطت المدينة في أيدي الأسبانيين ، وانتهت دولة العرب والإسلام في أسبانيا ( في سنة ٨٩٧هـ ) .

ولم تسقط قرنطة إلا بعد أن حاصر الأسبان والبرتغاليون سواحل الأندلس الجنوبية ، واستولوا عليها قبل ذلك بمدة كبيرة ، فاستولوا في برّ العدو على سبتة عام ٨١٨هـ وفي جنوبي الأندلس على جبل طارق عام ٨٦٩هـ وفي ذات العام استولوا على طنجة - واستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ما عدا قرنطة وأقليمها ، وكان يحتوى على نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتي حصن وقلعة .

وكان سقوط قرنطة في أيدي الصليبيين الأسبان<sup>(١)</sup> - بعد أربعين عاماً من سقوط القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك في عام ٨٥٧هـ . وكان سقوط قرنطة بعد حصار دام سبعة أشهر أنك المحاصرين حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضاً - كما كان سقوطها نتيجة لضعف بني الأحمر ، وضعف سلطانهم السياسى ، وكان حكام المغرب عاجزين عن نجدة المسلمين في الأندلس ، إذ كانوا في ضعف وتخاذل وانقسام شديد ، وكان ملك المغرب<sup>(٢)</sup> من بني مرين هو السلطان عبد الحق بن سعيد

(١) قصة الأدب في الأندلس ، من ص ٧٢ إلى ص ٧٦ .

(٢) هذا ما ذكره الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه قصة الأدب في الأندلس . والحقيقة أن بني مرين قد دالت دولتهم في ذلك الوقت وآل الأمر من بعدهم إلى بني وطّاس منذ عام ٨٦٩هـ ، المؤلف .

المتوفى عام ٩٢٠هـ قد وفد عليه فى فاس سلطان غرناطة بعد تسليمه المدينة لفرديناند وزوجته إيزابيلا ، وقد أكرم سلطان المغرب وفادته هو وأسرتة .

وقد اشتملت شروط الصلح التى وضعها أبو عبد الله بن على آخر ملوك بنى الأحمر على سبعة وستين شرطاً ، تنص كلها على تأمين المسلمين فى الأندلس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وحرىاتهم الدينية ، وعدم الحيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاء أحدهم ذلك . ولم يف الأسبان المغتصبون بشيء من هذه الشروط . وكان تسليم أبى عبد الله بن الأحمر لغرناطة فى الثانى من ربيع الأول عام ٨٩٧هـ ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات فى عام ٩٤٠هـ .

وقد عامل الأسبان المسلمون بقسوة لا مثيل لها ، ولما ثار جماعة من السياسيين وهم من عرب الأندلس - فى مدينة غرناطة أخدمت ثورتهم بقسوة وضراوة ، وقامت محاكم التفتيش للبحث عن المسلمين والتكيل بهم ، وفى عام ٩٧٠هـ ( ١٥٦٣م ) ثار أحد سلالة بنى سراج واسمه فرج بن فرج ولجأ إلى جبال البشترات وتبعه كثيرون من غرناطة ، ونادوا بأحد حفدة خلفاء قرطبة ملكاً عليهم باسم محمد بن أمية ، واستمرت هذه الثورة عامين ، وقد خلع المسلمون فى أثائها ابن أمية وولوا أمرهم عبد الله بن أبيه ، وهو أحد الزعماء المشهورين بالبطولة ، وما زالوا يجاهدون حتى غلبوا على أمرهم ، وعلّق الأسبان رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة ثلاثين عاماً - وأخذوا يطردون العرب المسلمين من بلادهم جملة - حتى وصل عدد الذين طُردوا من الأندلس ثلاثة ملايين . وكانت نكبة الأندلس فى عهد بايزيد الثانى سلطان تركيا ، وقايتباى سلطان مصر - وقد اتفق الملكان على أن يغزوا أسبانيا بأسطول كبير يسيّره ملك تركيا ، وجيش برى يسيّره قايتباى من مصر ، ولكن بايزيد شغل بثورة سياسية<sup>(١)</sup> فى مملكته ، كما أرسل الأسبان رسولاً إلى قايتباى أدلى بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس ، ولم تجد الرسائل التى أرسلها بايزيد الثانى وقايتباى إلى البابا وملكى أسبانيا والبرتغال شيئاً ، فى تخفيف معاملة الأسبان

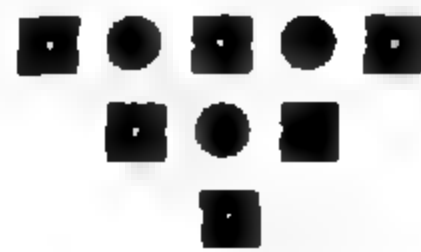
(١) المصدر السابق ، من ص ٧٢ إلى ٧٦ .

للمسلمين المغلوبين في بلادهم - وهكذا أراد الله ولا راداً لمشيئته ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ( آل عمران - الآية ٢٦ ) .

وأخيراً وليس آخراً نظرة تأمل إلى القصة التي ساقها لنا الأستاذ أحمد حسن الزيات على صفحات مجلة العربى بعنوان « آخر فارس في آخر مدينة » وهى قصة نادرة لم توردتها كتب الأدب العربى أو التاريخ الإسلامى ، وإنما نقلها عن مصدر غريب ، شهد فيه ببطولة نادرة لأحد فتيان غرناطة العربى الأصل المسلم ديناً وغيرةً ، واسمه موسى بن أبى غسان . ذلك حينما سلّم أبو عبد الله مدينة غرناطة لأعدائه ثم خرج منها هو وأفراد أسرته ، وهناك على ربوة عالية راح ينظر إلى قصور الحمراء وما يكتنفها من حدائق غناء ، فعزّز عليه أن يترك هذا الملك لأعدائه ويخرج ذليلاً مهيناً ثم ذرفت عيناه دمعة حزن وأسى ، فلما شاهدته أمّه عائشة على هذه الحال قالت له :

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً      لم تحافظ عليه مثل الرجال

ثم أورد لنا الكاتب قصة البطل موسى بن أبى غسان الذى رفض أن تسلّم المدينة لأعداء البلاد ، ودعا إلى المقاومة حتى الرمح الأخير ، ولما لم يجد ملجأً لدعوته تقلّد سيفه وامتنطى جواده وراح يقاتل الأعداء بضراوة وشجاعة نادرة ، وحاولوا أن يأسروه حياً فلم يستطيعوا ولما أثخنه الجراح ، وخارت قوى فرسه وخزه نحو نهر الوادى الكبير ففاص به فى ذلك النهر ، ولم يظفر به الأعداء حياً أو ميتاً .



الفصل الخامس

## الخاتمة ورثاء الأندلس



## الختام

### ماذا عن دولة بني الأحمر

فى عجلة وفى اختصار شديدىن تكلمنا فى هذا البحث عن دولة غرناطة أو الأندلس الصفرى ، وهى التى ورثت جزءاً من ميراث الموحدين فى الأندلس ، منذ قيام هذه المملكة فى عام ٦٢٥هـ ( ١٢٢٨م ) حتى سقوطها فى يد الملكىن الكاثوليكىين ملك أراغون فردىناند الخامس وزوجته إىزابىلا ملكة قشتالة . وذلك فى عام ٨٩٧هـ ( ١٤٩٢م ) - وقبل أن نتهى هذا البحث يجدر بنا أن نتكلم قليلاً عن بعض كفاح هذه الدولة فى سبىل الحفاظ على الإسلام والمسلمىن فى شبة جزيرة أىبرىا ، وذلك لقرنىن أو أكثر من الزمان بعد غىاب شمس الموحدين . كما يجدر بنا أيضاً أن نتحدث عن كفاح بنى مرىن ( ورثة الموحدين فى المغرب الأقصى ) فى الوقوف بجانب هذه الدولة الناشئة والصاعدة أمام مطامع ملوك أسبانيا النصرانىة وحلفائهم الأوربىين .

لقد قامت هذه الدولة فى الوقت الذى رحلت عن الأندلس جحافل المسلمىن ، ممثلة فى جىوش الموحدين المنهزمة أمام أسبانيا النصرانىة فى مىادين كثيرة ، وأمام الجىوش الشائرة من مسلمى الأندلس فى مىادين أخرى ، واستطاعت هذه الدولة الصغىرة أن تحافظ - بقدر الإمكان - على السمات الإسلامىة فى المناطق الواقعة فى حوزتها ، وهى تلك البقعة الأندلسىة الصغىرة التى آلت إليها ، أملاً فى الاستمرار<sup>(١)</sup> بالأندلس فى الوجود ، لكن العوامل الداخلىة ثم الخارجىة ساقطتها إلى تلك النهاية المروعة الكئىبة فاندفعت إلى نهايتها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن سياسة التعصب والحقْد المقيت - التى عاملت بها السلطات الأسبانىة النصرانىة الغالبة بقايا المجموعات الأندلسىة المسلمة المغلوبة - قضت على وجود

---

(١) التاريخ الأندلسى ، ص ٥١٦ .

المسلمين ، بل حُرِّمَ بعضهم حقُّ البقاء ، فكانوا طُعْمَةً للفناء ، لاقَوْا خلال ذلك أسوأ ما عومل به مغلوب ، لا سيما من له عند الغالب أيادٍ بيضاء سلفت .

وقد سلكت دول أسبانيا النصرانية<sup>(١)</sup> مع المسلمين المغلوبين سياسة عجيبة للتصير ومحو الشخصية الإسلامية ، حيث أطلقت على من بقى من المسلمين فى مناطق نودها ( المدجنين ) ، فكان سقوط أى بقعة أو حصن فى قبضة أسبانيا النصرانية لا يعنى انتهاء الوجود السياسى فحسب بل هى حرب الإفناء فى العقيدة وفى الوجود البشرى ، هذا ما كان يُعطى طابعاً مربعاً لتصارُع أسبانيا النصرانية ضد بقايا الأمة المسلمة الأندلسية فى مملكة غرناطة .

والتدجين ( أو التطبيع بالمنطق العصرى ) أطلق على هؤلاء المغلوبين الذين بقوا فى أسبانيا بعد زوال السلطة والحكم الإسلامى ، ولم يرحلوا فراراً بدينهم وهويتهم .

وهذه السياسة تعنى أن مَنْ بقى من هؤلاء المسلمين فى تلك البلاد<sup>(٢)</sup> يحرم عليهم مزاوله شعائرتهم أو إظهار إسلامهم ، ويطلق عليهم المدجنون ، تمهيداً لتصيرهم بعد إزالة كل طابع إسلامى ، ابتداء من استسلام تلك المدن الإسلامية صلحاً ثم حدوث إهدار لشروط الصلح ، وذلك بإسقاط الكيان العقيدى للمسلمين وإبعادهم عن أى سمة من سمات الإسلام ، وقد يسلكون فى ذلك سبيل الإزهاق للناس والإجهاض لكل ما تتمثل فيه عقيدتهم . وكانت المدن الإسلامية التى يشددون عليها النكير ويذيقونها الويل والثبور تُعرض عليهم الاستسلام صلحاً ، فترفضه بعض عناصر جيش أسبانيا النصرانية ، لا سيما رجال الكنيسة طالبة تسليم من فيها من المسلمين ، حتى قد ترفض السماح لهم بالخروج من المدينة بأنفسهم ، وسارت تلك السياسة على تحويل المساجد إلى كنائس فى المدن الأندلسية بعد سقوطها .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ ، ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٢٢ .

ظهر هذا بوضوح في الصراع بين ملوك أسبانيا النصرانية وبين الإمارات الإسلامية في الأندلس قبيل قيام مملكة غرناطة ، وهي حركة كانت تحمل لواء الإقضاء طابعاً عاماً لها وسُميت بحرب الاسترداد الأسبانية وقد بدأت منذ أيام ملوك الطوائف .

وللحفاظ على البقية الباقية من الإسلام<sup>(١)</sup> والمسلمين قامت دولة غرناطة أو الأندلس الصغرى وضُمَّت مملكة غرناطة في أيام بني الأحمر الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية : جنوبي نهر الوادي الكبير إلى البحر المتوسط ، والجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ومن لورقة في ولاية مرسية شرقاً إلى البحر المتوسط ، ومن الشمال حتى قلعة يحصب في ولاية جيّان إلى شدونة في ولاية قادس غرباً ، وشملت ثلاث ولايات كبيرة هي : ولاية غرناطة في الوسط وفيها العاصمة غرناطة ، وولاية المرية في الشرق ، وولاية مالقة في الجنوب والغرب . ولقد اعتُبر من الغرائب استمرار مملكة غرناطة لمدة تزيد عن قرنين ونصف قرن ( ٦٣٥ - ٨٩٧ هـ ) رغم صغرها ، وقلة عدد سكانها ، محافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ، ووجود حضارى معطاء .

### جهاد بني مرين في الأندلس :

ومن الأسباب القويّة التي حافظت على استقلال<sup>(٢)</sup> غرناطة وتحديثها لأعدائها الأسباب ومن شايعهم ، هو وقوف دولة بني مرين إلى جانبها ، فقد كان بنو مرين أصحاب الدولة الفتية في عدوة المغرب نعمّ المعاون - وإن أصاب هذه العلاقة أحياناً بعض الضعف أو اعتراها التردد - بل اعتاد بنو مرين ترك فرق دائمة في الأندلس للمرابطة على تلك الثغور الأندلسية متفرغة للجهاد فيها .

ولقد أعاد بنو مرين تاريخ العبور من المغرب إلى الأندلس في أيام الموحدين الأوائل بل إن سلاطينهم تسمّوا وتكثّوا بأسمائهم وكُناهم ، فهذا أبو يوسف يعقوب المنصور المريني ، يذكرنا بأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ( بطل معركة

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ .

الأرك ) - ذلك أنه كان مثله اسماً وحقيقةً حينما خاض يعقوب المنصور المريني معركة استجه بجوار جيوش أبي عبد الله محمد الفقيه بن الأحمر .

### معركة استجه ( المعركة الدونونية ) :

فقُبل وفاة أبي عبد الله محمد الأول ( ٦٣٥ - ٦٧١ هـ ) عاد الفونش العاشر ( ملك قشتالة ) إلى مهاجمة الأراضى الأندلسية ، فوجه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المنصور نداءً بطلب النجدة ، لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر ، أى وصلت فى أيام ولده محمد الثانى المعروف بالفقيه . أرسل السلطان المريني جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ، عبر إلى جزيرة طريف فى ذى الحجة سنة ٦٧٣ هـ ( ١٢٧٥ م ) ثم لحق به السلطان فى صفر من السنة التالية ، حيث جرت لهم أحداث مع جيوش قشتالة ، كان منها معركة هائلة فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول لعام ٦٧٤ هـ ( أيلول سنة ١٢٧٥ ) عند مدينة استجة جنوبى غرب قرطبة ، وقد كان الجيش القشتالى كبيراً جداً ، قدره بعض المؤرخين بتسعين ألف مقاتل ، تحت إمرة القائد القشتالى الشهير الدون نونيو دى لارا صهر ملك قشتالة العاشر ، ويعرف هذا القائد فى المصادر الأندلسية باسم دونونة وعرفت المعركة باسمه ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخماً فى العدد والعدد ( مُقْبِلاً على الحرب بقوة وأمل ، وبقيادة مجرّبة وماهرة ، لم تعرف الهزيمة من قبل . لكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين ، وباشروا أمير المسلمين المريني القتال بنفسه وابنه يوسف فى المقدمة ، وكانت مقدمات المعركة صورة شبيهة بما جرى فى معركة الأرك ، فإن الأمير المريني أبا يوسف يعقوب « ترجّل عن جواده ، فأسبغ وضوءه وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، فكان فى آخر دعائه ما دعا به النبىُّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر للصحابة : « اللهم انصر هذه العصاة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها » فأجاب الله تعالى دعاءه ، وعقد لولده الأمير

يوسف لواء المقدمة ، ونادى على المسلمين فقال : يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذائبون عن حماه ، والمقاتلون عُداه ، وهذا يوم عظيم ومشهد جسيم ، له<sup>(١)</sup> ما بعده : ألا وإن الجنة قد فُتحت لكم أبوابها ، وزُيّنت حورُها وأترابُها ، فبادروا إليها وجدُّوا في طلبها ، وأبدلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ( سورة التوبة - الآية ١١١ ) ، فاغتموا هذه التجارة الربحية ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمن مات منكم شهيداً ، ومن عاش<sup>(٢)</sup> رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة آل عمران - الآية ٢٠٠) فلما سمعوا منه هذه المقالة تآقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للوداع ، والدموع تتسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلُّهم قد طابت نفسه بالموت ، وباعها لربِّه بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصوات بالشهادة والتكبير ، وكلُّهم يقول : عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم ، معتمدة على الحى القيوم .

وفى هذه المعركة حازت جيوش المسلمين المغربية والأندلسية نصراً حاسماً على القشتاليين ، حازت نصراً أعاد إلى الأذهان ذكريات معارك الزلاقة والأرك وإفراغه، وتشبَّت الجيش القشتالى وقتل قائده ، ثم إن السلطان المرىنى أبا يوسف يعقوب المنصور ، ذهب إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضى قشتالة بادئاً بمحاصرة أشبيلية العاصمة ، والتي طلب سكانها منه الأمان والصلح فأجابهم ، وعاد إلى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب فى أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى خمسة شهور فى الأندلس ، وبعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين فى ردِّ جُنْد قشتالة ومن معهم .

\* \* \*

(١) المصدر السابق ، ص ٥٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٠ - ٥٤٣ .

**معركة مشيخة الغزاة :**

كان من نتائج حسن التفاهم بين المرينيين وسلطان غرناطة أن نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الجهاد مدافعين عنها ، وعُرفت هذه المهمة الدفاعية في الخطط الأندلسية بمَشْيَخَة الغزاة ورئيسها هو شيخ الغزاة ، وتولّى بنو العلاء ( من أقارب السلطان المريني ) قيادة المشيخة ، فكانت رئاستها لعبد الله بن أبي العلاء إلى أن استشهد في عام ٦٩٢ هـ .

وقبل حدوث معركة مشيخة الغزاة كان المنصور قد عبر للمرة الرابعة إلى الأندلس في صيف عام ٦٨٤ هـ ، واشتبك مع جيوش قشتالة في البر والبحر ، وذلك في عهد شانجة الرابع ، الذي حاز ملك أبيه الفونش العاشر ، ورغب شانجة في طلب الصلح ، فأرسل وفداً من الأحرار يفوض السلطان المريني ما يراه ، ووضعت شروط مسالة للمسلمين وعدم الاعتداء على الأندلس .

ثم تُوفّي السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور<sup>(١)</sup> المريني في سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٥م) قبل أن يعود إلى المغرب ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس ، وكان من طراز يوسف بن تاشفين المرابطي ، وأبى يوسف يعقوب الموحدي ، ثم ورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف الذي كان له شأن في الجهاد في الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمي غرناطة ، وكان ابن الأحمر محمد الفقيه ( الثاني ) ذا نشاط واضح في هذا الميدان ومهتماً به ، لكنّه جنح أحياناً إلى المسلك الشاذ في مهادنة ملوك أسبانيا النصرانية ضد الآخرين ، وأحياناً ضد المرينيين خوفاً منهم على سلطانه .

ثم تُوفّي سلطان غرناطة محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ ( ١٣٠١م ) فخلفه ابنه محمد الثالث الذي خلع في عام ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم بعده أخوه نصر ، ثم ساءت العلاقة بين هذا السلطان الفرناطي وبين بني مرين ، وجرت أحداث داخلية في مملكة غرناطة ، فانتهاز فرّاندة الرابع ملك قشتالة هذه الأحداث فتحرك بمحاربة ملك أرغون نحو المريّة وجبل طارق فضربا عليهما الحصار ، ولم يأبه ملك قشتالة بالمعاهدة التي كانت بينه وبين غرناطة ، فجرت معركة قرب المريّة قاد المسلمين فيها شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء ضد جند أرغون واضطروهم إلى رفع الحصار عن المريّة ، إلا أن جبل طارق بعد الحصار الشديد أُرغم على التسليم .

(١) المصدر السابق ، من ص ٥٤٠ - ٥٤٣ .

وفي عام ٧١٢هـ ( ١٣١٤م ) أرغم نصر على التنازل ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن أخى محمد الأول مؤسس المملكة . وكان هذا السلطان وافر العزم وطَّد في عهده الأمن واتسع الاستقرار ، وأعاد عهد الجهاد . وحين عاد القشتاليون إلى مهاجمة الأراضى الإسلامية استتجد أبو الوليد بسلطان بنى مرين أبى سعيد فرفض الأخير مساعدته . فزحف الجيش الغرناطى على غرناطة ، وكان جيشاً ضخماً ، يقوده بيدرو ودون جوان الوصيَّان على ملك قشتالة ومن المتطوعين الإنجليز فى حماس نزع صليبية ، ف وقعت المعركة المسمَّاة بمعركة مشيخة الغزاة ، وهى معركة هائلة فى العشرين من ربيع الثانى سنة ٧١٨هـ ( ١٣١٨م ) قرب مدينة غرناطة ، وكان الجيش الإسلامى حوالى ستة آلاف فقط ، منهم ألف وستمئة فارس والباقى رجالة ، لكنَّهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء ، الذى أخلص وجنَّده النية لله مجاهدين مستشهدين . فكان النصر حاسماً وشبيهاً بنصر الزلاقة والأرك ومعركة استجة . ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد باختصار « لقد صابروهم حتى خالطوهم فى مراكزهم فصرعوا بطرة وجوان وولَّوهم الأدبار » . ثم كان أن جعل الله ذلك القائد إحدى العبر فى قتله وقتل رديفه ، واصطلام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ، وهى معجزة من معجزات الله ظهرت فى تلك المعركة ، وحدث بعد هذه المعركة استعادة جبل طارق من أيدي القشتاليين ، حين تضافر المرينون مع مملكة غرناطة فى سنة ٧٢٢هـ ( ١٣٢٢م ) .

### موقعة طريف :

حدث استرداد جبل طارق من القشتاليين سنة ٧٢٢هـ فى عهد سلطان بنى الأحمر أبى عبد الله<sup>(١)</sup> محمد الرابع الذى اغتيل فى عام ٧٢٤هـ ، فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف ( الأول ) ابن أبى الوليد إسماعيل ( ٧٢٤ - ٧٥٥هـ ) . وقد كان أبو الحجاج من أبرع ملوك بنى الأحمر ، بعيد الهمة عالى الخلال ، شاعراً عالماً وحامياً للفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة ، وفى عهده وفى

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٤ .

عهد ابنه تولى الوزارة لسان الدين ابن الخطيب أبعث الكتاب والشعراء الأندلسيين شهرة وذبوعاً . وحدثت في سنة ٧٤٠هـ معركة بحرية هزم فيها المسلمون وانتصر فيها القشتاليون وحلفاؤهم من أرغون والبرتغال . وبارك البابا هذه الحملة ودخلت جيوشهم مملكة غرناطة .

على إثر هذا تجهز المسلمون لرد القشتاليين ومن معهم ، كما تجهز المرينون بقيادة سلطانهم أبي الحسن على بن عثمان بن أبي يعقوب ، والأندلسيون بقيادة أبي الحجاج يوسف ( الأول ) - ونشبت المعركة بين الفريقين في سابع جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ ( ٢٠ من أكتوبر سنة ١٢٤٠م ) استعمل فيها المسلمون نوعاً حديثاً من المدافع تقذف النيران ، وقد غدا هذا السلاح مستعملاً بعد هذا التاريخ ، ولما كان المسلمون لم يستعملوا السلاح الذي استعمله من قبل يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة ، وأبو يوسف يعقوب الموحدى في معركة الأرك ، واستعمله سميّه المرينى في معركة استجة ( وهو سلاح الإيمان ) فقد هزم المسلمون هزيمة منكرة في معركة طريف ، وارتكب القشتاليون المناكر في المعسكر الإسلامى ، وغنموا ما فيه ، وتحفظ كنيسة طليطلة حتى اليوم بين ذخائرها علمين لبنى مرين من هذه المعركة ، ولعلّ المسلمين خسروا في تلك المعركة مصحف عثمان ، وهى معركة مؤلة الوقع - على النفوس ، تذكرنا بوقعة العقاب في عصر الموحدين ، استولى فيها ملك قشتالة على معسكر المسلمين ، وموضع سلطان المغرب وفيه الحريم والأولاد حيث ذبحوا جميعاً بوحشية مروعة . واستشهد في هذه المعركة كثير من علماء الأندلس والمغرب .

### وفي نهاية القرن التاسع الهجرى سقطت غرناطة :

في أواخر عام ٨٨٧هـ تولى حكم غرناطة أبو عبد الله<sup>(١)</sup> محمد الحادى عشر مكان أبيه أبي الحسن على ، وأبو عبد الله هذا هو المعروف بأبى عبد الله الصغير ، خاض هذا الأمير في السنة التالية من حكمه معركة ضد جيوش قشتالة انتصر فيها المسلمون ، ثم قاد جيشاً اتجه به نحو قرطبة ، فغلب في إحدى معاركه عند قلعة اللسانة . وأسرف في تلك المعركة ، فتولّى الحكم بعده عمّه أبو عبد الله<sup>(٢)</sup> الزغل ،

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥١ .

وحدث أن أطلق سراح أبي عبد الله الصغير في سنة ٨٩٠هـ بعقد اتفاق مع قشتالة كان في صالحها ، وصاحب ذلك انقسامات في داخل غرناطة ، وفي هذه الإثناء هاجم جيش قشتالة للمرة الثانية مدينة لُوشة ، فلم تقوَ على المقاومة واستسلمت في سنة ٨٩١هـ ، ثم كانت حرب بين العمّ الزغل وابن أخيه أبي عبد الله انتهت بتقسيم غرناطة ، وبدأ ملك قشتالة يسدّد ضرباته إلى المدن الأندلسية ، ويرهقها حصاراً وحرّاً ، فيخرب ما حول غرناطة ، ويحرق الزروع والمحاصيل ، فاضطر الزغل إلى عقد مصالحة مع ملك قشتالة في سنة ٨٩٥هـ ، وترك الأندلس لابن أخيه أبي عبد الله متوجّهاً إلى تلمسان بالجزائر .

ثم جرت أحداث كثيرة ومتوالية ، وقامت مفاوضات<sup>(١)</sup> لجأ العدو خلالها إلى التحريش والإيقاع بين المسلمين ، وإذكاء الفتنة بينهم ، وتمكّن من حصار غرناطة حصاراً شديداً انتهى باستسلامها ، وهكذا سقط آخر حصن إسلامي وآخر معقل للمسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية ، وهذا شاهد عيان أورد شهادته المقرئ في كتابه نفح الطيب . يقول الشاهد « كان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام ، في محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة » وهو يعني أن معاهدة التسليم تمت في ٢١ من محرم عام ٨٩٧هـ ، وفي ثاني ربيع الأول من ذات السنة ( ٨٩٧هـ ) استولى النصارى على الحمراء ، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مائة من الأعيان رهنوا خوف الغدر - في عرف الغازي - وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكمه أحد عليهم إلا بشريعتهم .

وطبقاً لهذه المعاهدة تعهّد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين ، لكنها جميعاً نُقضت واحدة تلو الأخرى ، وبعد توقيع المعاهدة دخل الملكان الغازيان قصر الحمراء بغرناطة في اليوم الثاني لربيع الأول سنة ٨٩٧هـ ( ٢ من ديسمبر ١٤٩٢م ) - دخلاً حين تركها آخر ملوكها أبو عبد الله محمد الحادي عشر إلى أندرش

(١) المصدر السابق ، ص ٥٥٢ - ٥٥٧ .

فى منطقة البشرات ، جنوبى جبل الثلج بالأندلس ، ثم أمر بالارتحال منها بعياله وحشمه ، وأركبوا مراكب أعدت لهم إلى العدو المغربية ، فنزلوا بمليلة من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس ، فى عام ٩٢٤هـ ، وكان حاكم فاس آنئذ أبو عبد الله بن الشيخ زكريا الوطاسى . ويقول صاحب نفح الطيب « وما زال أعقابه ( أى أعقاب أبى عبد الله بن الأحمر ) بها حتى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال ( الشعاذين ) بعد الملك الطويل العريض فسبحان المعز المذل » .

### العبرة من هذه الدراسة :

كانت هذه الدراسة المختصرة إطلاالات عابرة على معارك الفتوح الإسلامية فى الشرق والغرب وفى بلاد الأندلس بوجه خاص ، ولمسنا من الاطلاع عليها تلك المبادئ السامية التى حملها المسلمون معهم وهم يتوجهون إلى تلك البلاد حاملين لواء النور والعدل والسلام - لمسنا من خلال هذه الإطلاالات روح التسامح الإسلامى ، وتحمل قادة المسلمين مسئولية الحفاظ على أرواح الأبرياء شيوخاً ونساءً وأطفالاً ، وتأمينهم لكل أرض يطأونها ، وعدم اعتدائهم على مقدسات أهالى الأرض المفتوحة ، واحترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ومحافظتهم على كنائسهم وأديرتهم . ورأينا على النقيض من ذلك روح التشفى والانتقام ضد المسلمين من جانب أعدائهم ، فلم يرعوا للمسلمين عهداً ولا ذمة ، ولم يرحموا طفلاً ولا أمّاً ولا شيخاً ، ناسين الأيادى البيض التى أسبغت عليهم من هؤلاء الذين ينتقمون منهم .

والعبرة من سرد هذه المعارك وتلك الأحداث هى محاولة معرفة الحكمة من محاربة الأمم بعضها بعضاً ، ولماذا كان الغزو والتوغل فى بلاد مجهولة العقيدة واللغة والعادات ، وما الفائدة التى يجنيها الغازى من غزوه - هل هى كسب دنيوى زائل أم هى ثمرة خالدة يتلقاها الشهيد من رب العزة فى دار الخلود . لنقتطف فى هذا الصدد جُملاً من تحليل ابن خلدون ونظريته الخاصة :

يقول فى الفصل السابع<sup>(١)</sup> والثلاثين من مقدمته بعنوان : فى الحروب ومذاهب

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧٠ - ٢٧٣ .

أُمم وتربيته : « اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تَزَلْ واقعة في الخليقة منذ زأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منها أهل مصبيته ، فإذا تذاَمروا لذلك وتوافقت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام الأخرى تدافع . كانت الحروب وهو أمر طبيعي في البشر ، لا تخلو عنه أمة لا جيل ، وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرةً ومنافسة ، وإما عدوان وإما غضبٌ له ولدينه ، والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر ، فالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ، ومن دافعهم عن متاعه آذَنوه بالحرب ، ولا بُغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا مُلك ، وإنما همُّهم ونصب أعينهم غلبُ الناس على ما في أيديهم ، والثالث وهو المسمى في الشريعة بالجهاد ، والرابع هو حروب الدول مع لخارجين عليها والممانعين لطاعتها ، فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة ، والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل .

وتعقبنا على رأى ابن خلدون في هذا القول هو : أنه قد حلَّ الحرب تحليلاً محايداً غير متأثر بمبدأ ولا عقيدة ، ولكنه مع ذلك لم يستثن من سبب قيام الحروب أى فئة ، إذ جعل السبب هو إرادة الانتقام ، فكان من العدل والإنصاف أن يستثنى الفئة المؤمنة من هذا السبب ، لأن حربها الآخرين ليس سببه إرادة الانتقام ولكن سببه إحقاق الحق وإرساء قواعد العدالة . كما أنه جعل أنواع الحرب أربع نوعان حروب بغى وفتنة ، ونوعان حروب جهاد وعدل<sup>(١)</sup> ، وإذا نظرنا إلى النوعين اللذين اعتبرهما حروب بغى وفتنة ، لوجدناهما في الحقيقة ثلاثة أنواع هي : حروب غيرة ومنافسة ، وحروب اعتداء ، وحروب رد اعتداء : ولذا خرج من تصنيفه النوع الثالث . وإذا نظرنا إلى النوعين اللذين اعتبرهما حروب جهاد وعدل ، فإننا نتفق معه في النوع الأول وهي حروب الجهاد على أنها حروب مشروعة وعادلة . ونختلف معه على اعتباره النوع الثاني حروباً عادلة في كل الأحوال - فالحروب التي تخوضها الدولة مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها ، لا تكون في كل

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

الأحوال مشروعة وعادلة لسببين إذا كانت دولة ظالمة متجبرة ، أو كانت دولة ملحدة أو مشركة تفرض ولايتها على المسلمين - فالخروج عليها لهذين السببين مشروع وعادل .

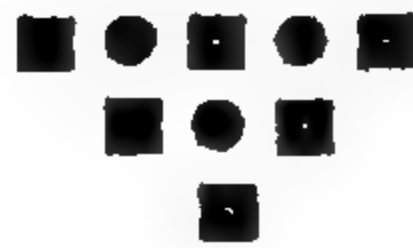
نخلص من ذلك إلى أن الله تعالى قد فرض على المسلمين الجهاد ، وأمرهم بتبليغ دعوة الإسلام إلى جميع العباد ، ولذلك كان العبور إلى شبه جزيرة أيبيريا عبوراً مشروعاً رغم ما فيه من مخاطر ومهالك ، وذلك استجابة لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ( سورة التوبة - الآية ١١١ ) .

بعد ذلك تنتقل بالقارئ إلى رأى ابن خلدون فى انحدار الدول وغروبها - وهو رأى لا يبعد عن المعنى الذى ساقه الله تعالى فى أكثر من آية من آيات الكتاب العزيز كالأية الكريمة فى سورة آل عمران ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ( سورة آل عمران - الآية ١٤٠ ) ، وكالأية الكريمة الواردة فى سورة سورة الأعراف ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ( سورة الأعراف - الآية ١٢٨ ) .

الفصل السادس والأربعون<sup>(١)</sup> من مقدمة ابن خلدون : فى أن الهرم إذا نزل بالدول لا يرتفع ، قال : قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد ، وبيننا أنها تحدث للدول بالطبع ، وأنها كلها أمور طبيعية لها ، وإذا كان الهرم طبيعياً فى الدولة ، كان حدوثه بمثابة الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم فى المزاج الحيوانى ، والهرم من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لأنه

(١) ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ من المقدمة .

طبيعيّ، والأمور الطبيعية لا تتبدّل ، وقد يتتبعه كثير من أهل الدول ممّن له يقظة في السياسة ، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ، ويظنّ أنّه ممكن الارتفاع ، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة ، وإصلاح مزاجها من ذلك الهرم ، ويظنّ أنّه لحقها بتقصير من كان قبله من أهل الدولة وغفلتهم ، وليس كذلك فإنّها أمورٌ طبيعية للدولة ، والعوائد ( العادات ) هي المانعة له من تلافيها ، والعوائد منزلة طبيعية أخرى ، فإنّ من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباّج ، ويتحلّون بالذهب في السّلام والمراكب ، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات ، فلا يمكن مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزّي والاختلاط بالناس ، إذ العوائد حينئذٍ تمنعه وتقبح عليه مرتكبها ، ولو فعله لرُمي بالجنون والوسواس في الخروج على العوائد ومخالفتها ، ولولا التأييد الإلهي والنصر السماوي ، وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوّض عن موقعها من النفوس ، فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة ، فتتدّرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها ، حتى ينقضى الأمر ، وربما يحدث عند آخر الدولة قوة تُوهِم أنّ الهرم قد ارتفع عنها ، ويومض دُبالها إيماضة الخمود ، كما يقع في الدُّبال المشتعل ، فإنّه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة تُوهِم أنّها اشتعال وهي انطفاء ، فاعتبر ذلك ولا تُغفل سِرَّ الله تعالى وحكمته في أطراد وجوده على ما قدر فيه ( ولكلّ أجل كتاب ) .





## مرثيات خالدة

لا يفوتنى أن أختتم هذا البحث الوجيز الذى جمعته عن بعض البطولات العربية فى عصر الفتوحات الإسلامية - لا يفوتنى أن أختتمه ببعض ما قيل من غرر القصائد فى رثاء الأندلس ، وقد انتخبت قصائد مشهورة ، لشدة وقعها على النفوس ، وصدق شعور قائلها ، وتأثرهم البالغ بتلك الكارثة المؤلمة ، سيما وأن أفئدة المسلمين اليوم تتحرق شوقاً إلى استعادة ذكرى تلك الأمجاد ، التى أتى عليها الزمن فجعلها فى خبر كان . والشعرُ فى هذا المضمار هو أصدق أحاسيس الشاعر وأنبأها لأنه يعيش بكل جوارحه هذه المأساة الإنسانية المروعة ، فنبراته الوالهة المكلومة تثير كوامن النفوس ، وتجذب القلوب وتذيبها حسرة وأسى ، ولكنها تقود الإنسانية إلى وحدانية الله تعالى وتجعلها تؤمن إيماناً راسخاً ، بأن الملك لله يُورثه من يشاء من عباده ، وما كان لابد أن يكون ، وبذا تصبح النفوس راضية بما جاءت به المقادير . وهذه المراثى أيضاً تبعث فينا : أمل النصر مع الصبر وأمل العودة مع المثابرة والكفاح ، وأمل الارتقاء إلى مراقى المجد مع الجد والاجتهاد ، وأمل الطمأنينة إلى رضا الله ورضوانه مع الاستعانة به والامتثال لحكمه .

أولاً : قصيدة أبى البقاء الرندى<sup>(١)</sup> :

وأبدأ هذه المراثى بالقصيدة المعروفة برثاء الأندلس للشاعر الأندلسي المفلح صالح بن شريف الرندى المكنى بأبى البقاء الرندى ، وهذه القصيدة النونية فاقت فى الشهرة قفانبك ولم يعهد الناس مرثية مثلها بلغت من إثارة الحفائظ وإرهاف العواطف، فضلاً عن إبداع النظم وإحسان السبك للعلامة خاتمة أدباء الأندلس والذى يقول :

---

(١) المصدر : مختارات من الشعر الأندلسي للمستشرق البوهيمى أ . ر . نيكل ، والحل السندسية .

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ  
هي الأمور كما شاهدتها دولُ  
وهذه الدار لا تبقى على أحدٍ  
يمزق الدار حتماً كل سابعةٍ  
وينتضي كل سيفٍ للفناء ولو  
كان ابن ذى يزن والغمدُ غمدانُ  
فلا يغرب طيب العيش إنسانُ  
من سره زمن ساءته أزمانُ  
ولا يدوم على حال لها شأنُ  
إذا نبت مشرفيات وخرصانُ  
\* \* \*

أين الملوك ذوو التيجان من يمن  
وأين ما شاده شداد في إرم  
وأين ما حازه قارون من ذهبٍ  
أتى على الكل أمراً لا مرد له  
وصار ما كان من ملك ومن ملكٍ  
دار الزمان على داراً وقاتله  
كانما الصعب لم يسهل له سببُ  
فجائع الدهر أنواع منوعة  
وللحوادث سلوان يسهلها  
\* \* \*

دهى الجزيرة أمراً لا عزاء له  
أصابها العين في الإسلام فارتزأت  
فاسال بلنسية ما شأن مرسيةٍ  
وأين حمص وما تحويه من نزهٍ  
قواعد كُن أركان البلاد فما  
تبكى الحنيفة البيضاء من أسفٍ  
على ديار من الإسلام خاليةٍ  
هوى له أحد وانهد ثهلانُ  
حتى خلت منه أقطار وبلدانُ  
وأين شاطبة أم أين جيانُ ؟  
ونهرها العذب فياص وملانُ  
عسى البقاء إذا لم تبق أركانُ ؟  
كما بكى لفراق الإلف هيَمانُ  
قد أقضرت وبها بالكفر عمرانُ  
\* \* \*

حيثُ المساجدُ قد صارتُ كنائسَ ما      فيهنَّ إلا نواقيسُ وصلبانُ  
حتى المحاريبُ تبكى وهي جامدةُ      حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

\* \* \*

يا غافلاً وله في الدهر موعظةُ      إن كنتَ في سِنَّةٍ فالدهرُ يقظانُ  
وما شياً مرحاً يلُهيهِ موطنُهُ      أبعدَ حمصٍ تغرُ المرءَ أوطانُ ؟  
تلك المصيبةُ أنستَ ما تقدمُها      وما لها مع طول الدهرِ نسيانُ  
ياركبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرةُ      كأنها في مجالِ السَّبْقِ عِقبانُ  
وحاملينَ سيوفَ الهندِ مُرهضةُ      كأنها في ظلامِ النَّقْعِ نيرانُ  
ورائعينَ وراءَ البحرِ في دعةٍ      لهمُ بأوطانِهِم عِزُّ وسلطانُ  
أعندكم نبأٌ عن أهلِ اندلسٍ      فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ  
كم يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهمُ      قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ  
ماذا التَّقاطعُ في الإسلامِ بينكمو      وانتمو يا عبادَ الله إخوانُ  
ألا نفوسُ أبياتٍ لها همُّ      أما على الخيرِ أنصارُ وأعدوانُ  
آهٍ لذلةِ قومٍ بعدَ عزهمو      أحالَ حالهمو كُفرو وطغيانُ  
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهم      واليومَ همُ في بلادِ الكُفْرِ عِيدانُ  
فلو تراهُم حيارى لا دليلَ لهم      عليهمو مِن ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ  
ولو رأيتَ بكاهُم عند بيعهمو      لهالكِ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ  
يا ربَّ أمٍ وطفلٍ حيلَ بينهما      كما تفرقُ أرواحُ وأبدانُ  
وطفلةٍ مثل نورِ الشمسِ إذ طلعتُ      كأنما هي ياقوتٌ وريحانُ  
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مكرهةُ      والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ  
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ      إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

ثانياً : قصيدة ابن الأبار الأندلسي<sup>(١)</sup> :

كما سقطت بلنسية في أيدي الأسبان واستولى عليها ملك أراغون « جاقمة  
البرشلوني » حيث حاصرها في رمضان سنة ٦٢٥هـ بجنود كثيفة يؤازرها الوافدون  
الذين كان منهم حشود المتطوعة الفرنسيين بقيادة مطران مدينة أربونة وآخرون من  
جُنُوة ، فشددوا الحصار على المدينة وخرَّبوها بالآلات الحربية ، وهمَّ سكانها على  
الدفاع حتى الرمق الأخير . حينئذ أرسل أميرها أبو جميل زيان ممثله الفقيه  
أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأنصاري إلى أمير مرسية ، ووجه كاتبه  
العلامة أبا عبد الله محمد المعروف باب الأبار برسالة يستصرخ فيها أمير تونس  
أبا زكريا يحيى بن أبي حفص - إلا أن المقادير كانت أسرع من إجابة ذلك الأمير  
لمُستصرِخه : حيث « عاد أبو عبد الله<sup>(٢)</sup> بن الأبار إلى مُرسِله فألقى الأحوال قد  
أعضل دواؤها ، وقواعد قد غلب عليها أعداؤها ، فتركها هاجراً ، وقصد حرة تونس  
مهاجراً - ورغم أن الأمير الحفصي قد بادر بتجهيز أسطول شحنه بالمؤونة والسلاح  
من ثمانى عشرة سفينة كبيرة وصغيرة ، واتجهت بصحبة ابن الأبار وبقية الوفد  
الأندلسي ، لكن هذه السفن فشلت في إيصال الإمدادات إلى المدينة المنكوبة . حيث  
اضطرت هذه المدينة اليائسة إلى الاستسلام في السابع من شهر صفر لعام ٦٢٦هـ  
فعات فيها الغازي الأراغوني وكل من معه من الجيوش .

وفي هذه القصيدة يقول ابن الأبار مخاطباً أمير تونس :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل منك عز النصر ملتصبا
وحاش مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاق البلوى صباح مَسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدُّها تعسا
في كل شارقة إمام بائقة	يعود مائماً عند العدى عرسا
وكل غارية إجحاف نائبة	تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى

\* \* \*

(١) المصدر : الحل السندسية لشكيب أرسلان - الجزء الثالث .

(٢) المرجع السابق .

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم  
وفي بلنسية منها وقرطبة  
مدائن حلها الإشراف مبتسما  
وصيرتها العوادي العائثات بها  
فمن دساكر كانت دونها حرسا  
يا للمساجد عادت للعدى بيعا  
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها  
وأربع نمت أيدي الربيع لها  
كانت حدائق للأحداق موقفة  
وحال من حولها من منظر عجب  
سرعان ما عاث جيش الكفر وحربا  
وابتزرتها مما تحيىفها

الأعقائلها المحجوبة الأنسا  
ما يذهب النفس أو يستنزف النفسا  
جدلان وارتحل الإيمان مبتئسا  
يستوحش الطرف فيها ضعف ما أنسا  
ومن كنائس كانت قبلها كنسا  
وللنداء غدا إثناءها جرسا  
مدارس للمثاني ، أصبحت درسا  
ما شئت من خلع حوشية وكسى  
فصوح النضر من أدواحها وعسا  
يستجلس الركب أو يستركب الجلسا  
عيث الدبا في مغانيها التي كسبا  
تحيف الأسد الضاري لما افترسا

\* \* \*

فاين عيش جنيناه بها خضيرا  
محا محاسنها طاع اتيج لها  
خلا له الجوف امتدت يداه إلى  
واكثر الزعم بالتثليث منفردا

واين غصن حنيناه بها سلسا  
ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا  
إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا  
ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

\* \* \*

هذى رسائلها تدعوك من كتب  
وربما سبحت والريح عاتية  
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى  
ملك تقلدت الأملاك طاعته

وانت أفضل مرجو لمن ينسا  
كما طلبت بأقصى الشدة الفرسا  
حفص مقبله من ثريه القدس  
دينا ودنيا ففشأها الرضا لبسا

طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا

كَأَنَّهُ الْبَدْرُ وَالْعُلَيَاءُ هَالَتُهُ      تَحَفُّ مِنْ حَوْلِهِ شَهَبُ الْقَنَا حَرَسَا  
قَامَتْ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ دَوْلَتُهُ      وَانْشَرَّتْ مِنْ وَجْهِهِ الْجُودِ مَا دَرَسَا  
قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى بِصِيرَتِهِ      فَمَا يَبَالِي طَرِيقَ الْخَطْبِ مَلْتَبِسَا

\* \* \*

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورَ أَنْتَ لَهَا      عَلِيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهُدَى تَعَسَا  
وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَنَّكَ مَنْ      يُحْيِي بِقَتْلِ مَلُوكِ الصُّفَرِ أَنْدَلَسَا  
طَهَّرَ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسُ      وَلَا طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا  
وَأَوْطَأَ الْفِيلَ الْجَرَارَ أَرْضَهُمْ      حَتَّى يَطَاطِئَ رَأْسًا كُلُّ مَنْ رَأَسَا  
وَانْصَرَّ عَبِيدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرْقَتْ      عِيُونُهُمْ أَدْمَعًا تَهْمِي زَكَا وَخِسَا  
هُمْ شَيْعَةُ الْأَمْرِ وَهِيَ الدَّارُ قَدْ نَهَكَتْ      دَاءُ مَتَى لَمْ تَبَاشِرْ حَسْمَهُ انْتَكَسَا  
وَاضْرِبْ لَهَا مَوْعِدًا بِالْفَتْحِ تَرْقُبِهِ      لَعَلَّ يَوْمَ الْأَعْدَادِ قَدْ أَتَى وَعَسَى

ثالثاً : مرثية أبي المطرف بن عميرة<sup>(١)</sup> :

ولما سقطت بلنسية في أيدي أعداء الإسلام أكثر أدباؤها بكاءها والتأسف  
عليها نظماً ونثراً « فمن ذلك قول الكاتب أبي المطرف بن عميرة يخاطب الكاتب  
أبا عبد الله بن الأبار جواباً لرسالة له :

طارحني حديث مَورِدٍ جَفَّ ، وقطين خَفَّ ، فيا لله لأترابٍ دَرَجوا ، وأصحابٍ  
عن الأوطان خرجوا ، قُصَّتِ الأجنحة .. وقيل طِيرُوا ، وإنما هو القتل ، أو سِيرُوا  
فتفرقوا أيدي سباً ، وانتشروا ملء الوهاد والريا ، ففى كل جانب عويل وزفرة ، وبكل  
صدرٍ عليلٌ وحسرة ، ولكل عين عبرة لا ترقأ من أجلها عبرة ، داءٌ خامر بلادنا حين  
أتاها ، وما زال بها حتى سَجَى موتاها ، إلى أن يقول شعراً :

ما بال دمعك لا يني مدراره	أما ما لقلبك لا يقر قراره
البلوعة بين الضلوع لظاعن	سارت ركائبه وشطت داره .. ؟
أما للشباب تقاذفت أوطانه	بعد الدنو وأخفت أوطانه
أما للزمان أتى بخطب فادح	من مثل حادثة خلّت أعصاره
بحر من الأحزان عبأ عبابه	وابيح ما بين الحشا زخاره
فى كل قلب منه وجندٌ عنده	أسفاً طويل ليس تخبؤ ناره

\* \* \*

أما بلنسية فمثنوى كافر	خفت به فى عقرها كفّاره
زرع من المكروه هل حصاده	عند الغدو غداة لجّ حصاره
ما كان ذاك المصر إلا جنة	للحسن تجرى تحته أنهاره
طابت بطيب بهاره أصاله	وتعطرت بنسيمه أشجاره
ودجا به كيل الخطوب بصحبه	أعيا على ابصارنا أسفاره

(١) الحل السندسية ( الجزء الثالث ) ، ص ٥٤١ ، ٥٤٢ .

رابعاً : رثاء آخر معاقل الإسلام لابن خاتمة<sup>(١)</sup> :

ومن مراثى الأندلس الجديدة بالحفظ ، هذه المراثية للأديب أبى جعفر ابن خاتمة والتي يرجع تاريخ نظمها إلى سنة ٩٠٤ أو ٩٠٥ للهجرة . أى بعد سقوط غرناطة بقليل ، وكانت مدينة رندة قد سقطت قبلها ( ولذا بدأ الشاعر قصيدته بها - وقد عثر على هذه القصيدة صاحبُ الحل السندسية لدى الأستاذ السيد عز الدين فخز الدين التنوخى السورى . وذلك عند وصول المؤلف الأمير شقيب أرسلان لسورية فى سنة ١٢٥٦هـ ( ١٩٣٧م ) .

وقد وصف صاحب هذه القصيدة ( ابن خاتمة ) سقوط مملكة بنى الأحمر مدينة بعد مدينة ، وكانت صُبابة كأس الأندلس ، فذكر رُندة ثم مالقة وبلش ، ثم المنكب ثم وادى آش ثم بسطة ثم المريّة ، وختم ابن خاتمة مناحته بذكر غرناطة أم البلاد ، ومن نسق نظمها يظهر أنه كان مشاهداً تلك الحوادث القاصمة للظهور وأن البيان كان عن عيان :

أحَقَّا خَبَا مِنْ جَوْرُنْدَةَ نَوْرُهَا	وَقَدْ كُسِفَتْ بَعْدَ الشَّمُوسِ بُدُورُهَا
وَقَدْ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا وَتَزَلْزَلَتْ	مَنَازِلُهَا ذَاتَ الْعُلَا وَقُصُورُهَا
أَحَقَّا خَلِيلِي أَنْ رُنْدَةَ أَقْضَرْتُ	وَأَزَعَجَ عَنْهَا أَهْلُهَا وَعَشِيرُهَا
وَهْدَّتْ مِبَانِيهَا وَثَلَّتْ عُرُوشُهَا	وَدَارَتْ عَلَى قُطْبِ التَّفْرِقِ دُورُهَا
مَنَازِلُ آبَائِي الْكَرَامِ وَمَنْشَأِي	وَأَوَّلِ أَوْطَانِ غَدَائِي خَيْرُهَا

\* \* \*

فَمَا لَقَا الْحَسَنَاءُ ثَكْلَى أَسِيفَةً	قَدْ اسْتَفْرَقَتْ قِتْلًا وَذَبْحًا حُجُورُهَا
وَجُزَّتْ نَوَاصِيهَا وَشَلَّتْ يَمِينُهَا	وَيَدُلُّ لِلْوَيْلِ الْمُبِينِ سُرُورُهَا
وَقَدْ كَانَتْ الْغَرِيبَةُ الْجِنَنُ الَّتِي	تَقِيهَا فَأُضْحَى جِنَّةُ الْحَرْبِ سُورُهَا

(١) الحل السندسية ( الجزء الثالث ) ، ص ٥٤١ ، ٥٤٢ .

وَلَشَّ قُطَّتْ رِجْلُهَا وَيَمِينُهَا      وَمِنْ سَرِيانِ الدَّاءِ بَانَ قُطُورُهَا  
 وَضُمَّتْ عَلَى تِلْكَ الثَّنِيَّاتِ حِجْرُهَا      فَاقْفَرُ مَغْنَاهَا وَظَاشَتْ حِجُورُهَا  
 وَبِاللَّهِ إِنْ جِئْتَ الْمُنْكَبَ فَاَعْتَبِرْ      فَقَدْ خَفَّ نَادِيهَا وَجَفَّ نَضِيرُهَا  
 وَقَدْ رَجَفَتْ وَادِي الْأَشَى فَبِقَاعِهَا      سَكَارَى وَمَا اسْتَاكَتْ بِخَمَرِ ثَغُورِهَا  
 وَيَسْطَةُ ذَاتِ الْبَسْطِ مَا شَعَرْتَ بِمَا      دَهَاها وَأَنْتِ يَسْتَقِيمُ شَعُورُهَا  
 وَإِنْ أَنْسَ لَا أَنْسَى الْمَرِيَّةَ إِنَّهَا      قَتِيلَةٌ إِدْجَالِ أَزِيلِ غَدِيرُهَا  
 إِلَّا وَلْتَقْضِرْ يَا رَكْبَ الْأَسَى بِمَعَالِمِ      قَدْ ارْتَجَّ بِأَدْيِهَا وَضَجَّ حُضُورُهَا  
 بَدَارِ الْعُلَا حَيْثُ الصُّفَاتِ كَانَتْهَا      مِنَ الْخُلْدِ وَالْمَاوَى غَدَتْ تَشْطِيرُهَا  
 مَحَلُّ قَرَارِ الْمُلْكِ غَرْنَاطَةِ الَّتِي      هِيَ الْحَضْرَةُ الْعُلْيَا زَهَتْهَا زَهُورُهَا  
 تَرَى لِلْأَسَى أَعْلَامَهَا وَهِيَ خَشَعٌ      وَمَنْبِرُهَا مُسْتَعْبِرٌ وَسَرِيرُهَا  
 وَمَا حَوْلَهَا سَاهِي الْحِجَى وَأَمَامَهَا      وَزَائِرُهَا فِي مَاتَمٍ وَمَزُورُهَا  
 وَجَاءَتْ إِلَى اسْتِئْصَالِ شَافَةِ دِينِنَا      جِيُوشُ كَمُوجِ الْبَحْرِ هَبَّتْ دَبُورُهَا  
 عِلَامَاتُ أَخَذِ مَا لَنَا قَبْلُ بِهَا      جَنَائِاتُ أَخَذِ قَدْ جَنَاهَا مَثِيرُهَا  
 فَلَا تَنْمَحِي إِلَّا بِمَحْوِ أَصُولِهَا      وَلَا تَنْجَلِي حَتَّى تَحْطُ أَصُورُهَا  
 مَعَاشِرَ أَهْلِ الدِّينِ هَبُّوا لَصُعْقَةِ      وَصَاعِقَةٍ وَارَى الْجِسْمَ ظَهُورُهَا  
 أَصَابَتْ مَنَارَ الدِّينِ فَاَنْهَدَ رُكْنُهُ      وَزُعْزَعُ مِنْ أَكْنَفِهَا مُسْتَطِيرُهَا

\* \* \*

الْأَ وَاسْتَعِدُّوا لِلْجِهَادِ عِزَائِمًا      يَلُوحُ عَلَى لَيْلِ الْوَعَى مُسْتَنِيرُهَا  
 بِأَسَدٍ عَلَى جُرْدٍ مِنَ الْخَيْلِ نَسَقُ      تَدْعُ الْأَعَادِي سَبْقُهَا وَزُنِيرُهَا

بأنفسِ صدقِ موقناتِ بأنّها	إلى الله من تحتِ السيوفِ مصيرُها
فوا حسرتا كم من مساجِدَ حوِّلتْ	وكانت إلى البيتِ الحرامِ سُطورُها
وواسفا كم من صوامعَ أوحشتْ	وقد كان معتادُ الأذانِ يزورها
فمحرابُها يشكّوا ومتبرُّها الجوى	وآياتُها تشكو الفراقَ وحورها
وكم طفلةٍ حسناءَ فيها مصوَّنةٌ	إذا أسفرت يسبّي العقولَ لسفورُها
تميل كقصن البان مالت به الصبّا	وقد زانها ديباجها وحريرُها
فاضحت بأيدي الكافرين رهينةٌ	وقد هتكت بالرغم منها ستورها

خامساً : رثاء الأندلس لشوقي<sup>(١)</sup> :

ومن أبدع ما جادت به قرائح الشعراء في رثاء الأندلس في العصر الحديث ، قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي ، فهي مساهمة صادقة ، وعبرات دافقة في رثاء هذه الممالك الإسلامية الزائلة ، وكان رحمه الله ذا نفس تواقّة إلى قراءة تاريخ تلك الممالك التي بهرت العالم بعظمتها ، كما كان مأخوذاً بمن ترعرع في أحضانها من الشعراء والبلغاء والعلماء والفلاسفة والفقهاء .

ولما خيّر الأعداء - بعد احتلالهم مصر وانتقاده لهم - أي البلاد يرغب أن تكون منفى له ، لم يختَر سوى أسبانيا ، تشوّفاً منه إلى استعادة ذكرى تلك الأمجاد التي تثير كوامن النفس ، وتوقد شاعريته ، ويؤسى نفسه مصائبهم ، فلعلّ جرحه يندمل كما يقول ( إن المصائب يجمعن المصابينا ) وسنقتبس جزءاً من قصيدته الأندلسية التي ناجى فيها وادى الطلح القريب من أشبيلية ، حاكياً ما ألمّ به من فواجع مؤلمة وكوارث قاصمة بعد رحيل أهله عنه - وقصيدته هذه معارضة لنونية ابن زيدون الأندلسي ولكن تختلف عنها في الاستشهاد بها ، فهي في مجال الرثاء والأسى ، أما نونية ابن زيدون فالاستشهاد بها في مجال الصبابة والجوى ، قال شوقي :

يا نائحَ الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم ناسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يداً	قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلاً غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهماً وسل عليك البين سكيناً
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصّدع	من الجناحين عين لا يلبسنا
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمماً	ولا ادكّاراً ولا شجواً أمانيّنا

(١) الشوقيات : الجزء الثاني .

تَجُرُّ مِنْ فَنَنْ سَاقًا إِلَى فَنَنْ      وَتَسْحَبُ الذَّيْلَ تَرْتَادُ الْمُوَاسِيَنَا  
أَسَاءَ جَسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ      فَمَنْ لِرُوحِكَ يَا نَطْسُ الْمُدَاوِينَا

\* \* \*

أَهَا لَنَا نَازِحِي أَيْكَ بِأَنْدَلُسٍ      وَإِنْ حَلَلْنَا رَقِيْقًا مِنْ رَوَابِينَا  
رَسَمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسَمِ الْوَفَاءِ لَهُ      يَجِيْشُ بِالْدمِ وَالْإِجْلَالِ يَثْنِينَا  
لَفْتِيَّةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمَعَهُمْ      وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلِينَا  
لَوْ لَمْ يَسُودُوا بِدِينٍ فِيهِ مَنَبَهُةٌ      لِلنَّاسِ ، كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا  
نَسَقِي ثَرَاهُمُ ثَنَاءً كُلَّمَا نُثِرَتْ      دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا  
كَادَتْ عُيُونُ قَوَافِينَا تَحْرُكُهُ      وَكَدَنَ يُوقِظُنَ فِي الثَّرْبِ السَّلَاطِينَا

\* \* \*

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا      بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَحْمِي عَنْ مَآقِينَا  
أَمَا تَرْقِرُقُ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًا      هَاجَ الْبُكَاءُ فَخَضِبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا  
الَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ تَهْتِكْ دِيَاغِيَهُ      عَلَى نِيَامٍ وَلَمْ تَهْتِفْ بِسَالِينَا  
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرْنَا إِلَّا عَلَى قَدَمِ      قِيَامِ لَيْلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا  
كَزْفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ      مِمَّا نَرُدُّ فِيهِ حِينَ يَضُوءِينَا  
يَا مَنْ نَغَارُ عَلَيْكُمْ مِنْ ضَمَائِرِنَا      وَمَنْ نَصُونُ هَوَاهُمْ فِي تَنَاجِينَا  
نَابُ الْحَنِينِ إِلَيْكُمْ فِي خَوَاطِرِنَا      عَنْ الدَّلَالِ عَلَيْكُمْ فِي أَمَانِينَا  
جِئْنَا إِلَى الصَّبْرِ نَدْعُوهُ كَعَادَتِنَا      فِي النَّائِبَاتِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِأَيْدِينَا  
وَمَا غَلِبْنَا عَلَى دَفْعٍ وَلَا جَلَدٍ      حَتَّى اتَّتَنَا نَوَاكِمُ مِنْ صِيَاصِينَا  
نَطْوِي دُجَاهَ بَجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو      يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَسْمَارِ يَطْوِينَا  
بِتَنَا نُقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ      حَتَّى قَعَدَنَ بِهَا حَسْرَى تُقَاسِينَا  
يَبْدُو النَّهَارُ فَيُخْفِيهِ تَجَلُّدُنَا      لِلشَّامِتَيْنِ وَيَأْسُوهُ تَأْسِينَا

سادساً : الفردوس المفقود للمحجوب<sup>(١)</sup> :

وقصيدة أمير الشعراء آنفة الذكر ترينا مدى ولع هذا الشاعر العظيم بشعراء الأندلس - فهو كما أسلفنا القول - قد عارض أبا الوليد بن زيدون في نونيته التي مطلعها : أضْحَى التَّائِي بديلاً عن تدانينا ..

ومن الإنصاف بل من الواجب أن أثبت هنا قصيدة الشاعر العربي السوداني : محمد أحمد محجوب - رئيس وزراء السودان الراحل ، وهو يرثي أمجاد العرب والإسلام في الأندلس :

نَزَلْتُ شَطُّكَ بَعْدَ الْبَيْنِ وَلَهَانَا	فَذُقْتُ فَيْكَ مِنَ التَّبْرِيحِ الْوَانَا
وَسِرْتُ فَيْكَ غَرِيبًا ضَلُّ سَامِرُهُ	دَارًا وَشَوْقًا وَاحِبَابًا وَاخْوَانَا
فَلَا اللُّسَانَ لِسَانُ الْعَرَبِ نَعْرِفُهُ	وَلَا الزَّمَانَ كَمَا كُنَّا وَمَا كَانَا
وَلَا الْخَمَائِلُ تُشَجِّينَا بِلَابِلِهَا	وَلَا النَّخِيلُ سَقَاهُ الطَّلُّ يَلْقَانَا
وَلَا الْمَسَاجِدُ يَسْمَعُ فِي مَآذِنِهَا	مَعَ الْعَشِيَّاتِ صَوْتُ اللَّهِ رِيَانَا

\* \* \*

كَمْ فَارِسَ فَيْكَ أَوْقَى الْمَجْدَ شَرَعْتَهُ	وَأُورِدَ الْخَيْلَ وَدِيَانَا وَشُطَّانَا
وَشَادَ لِلْعَرَبِ أَمْجَادًا مُؤْتَلَةً	دَانَتْ لِسُطُوتِهِ الدُّنْيَا وَمَا دَانَا
وَهَلْهَلَ الشُّعْرُ زَفْزَافًا مَقَاطِعُهُ	وَفَجَّرَ الرُّوضَ أَطْيَافًا وَالْحَانَا
يَسْعَى إِلَى اللَّهِ فِي مُحَرَّابِهِ وَرَعَا	وَوَلَجَمَّالٍ يُمَدُّ الرُّوحَ قُرْيَانَا
لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى ذِكْرِي تُورِقُنَا	وَعِزَّ دَارِ هَوَى أَصْغَتْ لَنَجْوَانَا

\* \* \*

(١) بين مسبحتي ودني : للشاعر محمد أحمد محجوب .

اكادُ أسمعُ فيها همسَ واجفةٍ      من الرقيبِ تمنى طيبَ لقيانا  
 الله اكبرُ هذا الحسنُ أعرفهُ      ربَّانٍ يضحكُ أعطافاً واجفاناً  
 اثارُ في شجوننا كنتُ اكتمُها      عفاً واذكرُ وادي النيلِ هيَماناً  
 فللعُيونِ جمالُ سحره قدرُ      ولقدودٍ إباءُ يفضحُ الباناً  
 فتلك دغدُ سوادُ الشعرِ كلالها      أختي عرفتُك بعد الهجرِ ازماناً  
 أختي لقيتُك لكن أينَ سامرنا      في السالفاتِ فهذا البعدُ اشقاناً  
 أختي لقيتُ ولكن ليس تعرفني      فقد تباعدَ بعدَ القربِ حياناً

\* \* \*

طفنا بقرطبة الحسناء نساؤها      عن الجدودِ وعن آثارِ مرواناً  
 عن المساجدِ قد طالت منائرُها      تعانقُ السحبَ تسبيحاً وعرفاناً  
 وعن ملاعبِ كانت للهوى قدساً      وعن مسارحِ حُسنِ كُنْ بستاناً  
 أبو الوليدِ تغنى في مرابعِها      واججَ الشوقُ نيراناً وأشجاناً  
 لم ينسِه السُجنُ أعطافاً مرثيةً      ولا حبيباً بخمرِ الدلِّ نشواناً  
 فما تغربَ إلا عن ديارهمو      والقلبُ ظلَ بذاك الحبِّ ولهاناً  
 فكَم تذكُرُ أيامَ الهوى شرقاً      وكم تذكُرُ أعطافاً وارداناً  
 قد هاجَ منه هوى ولادةٍ شجناً      بوحاً وشوقاً وتغريداً وتحناناً  
 فاسمعَ الكونَ شِعراً بالهوى عطراً      ولقنَ الطيرَ شكواه فاشجاناً  
 وعاشَ للحسنِ يرعى الحسنُ في ولهٍ      وعاشَ للمجدِ يبني المجدُ ألواناً  
 تلكَ السماواتُ كُناها نجمُها      بالحبِّ حيناً وبالعلياءِ أحياناً

فِرْدَوْسِ مَجْدِ اضْغَاعِ الْخُلْفِ رُوَعَتَهُ      مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لِلْإِسْلَامِ عُنْوَانًا

\* \* \*

ابا الوليدِ أعنى ضاعَ تالِدُنَا	وقد تناوَحَ احْجَارًا وجُدرَانَا
هذى فلسطينُ كادتْ والوَعَى دَوْلُ	تكونُ اندُلُسَا اخْرَى واحْزَانَا
كُنَّا سِرَاةً تُخِيفُ الْكُونُ وَحَدَّتْنَا	واليَوْمَ صرنا لأهلِ الشُّركِ عُبْدَانَا
نغدو على الذُّلِّ احْزَابًا مفرَّقةً	ونحنُ كُنَّا لحِزْبِ اللهِ فُرسَانَا
رماحنا في جَبِينِ الشَّمْسِ مشرعةً	والأَرْضُ كَانَتْ لخيْلِ العُرَيْمِيْدَانَا
الجُرْحُ وَحَدَّنَا والثَّارُ جَمْعُنَا	لِلنَّصْرِ فَيهِ إِرَادَتُ وُجْدَانَا
لهفى على القُدْسِ فى المأساةِ داميةً	نفديك يا قُدْسُ أرواحًا وابدَانَا

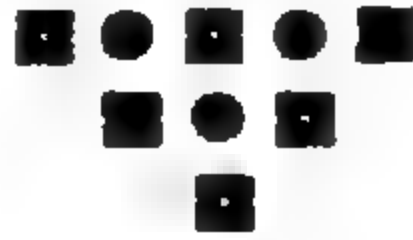
تم بحمد الله تعالى وتوفيقه



## المراجع

المؤلف	المراجع
عبد الملك بن هشام .	السيرة النبوية المعطرة
الدكتور / طه حسين .	مرآة الإسلام
الأستاذ / محمد فريد أبو حديد .	أمتنا العربية
البلاذري .	فتوح البلدان
المسعودي .	مروج الذهب
ابن جرير الطبري .	الكامل في التاريخ
الأستاذ / سيد أمير علي .	مختصر تاريخ العرب
الأستاذ / علي أدهم .	المعتمد بن عباد
الأستاذ / عباس محمود العقاد .	عبقرية خالد
الأستاذ / ثروت أباظة .	ابن عمار
عبد القادر البغدادي / تحقيق الأستاذ/	خزانة الأدب
عبد السلام هارون .	مقدمة ابن خلدون
عبد الرحمن بن خلدون .	الحلّ السندسية
أمير البيان شكيب أرسلان .	التاريخ الأندلسي
الدكتور / عبد الرحمن علي الحجى .	قصة الأدب في الأندلس
الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى .	مواكب الحرية في مصر الإسلامية
الدكتور / عبد المنعم خفاجى .	مختارات من الشعر الأندلسي
المستشرق البوهيمى أرنىكل/تقديم	
الأستاذ/عمر فروخ .	

المؤلف	المراجع
المؤرخ الألماني/يوسف أشباح/ترجمة الأستاذ/محمد عبد الله عنان .	تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين
ابن الآبار : تعليق الدكتور / حسين مؤنس .	الحلة السيرة
الأستاذ / عبد الله عفيفي .	المرأة العربية في الجاهلية والإسلام
ابن قيم الجوزية .	زاد المعاد
الدكتور / شوقي ضيف .	البطولة في الشعر العربي
الأستاذ / محمد رضا .	عثمان بن عفان
الدكتور / محمد السيد طنطاوي .	السرايا الحربية في العهد النبوي
الشيخ / عبد الوهاب النجار .	الخلفاء الراشدون
الدكتور / أحمد حسن الشيباصي .	خامس الخلفاء الراشدين
الأستاذ / محمد أحمد محجوب .	ديوان : مسبحتي ودني
أمير الشعراء / أحمد شوقي .	الشوقيات ( الجزء الثاني )
هدية مجلة منبر الإسلام عام ١٩٦٦ .	كتاب الصوم والهجرة
الأعداد : ٧ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٧٧ ، ٩٣ .	مجلة العربي
العدد ١٢٥ ( يولية ١٩٦٧ ) .	مجلة الشبان المسلمين
العدد رقم (٢) من السنة الأولى .	مجلة الضياء الإماراتية



# المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
	الفصل الأول
	فتح الأندلس
٧	فتح الأندلس
٩	لماذا عبر العرب المضيق الذي يفصل بين أوروبا وأفريقية
١٠	المعارك التي خاضها المسلمون في فتح الأندلس
١١	معركة سيدونيا وهزيمة القوط
١١	موسى بن نصير وطارق بن زياد في طليطلة
١٢	فتوحات موسى في الشمال
	الفصل الثاني
	العرب في الأندلس
٢٣	معارك السمع بن مالك وظهور شخصية الغافقى
٢٣	بروز شخصية عبد الرحمن الغافقى ( أعظم قائد عرفه الفرنجة )
٢٤	دروس وعبر من معركة تولوز
٢٥	معارك عبد الرحمن الغافقى
٢٥	تولية عبد الرحمن الغافقى على الأندلس
٢٦	اغتيال منوذة وغزو جنوب فرنسا
٢٦	موقعة بلاط الشهداء ( تور ) و اغتيال عبد الرحمن الغافقى
٢٧	انسحاب المسلمين من جنوب فرنسا
٢٨	عبد الرحمن الغافقى في سطور
٢٨	دروس وعبر من معارك الغافقى في الأندلس
٣٠	هجمات المسلمين بعد معركة تور على فرنسا

---

الصفحة	الموضوع
٣٢	هجوم بين القصير على المسلمين في فرنسا سنة ٧٥٢م .....
٣٤	معارك العرب في الأندلس في عهد أبطال ثلاثة .....
٣٤	(عبد الرحمن الداخل - عبد الرحمن الناصر - المنصور بن أبي عامر) .
٣٤	عبد الرحمن الداخل .....
٣٥	عبد الرحمن الناصر .....
٣٦	المنصور بن أبي عامر .....
٣٧	حدوث الفتن بين عناصر المسلمين بعد انتهاء الخلافة الأموية في الأندلس .
٤٠	معارك العرب في عصور ملوك الطوائف .....
٤٨	خلاصة ما يمكن إيجازه عن دول الطوائف .....
٥١	المعتمد بن عباد وأبو بكر بن عمار ومعركة الشطرنج .....
٥٢	استيلاء بني عباد : حكام أشبيلية على قرطبة .....
٥٧	معركة الشطرنج ( العباديون والفونسو السادس ) .....
٥٨	مقتل ابن عمار .....
٦٥	خلاصة ( عن المعارك في ذلك العصر ) .....
	الفصل الثالث
	معارك العرب في الأندلس في عصرى المرابطين والموحدين
٦٩	معركة الزلاقة .....
٦٩	حركة الاسترداد الأسبانية .....
٧٠	الاستيلاء على طليطلة من المسلمين .....
٧١	معركة الزلاقة .....
٨٢	ماذا أعقب معركة الزلاقة .....
٨٢	محاولة الاستيلاء على حصن لبيط المنيع .....
٨٥	خضوع أسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين .....
٨٦	نهاية حكم بني عباد أعظم ملوك الطوائف في الأندلس .....
٩٢	معركة أقليمش أو ( أقليمش ) ( ٥٠١ هـ - ١١٠٨ م ) .....
	حروب النصاري الأسبان ضد المسلمين منذ معركة أقليمش حتى قيام
٩٧	دولة الموحدين .....

الصفحة	الموضوع
٩٧	الحروب الصليبية فى أسبانيا .....
٩٨	سقوط سرقسطة ثانى معقل للمسلمين فى الأندلس بعد طليطلة ....
٩٩	ظهور أبو عبد الله بن تومرت ( المهدي ) مؤسس دولة الموحدين .....
١٠٢	حروب عبد المؤمن بن على الموحدى ضد ملوك المرابطين .....
١٠٧	معارك العرب فى أسبانيا ( من معركة إفراغة إلى معركة الأرك ) .....
١٠٧	المرابطون يسحقون جيوش القيصر فى معركة إفراغة .....
١٠٨	جواز الموحدين إلى الأندلس وسيادتهم عليها .....
١١٠	حملات النصارى ضد المرية وأشبونة وطرطوشة .....
١١٢	تحالف القيصر الفونسو مع المرابطين ضد الموحدين .....
١١٣	قيام جماعات الفرسان الدينية فى أسبانيا والبرتغال .....
١١٤	الموحدون فى الأندلس من افتتاح غرناطة حتى معركة الأرك ... ..
١١٤	( أ ) رقعة دولة الموحدين .....
١١٥	( ب ) عبور الموحدين إلى الأندلس .....
١١٦	( ج ) معركة الأرك .....
١٢٠	دروس وعبر من معركتى إفراغة والأرك .....
١٢١	خريطة توضيحية لبعض المعارك الهامة التى وقعت فى الأندلس منذ الفتح

### الفصل الرابع

### الجهاد الأخير للمسلمين فى الأندلس

١٢٥	الجهاد الأخير للمسلمين فى أسبانيا .....
	(معركتا حصن العقاب وأنيسة وما تلاهما) ثم جلاء المسلمين عن آخر
١٢٥	معاقلهم فى غرناطة .....
١٢٥	ماذا بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور .....
١٢٦	الصراع بين الموحدين وبين بقايا المرابطين على السلطة والحكم .....
١٢٧	الأعمال البشعة التى ارتكبها القشتاليون قبل لقاءهم بالموحدين .....
١٢٨	تأهب الموحدين لمحاربة القشتاليين .....
١٢٩	تأهب القشتاليين لملاقاة الموحدين وحشدتهم قوى أوربا لمعركة المصير ...
١٣٢	معركة حصن العقاب .....

الصفحة

الموضوع

١٣٦	التدرج من حيث القرابة ومن حيث الترتيب الزمني لخلفاء عبد المؤمن
١٣٩	سقوط بعض القلاع الإسلامية عقب معركة العقاب .....
١٤٠	معركة أنيشة وسقوط بلنسية .....
١٤٤	سقوط أشبيلية ومرسية في يد الأسبان .....
١٤٥	نهاية دولة الموحدين بالأندلس وأفريقية .....
١٤٩	الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين .....
١٥١	دولة بنى الأحمر في غرناطة ونهايتها .....
	الفصل الخامس

### الخاتمة ورثاء الأندلس

#### الخاتمة

١٥٧	ماذا عن دولة بنى الأحمر .....
١٥٩	جهاد بنى مرين في الأندلس .....
١٦٠	معركة استجه ( المعركة الدونونية ) .....
١٦٢	معركة مشيخة الفزاة .....
١٦٣	معركة طريف .....
١٦٤	وفي نهاية القرن التاسع الهجري سقطت غرناطة .....
١٦٦	العبرة من هذه الدراسة .....

#### مرثيات خالدة

١٧١	أولاً : مرثية أبي البقاء الرندي .....
١٧٤	ثانياً : قصيدة ابن الأبار الأندلسي .....
١٧٧	ثالثاً : مرثية أبي المطرف بن عميرة .....
١٧٨	رابعاً : رثاء آخر معاقل الإسلام لابن خاتمة .....
١٨١	خامساً : رثاء الأندلسي لشوقي .....
١٨٣	سادساً : الفردوس المفقود للمحجوب .....

١٨٧	المراجع .....
-----	---------------











# العرب فى الأندلس

• هذا الكتاب يضم بين دفتيه قصة الصراع بين العرب والأسبان فى شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا حالياً) فى مدى ثمانية قرون من عام ٩٢هـ / ٧١١م.

• وهو تاريخ دخول المسلمين الأندلس حتى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م.

• وهو العام الذى فقد فيه العرب آخر معقل من معاقلهم وهو المتمثل فى مملكة غرناطة...

وقارئ هذا الكتاب سيجد العظة والحكمة البالغة فيه وسيردد قول الله تعالى:

«إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فالصراع بين الحق والباطل سيظل قائماً الى قيام الساعة.

الناشر  
محمد فكرى

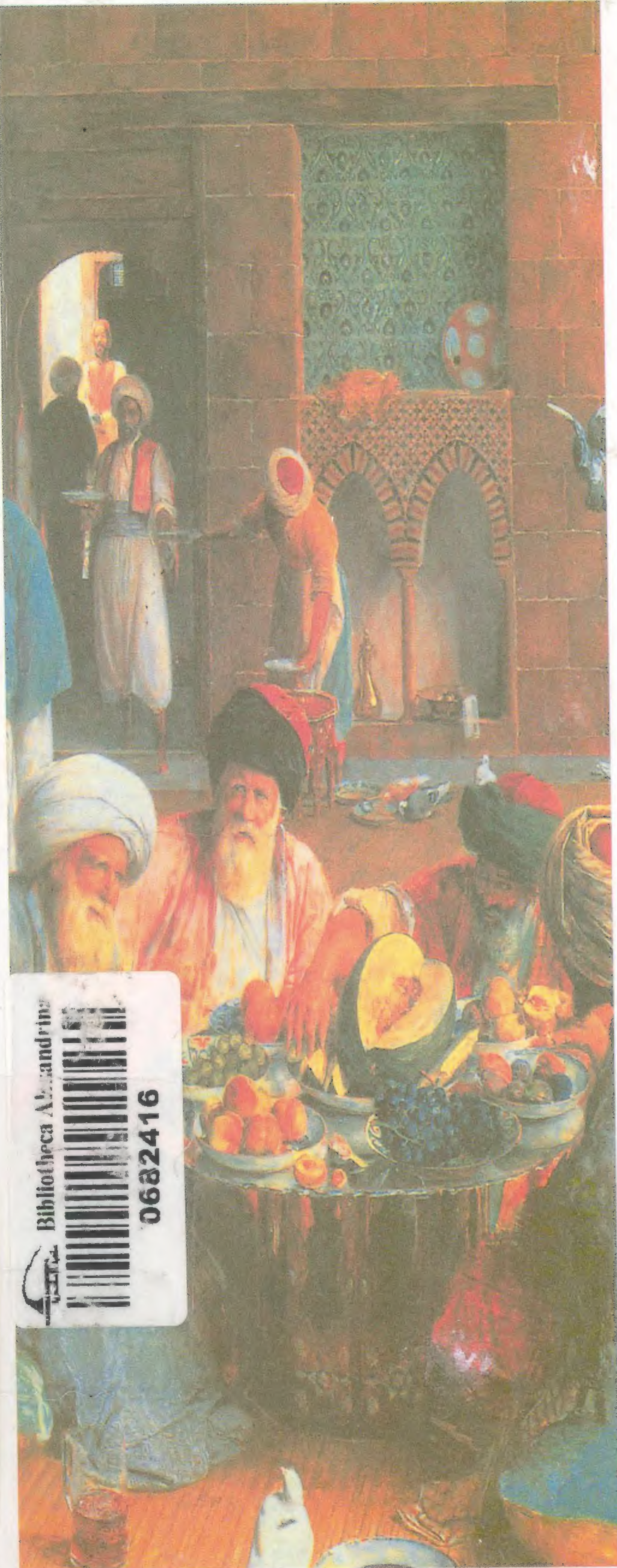


القاهرة - ٣٠ ميدان الحسين

ت: ٥٩٢٦٢١٩

التوزيع

مكتبة فكرى - ٣٠ ميدان الحسين



Bibliotheca Alexandrina



0682416